اسم الكتاب: حمام الحمى
اسم المؤلف: جمال الغيطاني
تاريخ النشر: فبراير ١٩٩٨
رقم الإيداع: ٩٨/٢٣٢٩
الترقيم الدولي: I.S.B.N 977-14-0696 - 5

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة
مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٧ – ٠١١/٣٣٠٢٨٩
فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي – الفجالة – القاهرة
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ – ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥
فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥
ص.ب: ٩٦ الفجالة
إدارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابي – المهندسين – القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ – ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤
فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦
ص.ب: ٢٠ امبابة

الطواف .. من القدوم إلى الوداع ..

Amly

.. مكـة ..

اليـوم سـبت . الخـامس من ذى الحـجـة ، الوقت ليل ، ترتفع أصواتنا بالتلبية ، بينما يزداد اقترابنا من المركز ، من لب القلب . من البيت المعمور ، نتأهب لأداء العمرة قبل الدخول فى مناسك الحج .

مداخل المدينة المقدسة لا تنبئ بالزحام الرهيب الذى حدثونا عنه أثناء إقامتنا فى جدة . يقدر عدد الحجاج هذا العام بثلاثة ملايين .

مع بدء انحدار الطرق الحديثة تطلعت إلى الأمام ، منتظرا لحظة ظهور مؤذن المسجد الحرام .

مع الاقتراب ترتفع الكثافة الإنسانية ، الجميع فى لباس أبيض . سواء كانوا محرمين أو يرتدون ثيابهم العادية ، أعرف الطريق ، جئته عام ستة وثمانين وتسعمائة وألف ، لأداء العمرة .

ملامح البشر متباينة ، من كل فج عميق ، المبانى تعلق لافتات مكتوبة بالعربية ، والفارسية ، والأوردية . . والانجليزية . وفوق أكثر من عمارة قرأت إعلانا عن مؤسسة تجريبية لمطوفى المسلمين القادمين من بلاد ما وراء النهر ، من سمرقند وبخارى ، من طشقند وعشق أباد وباكو ، وصحراء آسيا الوسطى ، يؤدون فريضة الحج لأول مرة منذ عقود طويلة يجئ هذا العدد الضخم منهم ، أربعة عشر ألف حاج من وراء النهر استضافهم خادم الحرمين الشريفين هذا العام على نفقته الخاصة . وهذا عمل ذو أبعاد إيجابية الأثر . محمود فى مجمله .

أرى بعض مآذن الحرم ، أتوثب ، أتحفز ، أتطلع ، تعلو الأصوات بالتلبية . تتوالى الطرق العلوية والأنفاق التى فتحت فى الجبال الصخرية لمسافات طويلة حتى تسهل عملية المرور وانتقال الحجاج ، ومع كل هذه الجهود فإن الزحام يستدعى إلى الذهن يوم الحشر ، عبثا كنت أحاول استيعاب ملامح المكان الذى نتحرك عبره حول الحرم لنصل الى نقطة يمكن الوقوف فيها ، الحق أن المنطقة المحيطة والمؤدية يشوبها اضطراب معمارى المبانى المرتفعة ، الطرز المختلفة . لكم أتمنى أن يعاد تخطيطها بحيث يصبح المسجد الحرام هو المركز الذى تبدأ منه المدينة ، بحيث يمكن رؤيته من مسافات قصية لمن يدخل مكة ، كيف يتحقق ذلك ؟

لا أدرى . . ولكنْ البلد الذى يقوم بهذه الجهود الجبارة فى شق الأنفاق والطرق ، البلد الذى تم فيه التخطيط وتشييد واحدة من أجمل المدن العربية ، أقصد مدينة جدة التى تحقق فيها توازن مدهش ورائع بين الأصالة والمعاصرة ، البلد الذى حقق هذا لقادر على فعل هذا فى أقدس المدن .

على مقربة من الحرم نغادر السيارات ، ألاحظ أن بعض الحجاج ؛ خاصة من شرق آسيا يضعون كمامات على وجوههم ، الزحام شديد ، لكننى كنت مستغرقا فيما أنا مقدم عليه ، وفى لحظة خاطفة ، عابرة ، مرت بى أثناء عبور السيارة لأحد الجسور المحيطة بالحرم . فى لحظة معينة أشرفنا على ساحة فسيحة ، لا أدرى حتى الآن إذا كانت جزءا من الحرم أو خارجه ، كانت مزدحمة بعدد هائل من البشر ، كلهم يرتدون البياض ، وحد لون

الثياب بين الجموع ، أما الوجوه فبدت مجرد علامات دائرية يعلوها لون الشعر الأسود ، لحظة وقوع بصرى على الحشد شهقت ، وحتى الآن لا أدرى . . هل اللحظة حقيقية ، أم أنه إشراق خاطف بدأ مع اقترابى من المركز ، من اللب ، قبل أن أوغل وأصبح مجرد علامة فى هذا الخضم الهائل ، فتنتفى الفردية ، وتتحقق الإنسانية مع الاقتراب من البيت العتيق والطواف به . .

* * *

الطواف بالكعبة...

أربع مرات جئت إلى المسجد الحرام من نفس الجهة قبل شروعى فى الطواف . .

طواف العمرة . .

طواف القدوم . .

طواف الإفاضة بعد الوقوف بعرفة والنفور إلى المزدلفة فمنى . .

طواف الوداع . .

فى كل مرة أنتظر اجتياز الأعمدة ، ولحظة وقوع بصرى على الكعبة لأول مرة ، وفى كل مرة كأنه قدوم جديد ، أتوقف لحظات . هذه الحركة الدائرية لآلاف البشر ، القادمين من كل صوب ، تحركهم تلك المشاعر المتأججة . والوجد القديم ، البعض يجد لها تفسيرا ، والبعض يمارسها كطقوس بدون أن يفهم مدلولاتها ، والبعض يسلم أمرة كله إلى اللحظات وما يكون منها ومنه ، وبالنسبة لى ، كنت مجمعا لهؤلاء جميعا . .

وعندى أثناء الاقتراب يقين أن ثمة من يرقبنى ويرانى . وأننى كلما دنوت ، كلما قوى الحوار ، وزادت المواجيد .

قال الصوفى العظيم الشبلى لصاحبه وهو يحاوره :

« لبيت ؟

قلت : نعم .

فقال لى : وجدت جواب التلبية بتلبيتك مثله ؟

قلت : لا .

فقال : ما لبيت . . »

ولكن بالنسبة لى مع اقترابى من النقطة المحاذية للحجر الأسود ، حيث أبدأ طوافى ، كان ثمة وشائج قوية وهائلة بينى وبين هذا البيت .

ليس هذا مجرد بناء من حجر ، لكنه تلخيص لما كان وما سوف يكون .

هنا الأصل لصور طالعتها منذ أن تفتحت مسام وعيى على الدنيا ، صوت الأذان الذى ترسب فى وجدانى منذ الطفولة إنما هو دعوة للتوجه إلى هذا البيت ، إلى صاحبه ، إلى الله . الصورة محفورة . مترددة مع كل خطوة من العمر ، رأيتها فى الصور المعلقة ، منسوجة فوق أبسطة الصلاة ، فى حنين قومى إلى المجئ ، إلى الوجود فى هذا المكان ، ما من موال أو غناء شعبى مصرى إلا ويفيض وجدًا وشوقًا لزيارة البيت ، والنبى العظيم .

ابدأ طوافى ، لماذا يخفض الإنسان رأسه تلقائيا ، وإذا رنا وتطلع فإنما على استحياء ، من كافة أنحاء الدنيا يتوجه المسلمون إلى قبلة البيت ، يضبطون الميقات ، ويحددونه بالخرائط ، بالآلات التى لم يتوقف تطورها قط لتحديد أدق توجه صوب القبلة ، ولكن .. هنا يتحول الشوق كله إلى قبلة ، إذا تبدأ الصلاة تتحلق الصفوف دائرية ، حول المركز ، المركز المرئى واللامرئى ، أرى صفوف المصلين ، الركع ، السجود حول الكعبة . أنتظم بينهم ، ثم أراهم حول الكوكب الأرضى ، تتسع المسافات ، وتقوم مناطق يصعب اجتيازها ، ولكن فى كل لحظة ومع اختلاف المواقيت ، تتعفر جباه عظماء وبسطاء فى الأرض متوجهة صوب هذا البيت .

يفد على روحى أثناء الطواف كل الأحبة ، الذى رحلوا والذين بقوا ، أذكر والدىَّ رحمهما الله ، كان المجئ إلى البيت والحج أمنية تتوارى معها كل الأمنيات ، كانا هما أحق منى ، ولكنهما رحلا قبل أن تساعد الحياة وتعين .

أذرف دمعًا ؛ عليهما ، وعلى الأحبة الذين رحلوا ، وعلى كثير ، كثير . بعضه يمكننى البوح به والبعض لا أقدر .

لماذا يشعر الإنسان أنه ضعيف ، وأنه واهن ، وأنه قوى أيضا ؟

القلب فى أقصى درجات الحضور مع الله ، والحزن شفيف ، والأمل قوى ، مع بداية انتظامى فى الطواف ، إنما كنت أنتظم فى طابور عمره أربعة عشر قرنا لم تتوقف حركته قط منذ نزول الرسالة ، طابور طاف فيه نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ،

والصحابة ، والأولياء ، وكرام الخلق . وبحر متدفق من الأزل إلى الأبد وما أنا إلا نقطة فيه .

* * *

وجوه من الطواف:

هؤلاء من إيران ، وهؤلاء لهم ملامح آسيوية ، أما الحجاج المصريون فهم كثير ، يمكننى تمييزهم عن بعد ، أسمع من يدعو بالروسية ، حجاج آسيا الوسطى الذين اغتربوا حينا عن لغتهم ولكنهم لم ينفصلوا عن الأصول .

ألمح من يحمل بين يديه كتيبات تحوى نصوصا بالعربية ، وبلغات أخرى ، الحروف لاتينية والنطق عربى .

حجاج من الصين ..

من كل فج ، أفارقة يندفعون فى كتلة متراصة ليفسحوا الطريق ، فجأة أجد أمامى سيدة أفريقية تحمل على ظهرها طفلا رضيعًا يطل بوجهه البرىء من كيس القماش الذى شدته الأم إلى ظهرها ، فى مرة أخرى لمحت رجلا يرفع على يده رضيعا ربما لا يتجاوز شهرين ، فى مرة أخرى رأيت جندًا مدججين بالسلاح ، يحيطون بشخص فى أربعينيات العمر . يرتدى ملابس آسيوية سوداء ، يمشى متمهلا حول الكعبة . إنه سلطان بروناى ، وكان يتقدمه شيخ مهيب اللحية يرفع صوته بالأدعية ! سرعان ما أتجاوزه ، ألمح بعض رفاق الحج للمحات خاطفة . الزميل الكبير ، سلامة أحمد سلامة وزوجته الألمانية المسلمة ..

الشاعر محمد إبراهيم أبو سنة وأسرته . .

أحمد عباس صالح وزوجته . كان يتحامل على نفسه فى الطواف والسعى ، شفاه الله . .

تلتقى العيون وسرعان ما تفترق ، أما يدى فلم تفارق يد زوجتى ، خضم البشر هائل ، والحشد كثيف ، طفت عصرًا ، وقرب الفجر ، وعند الغروب ، وفى السادسة صباحًا بعد أن أتممنا مناسك الحج ، وجِئنا نودع البيت ، ونستأذن فى الرحيل .

أتممت طواف الوداع ، وتذكرت طواف القدوم ، الأول والآخر ، وما بينهما يسعى الإنسان . لعله يُجزى . .

يا حمام الحمى [١] ..
منك ولك سلام ..

.. رغم ضراوة الزحام ، فقد استطعت اقتناص لحظات للتأمل والانفراد ، سواء فى الحرم المكى ، أو فى عرفات أو فى منى حيث يبلغ الحشر أشده ..

زاد عدد الحجاج هذه السنة على مليونين ، وما رأيته يجعلنى أقترب بالعدد من ثلاثة ملايين . ورغم الجهود الهائلة المبذولة ، فإن ضخامة العدد يبتلع أى إمكانيات . إن الدول العظمى لا يمكنها مواجهة مثل هذا الظرف . نزول مليونين أو أكثر فى مكان معين ، تحركهم ، إعاشتهم ، تأمينهم لذلك لا بديل عن تحديد صارم من قبل المملكة العربية السعودية لعدد الحجاج بما يتناسب مع قدرة الأماكن المقدسة على الاستيعاب . مع إعطاء الأولوية لمن لم يسبق له الحج ، لقد التقيت بالبعض وهم يحجون للمرة السادسة أو السابعة .. كل واحد من هؤلاء يزاحم أو يأخذ مكان من لم يسبق له الحج .

الزحام يحول المشاعر إلى معاناة ، ويجردها من أبعادها الروحية ، يصبح هم الحاج إيجاد مكان فى الشارع لينام فيه بدلاً من تأدية المناسك ومعايشة أبعادها الروحية ومعناها رغم الزحام المهول أقول إننى استطعت انتزاع لحيظات أنفرد فيها بنفسى فى الكعبة ، والتى كنت اتعلق بها عبر نظراتى بعد انتهائى من الطواف ، ومع كل مرة كنت أجد هذا الحوار الصامت « الخفى » الذى لا يمكن بلورة معانيه فى ألفاظ أو جمل ، من خلال الأعمدة والأروقة كنت أتطلع ، وفى كل مرة أرى ما لم أقف عليه من قبل .

بعد طواف القدوم الذى أديته عصرًا فى درجة قيظ رهيبة صعدت إلى الطابق الثانى . هنا الزحام أقل ، وإمكانية الانفراد أيسر ، تبدو الكعبة من الطابق الثانى بصورة مختلفة ، البيت

العتيق بكسوته السوداء الجليلة ، وأمواج البشر الذين يرتدون البياض فى حركة دائرية لا تهدأ ولا تتوقف كأنها الزمن نفسه .

أسندت ظهرى إلى عامود رخامى ، كنت أواجه الكعبة وظهرى إلى المسعى الجديد الذى تم إنشاؤه فى الطابق الثانى ، وأثره عظيم فى التيسير على الحجاج .

الوقت ما بين العصر والمغرب ، إنه الأصيل ، رحت أرتل سورة العصر التى أحفظها عن ظهر قلب .

« والعصر .. إن الإنسان لفى خسر .. »

كنت أتأمل النهار الغارب كالعمر المولى ، وأطوف ببصرى فى الفضاء ثم أحط عند الكعبة ، يبدو الإحساس بالزمن قويا هنا ، خاصة مع اقتراب مواعيد الصلاة ، وترقب انطلاق الآذان الصاعد إلى السماء مباشرة ، مع تغير الضوء وميله إلى الإصفرار ، لمحت أسرابا من حمام ، اعتدلت فى رقادى ، رحت أتابع حركته . ظهوره واختفاءه ، علوه وصعوده ، كان بعضه يقترب من الكعبة إلى حد لكنه لا يلمسها ، يبدو وكأنه يشارك الطائفين حركتهم الدائرية . يمكن لأى حمامة أن تلامس أى موضع فى الحرم ، إنه حمام الحمى ، آمن هنا تماماً مثل أى كائن حى . و أى إنسان و تذكرت أسراب الحمام التى وقفت بينها أمام الحرم ، ما من طائر يثير عندى الحنين والشجى مثل الحمام . منذ أن كنت ارقب أسرابه فى فضاء الجمالية طفلا ، إذ يطوف بمئذنة سيدنا ومولانا الحسين . وتلك الحمامة الوحيدة التى كانت تجىء كل ظهيرة فوق السطح . ويتردد هديلها ، هذا الهديل صبغ عندى كل ظهيرة . وأصبح من علامات أيامى ..

أما حمام الحرم فله منزلة خاصة . إنه حمام الحمى . يتردد ذكره منذ حقب بعيده . .

* * *

في الزمن القديم:

تعتبر رحلة ابن جبير من أقدم الرحلات المدونة فى الأدب العربى . جاء إلى مكة من الأندلس فى نهاية القرن السادس الهجرى ، ويتميز ابن جبير بدقة ملاحظاته . لقد ذكر حمام الحمى ، يقول :

« ومن آيات البيت العتيق أنه قائم وسط الحرم كالبرج المشيد وله التنزيه الأعلى ، وحمام الحرم لا تُحصى كثرة ، وهى من الأمن بحيث يضرب بها المثل ، ولا سبيل أن تنزل بسطحه الأعلى حمامة ولا تحل فيه بوجه ولا على حال . فترى الحمام يتجلى على الحرم كله ، فإذا قربت من البيت تمرّجت عنه يمينا أو شمالا ، والطيور سواها كذلك ، وقرأت فى أخبار مكة أنه لا ينزل عليه طائر إلا عند مرض يصيبه . فإما أن يموت لحينه أو يبرأ ، فسبحان من أورثه التشريف والتكريم . .»

ما رآه ابن جبير أشهدته بعد مضى ثمانية قرون ، تذكرت وصف محمد لبيب البتانونى الذى رافق عباس حلمى الثانى فى بداية القرن الحالى ، ودون مشاهداته فى كتاب «الرحلة الحجازية» ويعتبر من أجمل وأدق الكتب التى وصفت رحلة الحج . ويقول البتانونى عن حمام الحمى :

«حمام الحرم المشهور بحمام الحمى يملأ سطوح الحرم ومنافذه وطاقاته ، فتجده معششا هنا وهناك ويجتمع زرافات زرافات فى جهات كثيرة من صحن الحرم وعلى الخصوص فى الجهة الغربية ،

حيث يوجد غير واحدة من فقراء القوم يبعْن حب القمح للحجاج والزوار بقصد إلقائه إلى جيوش هذه الحمامات المستأنسة التى تكاد ترفرف على رؤوس القوم لأنها لم تعرف منهم فى حياتها إلا كل لطف وأنس ، وليست هذه الخصيصة بنوع الحمام ، ولكن كل حيوان دخل الحرم فهو آمن حتى ذهب بعضهم إلى قتل الحية أو العقرب فى الحرم احتراما له وإكراما لها فيه . . .»

يذكر البتانونى بئراً شرق مكة تحت جبل أبى قبيس يقال لها بئر الحمام تجتمع أسرابه عنده وتشرب بحرية وأمن ، والآن يمكن للحمام أن يجد الماء والغذاء بسهولة ، خاصة فى المنطقة المحيطة بالحرم حيث تتكاثر أسرابه وتختلط بالمارة . الكل يسعى فوق الأرض . يقال أن حمام الحمى كله من نسل تلك الحمامة التى عششت على الغار أثناء اختفاء الرسول عليه الصلاة والسلام مع صاحبه داخله .

وأذكر حمامة نوح . أول من بشرت بظهور اليابسة بعد الطوفان ، وعادت إلى السفينة لتنبئ بالسلامة ، اذكر شعوبا قديمة قدست الحمام ، وجعلته مرادفا للروح ، كان مقدسًا عند الساميين وعند الفينيقيين يمثل السماء والنجوم .

ولكن لحمام الحمى منزلة فاقت كل منزلة أخرى قرأنا عنها أو نطالعها فى أخبار الأولين والآخرين .

* * *

دواء الوحشة:

يقول الدميرى فى كتابه «الحيوان» عن كتاب «عمل اليوم والليلة» لابن السنى عن خالد بن معدان عن معاذ بن جبل :

«إن عليا رضى الله عنه شكا إلى النبى صلى الله عليه وسلم الوحشة فأمره أن يتخذ زوج حمام وأن يذكر الله عند هديره . .»

توقفت طويلا أمام تلك السطور ، لسيدنا على بن أبى طالب منزلة خاصة عندى وفى قلبى ، وخلال مكوثى فى الحرم المكى . كنت أتطلع إلى الجهة التى كان فيها بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ، والذى وصفه البتانونى فى رحلته الحجازية أول القرن ، كنت أحاول أن أرى بالمخيلة بعضا من الأحداث العظام الجليلة التى سمعنا وقرأنا تفاصيلها ونحن صبية صغار ، عندما نام سيدنا على فى فراش المصطفى ليلة أن قصده المشركون لقتله . هنا أينما ولّيت ، أو خطوت ، أتحسس خطواتى ، فربما ألامس بقدمى نفس الموضع الذى داسه وعبره نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، أو أحد صحبه الأكرمين .

إذا صحت الرواية ، فأين نطق سيدنا على بالجملة ؟

هنا أو فى المدينة ؟

ظهرًا أو عصرًا ، أو عند دنو الغروب ؟

بماذا كان يشعر ، وأى أمور جعلته ينوء تحت الوحشة . ما أثقل هذه الكلمة ، وما أغناها بالدلالات .

شكا سيدنا على الوحشة . فنصحه الرسول الكريم باتخاذ الحمام رفيقا . للونسة ولذهاب الوحشة . أى وحشة أدركتك يا سيف الله الغالب؟ أى وحشة ؛ هل تشبه تلك الوحشة التى تواتينى أحيانا إذ يتدبب وعيى بفقد الأحباب وغياب الأصحاب ، إذ يتعاظم قلقى ويصعب أمرى ؟

أى وحشة يا سيدنا على ، يا والد الحسن والحسين .

أى وحشة ؟

روى جابر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «شكت الكعبة إلى الله تعالى قلة زوارها فأوحى الله إليها لأبعثن إليك أقوامًا يحنون إليك كما تحن الحمامة إلى أفراخها . .»

هذا الحنين الكامن ، المضفور بالوجد العميق ، المنبث فى صدور المسلمين ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، هذا الحنين شبهه الرسول الكريم بحنين الحمام إلى أفراخه . فما أرق وما أشجن .

لماذا الحمام بالذات ؟

يقولون أنه يطلب وكره ولو أرسل من ألف فرسخ ، وربما اصطيد وغاب عن وطنه عشر حجج فأكثر ويظل على ثبات عقله وقوة حفظه وحنينه إلى وطنه ، حتى يجد فرصة فيطير إليه .

ما أشبه الحمام بالإنسان ، يقول ابن قتيبة فى «عيون الأخبار» عن المثنى بن زهير أنه قال : لم أر شيئا قط من رجل أو امرأة إلا وقد رأيته فى الحمام . رأيت حمامة لا تريد إلا ذكرها وذكرًا لا يريد إلا أنثاه حتى يهلك أحدهما أو يفقد . .»

ذكر البيهقى فى تاريخه أن رجلا جاء إلى ابن سيرين مفسر الأحلام الشهير ، قال له : رأيت فى النوم كأن حمامة التقمت لؤلؤة فخرجت منها أعظم مما دخلت ، ورأيت حمامة أخرى التقمت لؤلؤة فخرجت منها أصغر مما دخلت ، ورأيت حمامة أخرى التقمت لؤلؤة فخرجت منها كما دخلت سواء ، فقال ابن سيرين : أما التى خرجت أعظم مما دخلت فذلك الحسن بن أبى الحسن البصرى يسمع الحديث الشريف فيجوده بمنطقه ثم يصل فيه من مواعظه . وأما التى خرجت أصغر مما دخلت فذلك محمد بن سيرين يسمع الحديث فينقص منه ، وأما التى خرجت كما دخلت فذلك قتادة وهو أحفظ الناس .

روى ابن وهب أن حمام مكة أظلت النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتحها فدعا لها بالبركة .

ويقولون فى الأمثال «آمن من حمام الحرم وآلف من حمام مكة» .

قال صديقى يوسف الشريف وقد حج هذا العام ، وهو خبير بالحمام ، إن حمام الحمى ينتمى إلى حمام المراسلة نوع من الزاجل ، ومثله لا يرى إلا فى الأماكن العتيقة ، ثم تدارك قائلا ، إنه حمام تاريخى . .

فى المدينة المنورة تأملت أسراب الحمام تطوف بالقبة الخضراء الشريفة ، وما بين حمام الحمى فى مكة وحمام الحرم فى المدينة المنورة رفرف قلبى وهفا ، وتذكرت تلك الأبيات التى أرددها دائما . .

رب ورقاء هتوف بالضحى
ذات شجو صرخت فى فنن
ذكرت إلفا ودهرًا صالحًا
وبكت شوقا فهاجت حزنى
فبكائى ربما أرقها
وبكاؤها ربما أرقنى
ولقد تشكو فما أفهمها
ولقد أشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها
وهى أيضا بالجوى تعرفنى

فيا رمز السلام ، يا نسل الحمام الذى ظلل الغار ، ورفرف فوق سيد البشر ، لك الحنين منى ولك يا حمام الحمى السلام . . » .

السعى
من الله .. إلى الله ..

يوماما جرى ذلك

فى الزمن العتيق المنصوص ، يوم يصعب تعيينه الآن ، وقع هذا المشهد الذى يتكرر يوميا آلاف المرات ، ويؤديه الحاج والمعتمر ، فكأنه استعادة لما كان ، وإحياء للذكرى . وتجديد للعبرة ، يوما ما . . قبل ظهور مكة إلى الوجود كمدينة ، بعد بناء سيدنا إبراهيم للبيت . جاء بزوجته هاجر وابنها الرضيع إسماعيل . تركهما عند البيت وليس بالموضع أحد ، ولا ماء . وضع إلى جوارهما جرابا فيه تمر وسقاية فيها ماء . استدار مبتعدا عنهما فتبعته الأم ، قالت :

«يا ابراهيم أين تذهب ؟ هل تتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شئ . .»

كررت ذلك مرارًا ، وهو لا يلتفت اليها ولا يجيبها ، وعندما قالت :

« آمرك الله بهذا ؟»

قال :

«نعم» .

قالت مستسلمة .

«إذن . . لا يضيعنا . .»

ثم رجعت إلى ابنها الرضيع . انطلق سيدنا إبراهيم حتى إذا توارى عنهما وراء ثنية من الأرض . استقبل بوجهه البيت ثم دعا ربه قائلا :

«ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . . .» حتى بلغ «يشكرون . . .»

راحت الأم ترضع ابنها وتشرب من الماء ، حتى إذا نفد ما فى السقاية عطشت وعطش الابن . راحت تنظر إليه يتلوى متألما ، والظمأ فى الوادى الحار الذى تحيطه الجبال الصم ، القائمة شديدة الوعورة عذابه مضاعف .

لم تحتمل الأم . فانطلقت هائمة . مبتعدة عنده . ربما تتحمل هى ظمأها . ولكن إسماعيل الرضيع ، الصغير ، إننى لأتخيل صرخاته وعذابه فى الوادى الفقر ، المجدب ، وأتخيل آلام أمه هاجر .

فى الطواف . فى فترات بقائى فى المسجد الحرام كنت أنوء بالحر الشديد . أقوم لأشرب من ماء زمزم المثلج الذى أصبح فى المتناول أينما وليت وجهك فى المسجد من خلال تلك الأوانى البرتقالية اللون ، أو المصنوعة من الألمونيوم ، كنت أشعر بهبوط قواى ، وبدء وهنى ، فأصب الماء فوق رأسى صبا ، وأجرع الكوب تلو الكوب ، يؤلمنى الحر والظمأ ، مع أن إمكانيات العصر كله توفر الماء البارد ، والمراوح المعلقة فى السقف . مئات لا تكف ليلا أو نهارًا . وهناك نقاط أسعاف فى جنبات الحرم تقدم الدواء لمن ينال منه النصب والإعياء . كنت إذ يدركنى الإرهاق ، أستعيد ذلك اليوم النائى ، عندما كان المكان مجردًا من كل عون ، أو أثر بشرى ، وأحاول أن أتخيل من موقعى الآمن عذاب الابن الرضيع ولهفة الأم . اتجهت هاجر إلى مرتفع صخرى ارتقته ، تطلعت من فوق الصفا إلى الأرض المحيطة علها تجد عونًا . .

لكن . . لا أحد . .

نزلت من الصفا إلى الوادى ، رفعت ذراعها ، سعت بتثاقل . سعى الإنسان المجهود ، حتى إذا تجاوزت الوادى . وصلت إلى المروة ، وقفت على صخرها اجالت النظر ، ولكنها لم تر مخلوقًا ، ما من معين . . عادت تسعى إلى الصفا . ثم إلى المروة . . أم ملهوفة ظامئة . متعبة ، وليدها يدنو من الموت على مسمع منها . .

سبع مرات سعت بين الصفا والمروة ، حتى إذا بلغت المروة سمعت صوتًا . جاء فى صحيح البخارى عن ابن عباس أنها رأت ملكا ، وأنه كان يقف عند موضع زمزم ، وكان يضرب الأرض بجناحية فيتفجر الماء .

أما ما سمعته من أبى منذ طفولتى ، وما يتناقله قومى فإن إسماعيل عندما اشتد به الظمأ ، راح يضرب الأرض بعقب قدمه ، وفى إحدى هذه الضربات تفجر الماء ، وهكذا ظهرت بئر زمزم إلى الوجود . . وهكذا بدأ عمار مكة . .

حتى نتخيل منزلة تلك البئر المقدسة يجب أن نتخيل وعورة البيئة المحيطة بها ، وكثيرا ما رددت الطرف فى الجبال القاسية المحيطة بمكة . مرددًا بينى وبين نفسى . أن أحد دلائل عظمة رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . أنها نزلت بكل أبعادها الإنسانية العالمية فى هذا القفر . وتلك الطبيعة الموحشة . . هنا . . عانت الأم ، وتألمت وسعت من أجل ابنها ، من أجل استمرار الحياة ، من أجل التغلب على الحر ومقامته ، ومع انتهاء سعيها تفجر الماء ، واستمرت الحياة . .

وما السعى إلا إحياء وترديد لتلك اللحظات المريرة الصعبة .

السعى . .

تلك شعيرة فرضها الله تعالى . نص عليها القرآن الكريم ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** ﴾

كان السعى من شعائر الحج إلى الكعبة قبل الإسلام ، وبعد نزول الرسالة توقف عنه المسلمون ، فنزلت الآية الكريمة ، ويستمر السعى الذى يذكر بالموقف الصعب ، والحنان الأمومى .

قال الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن صفية بنت شيبة عن حبيبة ، قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسعى بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعى يدق به أزاره وهو يقول : اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى . .»

من يؤدى مناسك العمرة أو الحج فى السنوات الأخيرة فإنه يتجه مباشرة بعد الطواف إلى السعى ، الذى أصبح متصلاً بالمسجد الحرام ، جزءا منه ، إنه طريق مستطيل ، طوله حوالى سبعمائة متر ، يبدأ من الصفا التى تبدو صخورها حتى الآن ، وينتهى فى المروة ، هذا السعى الآن مبلط بالرخام الثمين ، وينقسم إلى قسمين الأول للذاهبين إلى المروة . والثانى للعائدين إلى الصفا ، يفصلهما ممر مخصص للعجزة والمرضى الذين يركبون عجلات متحركة توفرها إدارة الحرم مجانا ، ومما كان يؤثر فىَّ رؤية ابن يدفع أمه ، أو شاب يدفع أباه . ولكم تمنيت لو أتيحت الفرصة لوالدى

الكريمين ، إذا كانت أمنية المجئ إلى تلك البقاع المقدسة من أغلى ما تنطوى عليه جوانحها ؛ لكن الظرف لم يساعد ، وشاءت مشيئته أن يرحلا قبل تحققها ، رحمهما الله . .

مع أعمال توسعة الحرم المكى . تم إعداد طابق ثانٍ للمسعى . مزود بالمصابيح ، والمراوح الكهربائية ، وقد رصعت جدرانه بالرخام الجميل ، وأرضيته ، ومن بين فرجات الأعمدة يرى الساعى البيت العتيق من مستوى مرتفع والقوم يطوفون بها ، كسوة البيت السوداء . ولباس الحجاج الأبيض ، وفراغ المسجد وأعمدته ، وحمام الحمى هنا وهناك ، هذا مشهد مهيب ، توفرت فيه عناصر الجمال التى لا أجد لها مثيلا فى أى مكان فى العالم .

أتذكر فى سعيى معاناة هاجر فيخف تعبى . .

أتذكر فى سعيى آلام الرضيع ، الظامئ ، فأخجل من نفسى إذ يدركنى وهنى . .

هذه المسافة التى نقطعها فوق الرخام الثمين ، المريح ، قطعتها الأم الخائفة القلقة فوق الصخر المحمى وحتى سنوات قريبة كان المسعى يقع خارج الحرم ، استمر المكان من طوال ثلاثة عشر قرنا بدون رصف ، بدون مظلة .

يقول الأزرقى فى كتابه « أخبار مكة » أنه فى خلافة أبى جعفر المنصور العباسى بنى عامله على مكة عبد الصمد بن على درجًا على الصفا اثنتا عشرة درجة ، وعلى المروة خمس عشرة درجة .

قال العمرى فى « مسالك الأبصار » يصف الصفا والمروة : أما الصفا فحجر عظيم فى أصل جبل أبى قبيس قد كسى بدرج إلى

آخر موضع الوقوف وأكثر ما ينتهى الناس منها إلى اثنتى عشرة درجة أو نحوها ، والمروة حجر عظيم إلى أصل جبل قعيقعان .

يقول حسين باسلامة فى كتابه «تاريخ عمارة المسجد الحرام» : « إن أياً من ولاة مكة أو أغنياء المسلمين لم يفكر فى رصف المسعى أو عمل مظلة تقى الحجاج من حر الظهيرة وضربة الشمس » . ثم يقول المؤلف : «إن الشريف حسين ملك الحجاز ، أمر بإنشاء مظلة فى عام ١٣٣٩ هجرية ، وبعد توحيد المملكة العربية السعودية أمر الملك عبد العزيز برصف الشارع وتم فرش المسعى بالحجر الصوان المربع ، وانتهى العمل فى سنة ١٣٤٥ هجرية ، وكان بذلك أول شارع يتم رصفه فى مكة على الإطلاق ، وقد خفف ذلك من معاناة الحجاج والمعتمرين ، ولكن استمرت المتاجر قائمة على جانبيه ، إلى أن بدأ المشروع الكبير بتوسعة الحرم فى عهد خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبد العزيز ، دخل المسعى كله إلى المسجد الحرام ، واتصل به معماريا لأول مرة ، وتم إنشاء الطابق الثانى . وأصبح فى مجمله قطعة معمارية فنية ولكننى لاحظت أن المسعى العلوى ينتهى من ناحية المروة بباب يفتح مباشرة على الخارج ، وفى المواجهة تماماً مجموعة من المتاجر التى لا يتناسب قربها الشديد من المسعى مع جلال المكان » .

ومن أدق الأوصاف التى وصلتنا للمسعى ما كتبه ابن جبير الذى حج إلى مكة فى القرن الثانى عشر الميلادى يقول :

« . . وكل وافد إلى مكة ، شرفها الله ، يدخلها بعمرة فيستحب له الدخول على باب بنى شيبة ثم يطوف سبعًا ويخرج على باب

الصفا ويجعل طريقه بين الاسطوانتين اللتين أمر المهدى رحمه الله بإقامتهما علما لطريق رسول الله - ﷺ - إلى الصفا، كما تقدم ذكره، وبين الركن اليمانى ست وأربعون خطوة، ومنهما إلى باب الصفا ثلاثون خطوة، ومن باب الصفا إلى الصفا ست وسبعون خطوة، وللصفا أربعة عشر درجًا، وهو على ثلاثة أقواس مشرفة، والدرجة العليا كأنها مصطبة، وقد أحدقت به الديار، وفى سعته سبع عشرة خطوة.

وبين الصفا والميل الأخضر ما يأتى ذكره والميل سارية خضراء، وهى خضرة صباغية، وهى التى إلى ركن الصومعة التى على الرّكن الشرقى من الحرم على قارعة المسيل إلى المروة وعن يسار الساعى إليها، «مكانها الآن مصباحان مستطيلان من النيون الأخضر يحددان المسافة التى يجب أن يهرول فيها الساعى»، ومنها يُرْمَل «أى المشى السريع» فى المسعى إلى الميلين الأخضرين، وهما أيضا ساريتان خضراوان على الصفة المذكورة، الواحدة منهما بازاء باب على فى جدار الحرم وعن يسار الخارج من الباب، والميل الآخر يقابله فى جدار دار تتصل بدار الأمير مكثر، وعلى كل منهما لوح قد وُضع على رأس السارية كالتاج ألفيتُ فيه منقوشًا برسم مذهب:

«إن الصفا والمروة من شعائر الله»

وبعدها..

«أمر بعمارة هذا الميل عبدالله وخليفته أبومحمد المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين أعز الله نصره، فى سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة».

وبين الصفا والميل الأول ثلاث وتسعون خطوة، ومن الميل إلى الميلين خمس وسبعون خطوة، وهى مسافة الرّمْل «الهرولة» جائيا وذاهبا من الميل إلى الميلين ثم من الميلين إلى الميل ومن الميلين إلى المروة ثلاث مئة وخمس وعشرون خطوة، فجميع خُطا الساعى من الصفا إلى المروة أربع مئة خطوة، وثلاث وتسعون خطوة، وأدراج المروة خمسة، وهى بقوس واحد كبير، وسعتها سعة الصفا سبع عشرة خطوة، ومابين الصفا والمروة مَسيل هو اليوم سوق «حفِيلة» بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية، والساعون لايكادون يخلصون من كثرة الزحام، وحوانيت الباعة يمينا وشمالا، وما للبلدة سوق منتظمة سواها إلا البزازين والعطارين، فهم عند باب بنى شيبة تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد تتصل بها».

* * *

هذا ما سجله ابن جبير فى رحلته منذ ثمانية قرون، لنا إذن أن نتخيل المسعى فى زمن سيدنا إبراهيم عندما كان أرضا قفراء، تلهب بحرارتها قدمى الأم الملهوفة على ابنها.

ولنا أن نتخيل المسعى الذى وصفه ابن جبير والذى استمر على نفس الحالة تقريبا حتى القرن العشرين، الآن الوضع مختلف تماما، فالمسعى كله متصل بالحرم المكى، وكأنه بهو عظيم فى قصر لم يعرف مثله في البلاد، قصر مترامى الأطراف، مهيب الطلع، يتوسطه البيت العتيق، قبلة المسلمين.

كنت مرهقا بالزحام والحر الشديد ، وعندما ينال منى النصب ، ويتمهل خطوى رغما عنى ، أستدعى بخيالى عذاب الأم ولهفتها على وليدها قبل انبثاق الماء ، فتتجدد عندى طاقة ، وتدب فى أوصالى حيوية فامضى ساعيا إلى الصفا ، إلى المروة .

كنت أرى فى المسعى تلخيصا لدورة الحياة الإنسانية ، البداية من الصفا تقابل الميلاد ، القدوم إلى الحياة الدنيا ، ومن شروط السعى المشى بتثاقل ، مشى المتعب ، المجهد ، وخطى الإنسان فى البداية تكون ثقيلة متعثرة ، حتى إذا بلغ فتوته يعدو ، تماما كما تهرول أيامه ، ثم يمر بأطوار أخرى تبطىء فيها خطواته ، الوصول إلى المروة يعنى نهاية القصد ، سبعة أشواط ، ألا توازى العمر الإنسانى ، ألا تلخصه؟ القدوم من الصفا ، قدوم من عند الله .

والسعى إلى المروة سعى إلى الله

ومن السعى بين الصخرتين ، من الكد الإنسانى ، تفجر الماء العذب ، تفجرت الحياة فى لحظة الوصول إلى النهاية ، نهاية المسعى .

حياة وموت وحياة ، سعى متصل من أبد إلى أبد ، وعبر الأشواط السبع يجب ألا ننسى المعاناة الأمومية ، واللهفة على الرضيع وظمأه الحاد . . وقبل هذا كله يجب ألا ننسى رحمة الله التى فجرت الماء من الصخر وشملت كل شىء . . » .

* * *

الوقوف بين يدى الله فوق عرفة ..

لا أدرى كم مرة دعا لى الأحبة بالوقوف على عرفة؟ منذ طفولتى والدعاء يتردد على مسمعى ، والأمنية تنطق ممن يكنون لى جميل الود .

هاهو الزمن يدور دورته ، واليوم الأربعاء التاسع من ذى الحجة ، عام اثنتا عشرة وأربعمائة وألف من الهجرة أتأهب للصعود إلى عرفة .

لم يكن الدعاء عبثا ، فالوقوف بعرفة أهم شعائر الحج على الإطلاق ، قال النبى العظيم : « الحج عرفة » ، لذلك لنا أن نتخيل مشاعر أولئك الحجاج المصريين الذين سعوا إلى المكان المقدس ، وظلوا حبيسى سياراتهم ، لم يستطيعوا الوصول إليه بسبب تعاظم الزحام هذا العام .

فى الصباح الباكر بدأ تحركنا من منى بعد صلاة الفجر ، كانت الطرق المؤدية إلى عرفة تغص بزحام السيارات . . عربات من كل نوع ، بعضها مغلق تماما ، مكيف ، وبعضها نوافذه مفتوحة مثل سيارتنا التى خلت من جهاز تكييف ، وكان البقاء داخلها معاناة صعبة ، هذا اليوم بالذات من أشد الأيام حرارة ، ورغم أن النشرة كانت تقول إن درجة الحرارة مابين سبعة وأربعين وتسعة وأربعين «فى الظل طبعا» ، إلا أننى أثق أنها تجاوزت الخمسين ، وكأنه امتحان من الله لنا فى قدرتنا على تحمل المشقة .

كان زحام السيارات رهيبا ، ولأننا استيقظنا مبكرين ، أمكن لنا دخول عرفة ، وكان كثير من الحجاج يمشون على أقدامهم فى

تجمعات كبيرة ، وهناك من يؤدى المناسك كلها سيرا على قدميه من مكة إلى منى إلى عرفة ، تماما كما كان الأوائل يفعلون ، والمشكلة تأتى من اختلاط المشاة بالعربات مما يؤدى إلى توقف المرور تماما ، وخلال هذا الزحام نسمع صفارة تعوى ، عربة شرطة أو إسعاف ، ويبدو صوتها مضحكا ، فمن يفسح لمن فى هذا الحشر العظيم .

كنت ألمح بعض من جاءوا فى عربات فاخرة مكيفة ، أوقفوها وهم داخلها ينعمون بالتكييف البارد ، المهم أنهم تواجدوا فى منطقة الشعيرة المقدسة ، وفى رأيى أنه لابد من تحديد مناطق لوقوف السيارات على تخوم الحرم ، والفصل بين الطرق والمشاة بواسطة تخصيص ممرات لهم ، أو طرق لايسلكها غيرهم .

مع دخولنا عرفة رأيت حجاجا يقفون فوق صخور الجبل ، تحت القيظ وقد فردوا مظلاتهم البيضاء ، وكان بعضهم يقف فوق نقاط يحار المرء فى كيفية وصولهم إليها ، مررنا بمسجد نمرة ، البناء مملوكى الطراز ، تمت عناصره إلى زمن السلطان قايتباى ، بالطبع تم تجديده خلال السنوات الأخيرة وتوسعته ، وتكييفه بالكامل وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يؤدى الصلاة فى هذا الموضع .

أخيرا . . بعد ثلاث ساعات تقريبا من ملازمة العربة التى تحول فراغها الداخلى إلى ما يشبه الفرن . . وصلنا إلى المكان المخصص لنا ، انفصل الرجال عن النساء ، نحن فى خيمة وهن فى خيمة ، لاحظت خلو الخيام من أجهزة التكييف ، مع أنها خيام مغلقة

تماما ، معدة لتركيب تلك الأجهزة بها ، وفيما بعد حدثنى بعض الأصدقاء الذين نزلوا بخيام مكيفة عن شكواهم من برودة التكييف ، وإصابتهم بالبرد ، وكلما استعدت ساعات القيظ التى أمضيناها داخل الخيمة ، شعرت بسرور لاجتيازى الظرف وتحملى هذا الحر الذى لم أعرفه من قبل ، ولأننى عشت ظروفا مناخية أقرب إلى نفس الظروف التى عاشها المسلمون الأوائل عند حجهم إلى عرفة صيفا ، وإن كانت ظروفنا نحن أصعب من حيث العدد ، فاليوم يقف أو يتواجد بالمكان ثلاثة ملايين على الأقل .

* * *

الوقفة..

تنتشر الخيام حول مسجد نمرة ، السيارات تزحم الطرقات ، الحجاج فوق الصخور يمسكون مظلاتهم البيضاء ، فى مشهد انتشارهم كنت أرى معنى الوقفة .

الكل فى مكان واحد وزمن واحد ، كافة الأجناس ، هنا تنتفى الفروق بين العربى والهندى والأوزبكى والأوروبى المسلم ، بصراحة أدركت هنا من خلال الواقع أن الدين أشمل وأعم وأكثر إنسانية من أى دعوة أخرى ، سياسية كانت أو فكرية ، هنا تسقط كل الحواجز والفروق ، الكل فى ملابس الإحرام ، إنه اليوم الوحيد الذى يجتمع فيه كل الحجاج ، يتواجدون فيه معا .

فى طواف القدوم والمسعى لايتواجد الكل معا ، إنما تجرى كافة شعائر الحج فى أوقات مختلفة ، يقدم الحجاج على دفعات على

مراحل إلى الكعبة ، إلى مواقع رمى الجمرات ، ولكن الشعيرة الوحيدة التى يجب أن يتواجد فيها جميع الحجاج معا ، هى الوقوف بعرفة ، لهذا قال رسول الله - ﷺ - «الحج عرفة» .

هنا فوق جبل الرحمة وقف الرسول الكريم ليلقى خطبة الوداع والتى نزلت عليه فيها الآية الكريمة :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. ﴾ [المائدة : ٣]

نعم .. الحج عرفة ..

كافة المناسك الأخرى يمكن فى بعضها التقديم والتأخير ، ويمكن فى بعضها الآخر أن يستعاض عنه بفدية أو بإنابة وتوكيل ، عدا الوقوف بعرفة فإن له وقتا محدداً إذا لم يلتزم به الحاج بطل حجه .

هنا .. فوق الصخيرات المحيطة بجبل الرحمة وقف رسول الله - ﷺ - ليلقى خطبة الوداع ، هنا خطا ، وهنا وقف ، وفى هذا الفراغ تردد صوته الكريم ، فى كل مكان جاء إليه ، كنت أتطلع إلى معالمه الأبدية ، خاصة المرتفعات الصخرية ، وأردد بينى وبين نفسى ، لقد رأى الرسول الكريم ما أرى ، هنا ترددت كلماته فى خطبة الوداع ، يقول فى بدايتها :

«أيها الناس اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم .... » .

داخل الخيمة انفرد كل منا بنفسه يتلو القرآن الكريم ، ويستدعى إلى ذهنه مما يريد أن يفضى به إلى ربه ، أثناء جلوسى مرتلا سورة الإخلاص ، اقترب منى حاج ، لهجته شامية ، لحيته طويلة ، كثيفة ، أشار إلى خاتم زواجى «الدبلة» قال :

«يا حاج . . هذا حرام» . .

تطلعت إليه صامتا ، قال بلهجة آمرة :

«استبدلها بالفضة» . .

تذكرت الآية الكريمة «ولاجدال فى الحج» ، أومأت برأسى مرتين ، انصرف عنى ، رحت أتابعه ، محاولا طرد خاطر عنى ، ألم يجد يوم عرفة إلا هذه الملحوظة الشكلية؟ عدت إلى تأملاتى الخاصة ، وعند الأصيل خرجنا إلى الخلاء ، توجه كل منا إلى جبل الرحمة ، إلى جهته ، فالوصول إليه كان مستحيلا بسبب الزحام .

لمحت السفير المصرى محمد فتحى الشاذلى يقف على رأس مجموعة من أعضاء السفارة المصرية الذين يؤدون فريضة الحج ، وكنت قد تعرفت إليه فى جدة ، رجل قوى الحضور ، من أكفأ سفرائنا الذين التقيت بهم فى الخارج ، علا صوته بالدعاء ، تأثرت عندما أصغيت إليهم ، يدعون للوطن ، يبدأون بالابتهال إلى الله أن يحمى مصر ، وأرضها ، وشعبها .

لمحت الصديق الدكتور محمد عمارة ، كان يقف تحت شجرة نحيلة من تلك الأشجار المزروعة حديثا لتخفيف الهجير ، وفى أماكن أخرى كانت ثمة عربات ترش رذاذ الماء لتلطيف الجو الذى

بلغ حدًا شديدًا من القيظ ، توزع رفاق الحج ، انفرد كل بنفسه ، رغم الجمع الحاشد ، فإن الإنسان يتوجه فى الوقفة إلى ربه كفرد ، وكجزء من هذا الجمع ، النوع الإنسانى ، والشمس تميل إلى الغروب ، بدا الصمت عميقا رغم تكاثف الحشد ، الكل يدعو ، فى لحظة معينة تدفق قولى ، كل ما اختزنته عبر حقب عمرى ، فى تلك اللحظات ، ينتفى الوجود المادى ، يشف الإنسان ، وهكذا يصير أكثر قربا من ربه ، كنت أنتقل من الخصوص إلى العموم ، بدءا من طلب الرحمة لوالدى وحتى طلب الرحمة للبشرية ، والدعاء أن يصان وطنى وأن يجنبه الله الشرور والفتن ، وكان الفيض غزيرا ، متدفقا ، فكان حضورًا خفيا داخلى كان يملى على لسانى ما أقول ، مالت الشمس ، واكتست السماء لونا شفقيا بعد زوال زرقتها .

دارت محركات آلاف العربات تأهبا للنفرة ، للمضى إلى المزدلفة لبدء الإفاضة ، انتهى يوم عرفة ، وبدأ استعداد هذا الحشد المهول لمفارقة المكان المقدس ، الكل يتعجل ، البعض فارق المكان مشيا على قدميه ، رغم هدير أصوات المحركات ، لكن العربات ظلت مكانها لمدة ثلاث ساعات أو أكثر .

* * *

مع تقدم الليل وانتظار بدء الحركة كنت أستعيد الوقفة ، هكذا ولى وقوفى على عرفة ، أصبح اليوم الذى عشته جزءا من وقتى الذى مضى ، اندثر ، ماثل فقط فى ذاكرتى .

وخلال اللحظات المستعادة قد يرى الإنسان مالم يكن قادرًا على رؤيته ، هكذا بدا لى وقوفى منفردًا قبل الغروب نائيا ، منبتا عن كل نظام ، أو واقع مادى كأنى كنت خارج الأكوان كلها ، على حافة الوجود أقرب ما أكون إلى الله . . وقد بحت بكل ما تردد عندى ، مالم يسمعه منى بشر مثلى ، ورغم انفرادى فى الوقفة ، فلم أكن سوى قطرة من بحر إنسانى يسعى إلى طلب الرحمة والمغفرة ، وما من طريق إلى استدرار الرحمة من الله تعالى مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب فى وقت واحد ، على صعيد واحد . . وهذا لايكون إلا فى عرفة .

* * *

مرة أخرى دارت المحركات ، بدأت حركة بطيئة لكنها كانت نذيرًا بالمفارقة ، بدأت نفرتنا من عرفة إلى المزدلفة ، وكان الليل من حولى طوفانا من البشر ، كلهم يسعون فى اتجاه واحد . .

النفرة الكبرى ... من عرفة إلى الرجم

. . لحظات لاتنسى . .

لن تمحى أبدا من ذاكرتى . .

عندما بدأت النفرة ، حقا من أقوى دلالة اللفظ المستخدم من قديم الأزل ، ليس الحركة ، أو التوجه ، أو الانتقال إنما النفرة .

أكثر من مليونى حاج أتموا وقوفهم بين يدى الله فوق عرفات ، بعد تمام الغروب ، يبدأ تحركهم معًا عبر الطرق المرصوفة ودروب الجبال وشعابها ، قاصدين المزدلفة .

بالنسبة لى كان داخلى شعور بالانتصار على الذات ، كان اليوم شاقًا فى حره ، وزحامه ، وجموعه ، وعند الظهر مرت بى لحظات بدأت خلالها أهوى فى جب سحيق ، ربما لغزارة العرق وتفصده ، ونفاد أو قلة ما يحويه الجسد من ملح ، ولكن ساعات الحر الصعبة ولت ، ومع الغروب ساد صمت عميق ، وبدأت ظلال نسمات ترفرف فوق المكان ، ولكنها كانت جد شاحبة .

انتظرنا أكثر من ثلاث ساعات ليبدأ تحرك السيارات وسط طوفان هائل من مختلف المركبات ، والبشر الساعين على أقدامهم مشيا .

كان الليل عميقا ، عميقا ، وكان الحجاج فى ملابسهم البيضاء يتحركون فى كل اتجاه مؤدى إلى المزدلفة ، طوابير متدفقة من حجاج شرق آسيا ، النساء منهن علقن قطع صغيرة من القماش على ظهورهن ، تحمل اسم المطوف ، خوفا من التيه ، الإيرانيون لهم حركتهم الجماعية ، التقليدية ، كذلك الأفارقة ، حتى فى الطواف .

الكل نافر ، متجه إلى المزدلفة ، هذا تفرق بعد جمع ، صحيح أن الكل يتجهون لإتمام مشاعر الحج المتبقية ، ولكن أهم شعيرة تمت ،

حيث يجتمع الكافة فى مكان واحد وزمن واحد ، الآن وصل البعض بالفعل إلى المزدلفة ، والآخرون مازالوا يسعون إليها ، وبعد منتصف الليل يبدأ رجم إبليس ، ولكن هذا كله سوف يتم على دفعات ، ينقسم الجمع الأكبر إلى مجاميع متفرقة فى المكان والزمان ، أليس فى ذاك شبه آخر بدورة الحياة الأزلية ، والأبدية ، تجمع بعد تفرق ، ثم نفرة كبرى إلى التفرق من جديد ، كل يمضى إلى أجل مسمى .

فى الطريق إلى المزدلفة ، وبعد الوصول إلى مشارفها ، كنت أتأمل كثافة الجمع الذى سبقنا ، بعضهم استقر تماما ، سياراتهم إلى جانبى الطريق ، منهم من افترش الأرض وأخرج مقاعد صغيرة ، ومعدات طهو الطعام .

متى وجدوا الوقت الكافى للوصول إلى هنا ؟

بعد أن عدت إلى جدة علمت بالحجاج الذين لم يتمكنوا من الوصول إلى عرفة بسبب شدة الزحام ، ومعظمهم من ضحايا بعض شركات السياحة المصرية التى تستغل الحج للنصب على البسطاء .

تذكرت واقعة رواها محمد لبيب البتانونى فى كتابه «الرحلة الحجازية» عن حجاج ايرانيين فاتهم الوقوف فى بداية القرن ، فما كان منهم إلا أنهم أمضوا سنة كاملة فى مكة وهم بملابس الإحرام ، وعندما ضاق بهم أهل المدينة المقدسة مضوا إلى مكان قريب من مكة ، وظلوا محرمين حتى العام التالى ، حتى تمكنوا من الوقوف بعرفة .

أخيرا وصلنا المزدلفة ، كانت الساعة حوالى العاشرة ليلا ، الخلاء فسيح ، والليل فوقنا وحولنا ، أدينا صلاة المغرب والعشاء ، وبعد انتصاف الليل انطلقنا من جديد إلى منى لنرجم العقبة الكبرى .

* * *

كانت العربات تنفث دخان عادمها فى وجوهنا ، ومع الحر يصعب التنفس أحيانا ، تحت جنود الشرطة ، وحجاجاً آسيويين يرتدون كمامات بيضاء ، بعد يومين من الإقامة فى «منى» اضطررت إلى وضع كمامة على أنفى بسبب كثافة الروائح الكريهة ، كنت أحمل كيسا صغيرا جمعت فيه أكثر من مائة وعشرين حصاة صغيرة من أرض المزدلفة ، المفروض أننى سأحتاج إلى تسع وأربعين حصاة ، الليلة استخدم سبعا ، واليوم الثانى واحد وعشرين لرجم العقبة الكبرى ، والوسطى والصغرى ، ومثلها فى اليوم الثالث ، ولأننى سأنوب عن زوجتى حتى أجنبها مشقة الزحام جمعت مثلها ، وعدد آخر زيادة للاحتياط ، كان صديقى الشاعر محمد إبراهيم أبوسنة ينوب أيضا عن زوجته ، وعن الأستاذ فؤاد كامل المثقف الكبير والمترجم القدير ، وكذلك الأستاذ سلامة أحمد سلامة ينوب عن زوجته ، وهذا جائز عن النساء ، وعن الضعفاء ، فالموقف عند الرجم يكون صعبا ، وقد أخبرنى الأستاذ فؤاد كامل أنه كاد يلقى حتفه تحت الأقدام منذ عدة سنوات عندما أدى فريضة الحج لنفسه ، أما تلك المرة التى صحبناه فيها فكان يؤديها لروح والدته . . رحمها الله . . وهذا ما نويته مستقبلا ، فإذا كان الوالدان الكريمان لم تحل ظروف حياتهما دون تلبية هذه الأمنية الغالية ، فالواجب علىّ أن

أؤدى الفريضة المقدسة وأهبها لكل منهما ، إذ قدر لى أن يمتد أجلى عدة سنوات أخرى بعد رحيلهما . .

أخيرًا . . توقفت العربات . . غادرناها متجهين إلى مكان العقبة الكبرى ، ومع اقترابى من المكان كنت أحتويه بعينى وملاحظاتى ، ولكم بدا البون شاسعا بين الشكل والمضمون والغرض!

* * *

عمود من الحجر . . شبه دائرى . . تحيطه دائرة يصطف حولها الحجاج ويتزاحمون للرجم ، تلك الصورة القديمة التى كنت أطالعها دائما فى الصحف أو المجلات أو الكتب التى تصور مناسك الحج .

تيسيرا على الأعداد الهائلة المتزايدة من الحجاج فى كل عام ، قامت السلطات السعودية ببناء جسر ضخم يمر بالعقبات الثلاث ، بحيث يمكن الرجم من مستويين ، من أعلى ، ومن تحت الجسر ، والأعمدة الثلاث تخترق سطح الكوبرى ، تماما كما حدث فى المسعى ، عندما تم بناء طابق ثان مواز تماما للصفا والمروة ، ولكن إذا كان الغرض قد تحقق شكلا ومضمونا فى المسعى المتصل بالمسجد الحرام ، فإنه لم يتحقق هنا فى منى .

اقتربت على مهل من العقبة الكبرى ، رمز إبليس الأكبر ، لم يكن الزحام شديدًا طبقا للصورة التى حدثنا بها البعض ، مازال الحجاج يتدفقون ، وكثيرون يفضلون قضاء الليل فى المزدلفة ، طبعا اتجهت من الزملاء إلى حيث يتجمع الحجاج للرجم ، أول ما لمحته حركة الأيدى ، من الأمام إلى الخلف ، حركة الرمى ذاتها تتردد من آلاف

الأيدى ، كانت الجمرات تتجه كلها صوب عامود شبه مستدير ، لكنه مجرد عمود تحيط به عشرات الأعمدة التى تشكل قوائم الجسر أو الكوبرى الممتد ، الكوبرى حديث التصميم ، والأعمدة الخرسانية التى يقوم عليها حاصرت الرمز الأصلى ، صحيح أن العقبة الكبرى بقيت بلون الحجر الطبيعى لكن الجسر ضغط عليها وناء بكلكله وأعمدته ، وهذا نفس الحال بالنسبة للعقبتين الأخريين .

لذلك أتمنى أن يعاد صياغة المكان نفسه ، بحيث يصبح الرمز واضحًا ، وله معناه المحدد ، خاصة أن اللافتات الخضراء المعلقة والتى ترشد الحجاج والمكتوبة بثلاث لغات ، العربية والفارسية والأوردية ، لافتات حديثة جدا ، مكتوبة بنفس الأسلوب الذى نجده فى اللافتات المعلقة إلى الجسور التى تعبر طرق المرور السريع فى أوروبا وأمريكا ، وهذا يعطى انطباع أننا فى محطة هائلة للمترو ، أو فى مكان به من خطوط التصميم الحديث ما يتناقض مع المكان المقدس ، والذى تتم فيه شعيرة من أهم شعائر الحج .

وأعود إلى شعيرة الرجم ذاتها . .

* * *

عندما يرمى الحاج الجمرات باتجاه رمز الشيطان ، فإنما يقوم بعملية رمزية تعنى أنه يرمى ذنوبه عنه وما اقترفه ، كما أنه يربى فى نفسه وينمى معنى مخالفة شيطان النفس والابتعاد عن مسالك الشر والأذى .

والرجم أمر قديم فى الأديان والطقوس .

قال الله تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ . . ﴾ .

وكان ذلك فى معرض اجابة قوم نوح على نصائحه لهم .

وقال تعالى فى صورة هود ، عندما أجاب قوم مدين على نصيحة نبيهم شعيب لهم :

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾

عرف بنو إسرائيل الرجم أيضا . . ورد فى الآيتين ٢٤ ، ٢٥ من الإصحاح السابع لسفر يشوع ما نصه :

«فأخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته ، وكل ماله وجميع إسرائيل معه ، وصعدوا بهم إلى وادى عخور فقال يشوع : كيف كدرتنا يكدرك الرب فى هذا اليوم فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة . .» .

أما المسيحيون فيرجمون مكان شجرة التين التى لعنها المسيح حينما أراد أن يأكل منها ولم يجد فيها ثمرًا ، جاء ذلك فى الآية ١٩ من الإصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى ، ومكان هذا الشجرة على طريق الذاهب من بيت المقدس إلى نهر الأردن فى الوادى الذى ينزل على يسار جبل الزيتون .

وكان العرب فى الجاهلية يرجمون من سخطوا عليه حيا وميتا ، ويرجمون قبور من سخطوا عليهم ، مثل قبر أبى رغال فى المغمس «بين مكة والطائف» لأنه كان دليلا لجيش أبرهة إلى الكعبة ،

ومات فى هذا المكان قبل وصوله إليها ، قال جرير يهجو الفرزدق :

إذا مـــات الفـــرزدق فـــأرجـــمـــوه

كـــمـــا يرمـــون قـــبـــر أبى رغـــال

وكان المسلمون يرجمون قبر أبى لهب خارج مكة لأنه قبر عدو النبى ﷺ ، ويرمون قبر أبى جهينة فى طريق العمرة ، لأنه كان من حكام مكة الظالمين ، ويرمون قبر يزيد بن معاوية فى دمشق لشنيع سيرته ، وجريمته فى حق آل البيت ، فهو الذى أمر بقتل مولانا وسيدنا الحسين - رضي الله عنه - ويرجمون قبر مسلم بن عقبة بين مكة والمدينة لأنه فتك بأهل المدينة ولم يراع حرمة رسول الله فى صحابته وجيرته .

إذن الرمى عملية رمزية ، سواء كان لإبليس أو لمن ساءت سيرتهم وارتكبوا قبيح الفعال فى حق المؤمنين ، أو وقفوا ضد خير الإنسانية .

وبعض الحجاج يغالى فى الرجم ، فيقذف رمز إبليس بزجاجات فارغة ، أو الأحذية ، وهناك فى الزمن القديم من كان يطلق عليه الرصاص ، وهذا كله تجاوز لجوهر الشعيرة ومغزاها ، فإنما الرجم ، والرمى عملية تبدأ من داخل الإنسان نفسه ومن قناعته وإيمانه ، إنه ينفض عنه ذنوبه ، وإنه يسدد الجمرات الصغار التى نص الشرع على أن تكون مقدار حبة الفولة حتى لا يؤذى إخوانه من الحجاج ، وما الجمرات وما العمود المنتصب ، إلا رموز مادية لشعيرة جوهرها ، ومغزاها أكبر بكثير . .

الإقامة فى «منى» [١]

جئت إلى منى من مكة . .

دخلتها ليلاً . . وأنا فى حالة تيه عن طريقى ، بعد أن تركنا زملاء الحج داخل الحرم ، وفارقوا المكان قبل خروجنا ، تحركت العربات إلى محل اقامتنا الذى لم أعرفه بعد ، وفى احداها حقائبنا ، وداخلها جوازى سفرنا «أنا وزوجتى» ونقودنا ، فقد دخلنا الكعبة لنؤدى طواف القدوم والسعى مجردين من كل شىء ، عدا مبلغ صغير من الريالات يقل عن عشرين جنيهًا ، كنت نسيته منذ أدائى العمرة داخل الحزام الجلدى الأبيض الذى ألف به خصرى لأثبت فوطة الإحرام .

لحظات من الضياع لاتنسى أبدا فررنا بها ، ونحن نقف أمام الحرم ، وفى هذا الجمع الذى يشبه يوم الحشر ، يضل الكثيرون ، ويفقدون الطريق ، وهناك مراكز للحجاج الذين فقدوا طريقهم ، مركز للرجال ، وآخر للنساء ، وثالث للصغار .حاولنا التماس المساعدة من بعض الجنود الواقفين حول الحرم ، ولكن ما من مجيب ، لم أكن أعرف الطريق إلى «منى» ولم أكن أعرف الخيام التى سنقصدها ، لا الموضع ولا المكان وأثناء استفسارى من جندى للمرور استند إلى دراجة بخارية حديثة ، يبدو أن رجلا مصريا سمع استفسارى ولمح حيرتى ، اقترب منى ليقول لى بلهجة صعيدية . .

«ياحاج . .» . .

هنا لايعرف أحد باسمه . . إنما لقب واحد يطال الكافة مهما اختلفت مراتبهم ، أو جنسياتهم ، كلمة لاغير تشمل الجمع كله ،

وتعنى كل فرد أيضا . .

«ياحاج . . لا فائدة من السؤال . . هناك عربات الأجرة التى تنقل بالنفر . . اذهب إلى منى واسأل هناك . .» .

«وكم تبلغ الأجرة . .»

قال المصرى الصعيدى الذى كان يرتدى ملابس عادية .

«عشرة ريالات . .»

بالضبط هذا ما لدىّ . . صحبنا الرجل الذى لم أعرف اسمه ، إلى موقف عربات الأجرة . . ركبنا ميكروباس صغير وبدأ الحركة إلى «منى» ، يمر الطريق عبر انفاق هائلة فى الجبل ، وعندما دخلنا منطقة «منى» ، كان المشهد مهيبا ، عشرات الآلاف من الخيام تنتشر فى فضاء المكان المقدس .

بدا الوادى مرصعا بالأضواء المنبعثة من الخيام . . وأماكن الإقامة ، والمبانى القليلة المتناثرة المخصصة للإدارة ، وبعد مسافة قصيرة بدا مسجد الحنيف بساحته الضخمة ومآذنه الرشيقة مملوكية الطراز .

فيه كان يصلى سيدنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام . . كلما تقدمت عربة الأجرة تصاعد الزحام الشديد . . كان الحجاج يفترشون الأرض ، ينامون فوق الأرصفة وتحتها ، وتحت العربات بين العجلات ، وإلى جوار صناديق القمامة ، كان الليل فى بدايته ، والقوم معظمهم يقظ أو فى حالة استعداد للنفور إلى عرفات ، ولكن ما رأيته بعد نزولنا من «عرفات» إلى «منى» كان أشد هولاً .

على أى حال لم تطل فترة ضياعنا عن محل إقامتنا ، عند منتصف الليل وصلنا إلى زملائنا بعد أن قطعنا مايقرب من ثلاثة كيلو مترات مشيا ، ونحن فى حالة من الخوف والقلق ، أن يتوه الإنسان هنا ويضل أمر عادى جدا ، وأن تلتقى بحاج يسأل عن محل إقامته وهو ليس لديه جواز سفر أو أى شيىء يدل على شخصيته فهذا موقف يتكرر آلاف المرات .

الأغرب ما عرفته فيما بعد من صديق سعودى ، أخبرنى عن كثيرين يجيئون من مختلف البلدان ويتعمدون أن يضلوا فى شعاب مكة ، وبعضهم يطلب الموت ويتمناه ، أن يقضى هنا ، ويدفن فى الأراضى المقدسة .

حوالى منتصف الليل وصلنا إلى الخيام المخصصة لنا ، وكان عتاب إلى الزملاء والأصدقاء ، ولكنه عتاب المطمئن الذى أراد أن يشعرهم بمالاقى من نصب ، لكنه فرح برؤية ملامحهم مرة أخرى وسط هذا الحشر .

* * *

بعد رمى الحقبة الأولى .

بعد طواف الإفاضة . . عدنا مرة أخرى إلى «منى» إلى الخيام التى افترشنا أرضها ، تبدأ أيام التشريق ، هنا يمضى الحجاج ثلاثة أيام ، وفى اليومين التاليين لليلة النزول من «عرفة» يتم الذهاب إلى العقبات الثلاث لرجمها ، ثم يتم الرجم للمرة الثالثة وبعده الذهاب إلى مكة لطواف الوداع ، وهكذا تتم شعائر الحج .

التحلل من الإحرام يكون بعد رجم الحقبة الكبرى وطواف الإفاضة ، يقوم الحاج بالنحر ، والتقصير أى قص خصلة من الشعر ، وبعض الحجاج يحلقون رءوسهم تماما ، خاصة الإيرانيين والأتراك ، وكثير من المصريين ، وفى أرجاء «منى» كان ممكنا رؤية أكوام من الشعر المقصوص .

تذكرت ما قرأته فى صفحة الجمعة بالأخبار قبل سفرى للدكتور عبد الهادى مصباح أستاذ علم المناعة ، وتحذيره من استخدام أمواس أو مقصات مستعملة ، وامكانية انتقال الأيدز خلال ذلك ، صحبت معى مقصًا صغيرًا وقمت بالتقصير بنفسى ، الطريف أن الدكتور مصباح ذهب لأداء الحج ولكنه لم يستطع الوصول إلى «عرفات» نظرا للزحام الشديد ، أما النحر ، أو الهدى ، فالأغلبية الآن لايقومون به مباشرة إنما يتم دفع ثمن الخروف إلى أحد فروع بنك الراجحى ، ويقوم البنك بشراء الأضحية وذبحها فى «منى» بطريقة منظمة ، وإعداد اللحوم لإرسالها إلى الدول الإسلامية الفقيرة ، وقد بلغ سعر الخروف الواحد هذا العام ثلاثمائة وخمسة وثلاثين ريالا سعوديًا ، وهذا عمل محمود بلاشك ، وينظم عملية الهدى ، ويوصل الأضاحى إلى من يستحقها فعلا ، وهناك بعض الحجاج يفضلون شراء الأضاحى وذبحها بأيديهم وبالطبع تلقى مخلفاتها فى القمامة ، فى درجة حرارة تتجاوز الخمسين ولنا أن نتخيل!

الطريف أننى أثناء قراءة كتاب «الرحلة الحجازية» لمحمد البتانونى قبل سفرى إلى الأراضى المقدسة وجدته يقترح قبل حوالى تسعين عاما ما تقوم به شركة الراجحى بالفعل الآن . . يقول :

«وذبائح القربان تذبح قريبا من حفرة فى شرقى منى وتلقى فيها ويكون لها بعد الحج رائحة كريهة جدا ، ولو كانوا يأخذون ما يتراكم فيها من العظام مع ما يتخلف منها حول مكة ويبيعونه لإحدى الشركات بجدة ، ويصرفون ثمنه فى تحسين طرق الحجاج ، ونظافة شوارع مكة لكان فيه فائدة كبيرة . .» .

حقا . . ما أشد بعد نظر البتانونى ، لقد تحقق تقريبا ما طالب به بالنسبة للأضاحى ، لكن المشكلة الآن فى مخلفات الحجاج أنفسهم وتكدسهم فى «منى» .

قدر البتانونى عدد الحجاج فى السنة التى رافق فيها عباس حلمى الثانى خديوى مصر بمائتى ألف ، وشكا من زحامهم وما ينتج عن إقامتهم فى «منى من روائح ومخلفات » .

فى هذا العام بلغ عدد الحجاج أكثر من ثلاثة ملايين حاج ، وتحركوا فى نفس الأماكن ، وأقاموا فيها ، ومهما بلغ حجم التوسعات والجسور والأنفاق ، والتيسيرات المبذولة فإن وجود مثل هذا العدد فى زمن واحد ، ومكان واحد كفيل بإرباك دول عظمى ، من هنا أكرر ماطالبت به من ضرورة تحديد عدد الحجاج بصرامة ، وإعطاء الأولوية لمن لم يؤد الفريضة ، ربما خفف هذا بعض الشىء .

* * *

بعد الرجم الأول ، وبعد طواف الإفاضة ، تحللنا من ملابس الإحرام ، كنا نرتدى الجلابيب البيضاء عند الصلاة ، والذهاب إلى الرجم ، وكانت المسافة من مقر إقامتنا ، حتى موضع العقبات الثلاث تبلغ حوالى كيلومترين ، خلالها كنا نخوض فى زحام لم أر له مثيلا .

وفى اليوم الأخير ، عندما فارقنا خيامنا ، وكان ذلك قرب الفجر ، رأيت أمة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى أسوأ وضع يمكن للإنسان أن يتخيله ، وكأنه تلخيص للوضع المأساوى للمسلمين فى عالم اليوم .

الرجال والنساء والأطفال ، الشيوخ الطاعنين والشباب متمددين فى كل مكان ، كثيرون لم يستيقظوا بعد ، ملابس الإحرام البيضاء أصبح لونها بنيا قاتمًا .

كانت رائحة البقايا والنفايا لها قوام يكاد يلمس فى الفراغ . . دورات المياه محدودة جدا بالقياس إلى الأعداد الهائلة ، المرافق عامة ، درجة الحرارة القاتلة ، تفاعل النفايات بالحرارة ، فى لهب الصحراء ، إن العناية الإلهية وحدها هى التى تحمى هذا الجمع البشرى الهائل من أشد الأوبئة فتكاً ، وإذا كان الله سلم فى هذا العام والأعوام السابقة فإن الجهد الإنسانى يجب أن يقدم شيئا .

ما تم فى الحرم المكى ، وفى الحرم النبوى الشريف ، معجزة معمارية ، من حيث التوسعات وتطويع المكان لإستيعاب الأعداد الهائلة من البشر ، لكن أضعف نقاط الحج الآن فى «منى» ، حيث يقيم هذا العدد الهائل فى مكان واحد لمدة ثلاثة أيام على الأقل بدون مرافق كافية ، وفى ظروف لايتوافر فيها الحد الأدنى من النظافة .

ومن قام بتلك التوسعات الجبارة فى مكة والمدينة قادر بلاشك على إيجاد حل للإقامة فى «منى» ، لقد اقترح الصديق العزيز

سلامة أحمد سلامة إنشاء ما يشبه القرية الأوليمبية فى المكان ، ولعل ذلك يبدو حلا ممكنا .

* * *

أمضينا الوقت فى «منى» نقرأ القرآن الكريم ، ونتأمل ، ونواجه الذات ، وخلال السنوات الأخيرة تزايدت أوقاتى المخصصة لقراءة القرآن ، وأحمد الله أننى أحتفظ بنسخ نادرة جميلة ، منها مصحف مخطوط بخط أندلسى ، وآخر كتبه خطاط تركى منذ حوالى أربعمائة عام ، وقد كان الخطاط المسلم يعتبر كتابة القرآن الكريم من أعمال العبادة ، لهذا أبدع كل منهم وأتقن .

أقرأ القرآن فى صمت . .

أقرأه مرتلا الآيات بصوت مرتفع .

أقرأه وأسمعه معا ، أى أننى أقرأ الآيات وأسمع الترتيل فى وقت واحد ، والقارىء عندى هو الشيخ محمد صديق المنشاوى ، والشيخ جابر ، مقرىء الحرم المكى ، وأولئك القراء المجهولون عندى من أتراك وفرس ، والذين أسمع أصواتهم عبر المذياع فجرًا ، فتهتز نفسى تأثرا لما تحويه نبراتهم من إيمان وتضرع عميق ملتاع إلى رب السماوات العلا .

فى «منى» ختمت القرآن ، وترحمت ودعوت لوالدى وطلبت الرحمة من رب العالمين لكافة الإنسانية ، فهو خالقها وربها ومدبر أمورها . .

* * *

السلام عليك ومنك .. يا رسول الله ..

سكينة.. وتأهب..

حالان غمرانى روحًا وجسدًا بمجرد نزولى المدينة المنورة ، حتى أن خطوى تبدل إيقاعه ، وصار لنظراتى معان أخرى ومرام كثيرة ، فكل هذه الجبال المحيطة رآها المصطفى بعينيه ، وتلك الأرض وطئها بقدميه ، فربما أضع عند المشى خفى فى نفس المكان ، وما تلك النخيل المتجاورة ، المتراصة ، إلا من نسل النخيل التى أظلت الرسول وصحبه يومًا ، هذه النخيل التى تضفى بعدًا مكانيا ، وزمانيا على المكان كله ، فتدنو به من طبيعة الواحة رغم البنيان الحديث ، وتخرج بالوقت عن محدوديته بما لها من حضور راسخ ، ثابت ، يشير إلى الأعالى بسموقه ، واقترابه من علامة الوحدانية ، ويتجاوز اللحظة الحاضرة إلى ما كان وسيكون . . هكذا أراه .

توقفت العربة بمحاذاة الرصيف المواجه للقبة الخضراء الشريفة . . عبرنا الطريق إلى أحد الأبواب الجديدة ، التى تدخل بين توسعات الحرم ، والتى أصبح بعدها الحرم النبوى فى مساحة يثرب كلها زمن الرسول عليه الصلاة والسلام ، أى أن المدينة كلها داخل المسجد الآن عدا مقبرة البقيع التى تقوم إلى الشرق ، تتوالى الأعمدة الرخمية المؤدية إلى الجزء القديم الأعمدة الحديثة من رخام رمادى فاتح ، قاعدة كل منها بها ثلاث فتحات تدفع الهواء البارد القادم من محطات التكييف العملاقة المقامة بعيدًا عن الحرم .

لكم تبدل المشهد عما رأيته عام ست وثمانين وتسعمائة وألف ، عندما قدمت للزيارة أثناء أدائى العمرة ، لقد أزيلت مناطق

بأكملها ، وتم فى فترة وجيزة إضافة مساحات هائلة إلى الحرم الأصلى ، والحديث عنها يطول إتجاه مع صحبى إلى الداخل .

* * *

عندما يتأهب الإنسان للقاء عظيم أو شخص جليل المكانة فى الحياة الدنيا ، نجما مشهورًا ، أو سياسيا كبيرًا ، ألا يستعد الإنسان فينعكس ذلك على هيئته ، وملبسه؟

ما البال إذن ، والمرء يتجه بخطى وجلة إلى خاتم المرسلين ، إلى المقصورة الشريفة حيث يرقد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

الحق أن المرء لايتجه إلى موضع يقاس بالأمتار ، أو يوصف بما يكسوه من ألوان ، أو ما يحفه من نحاس ، إنما يتجه الإنسان إلى جوهر ومعنى ، استقر فى وجدان الفرد المسلم منذ أن كان طفلا يحبو ، ويستنفر هذا القرب كافة المشاعر التى ترددت عبر حقب بعيدة ، وعبر مراحل العمر نفسه ، لكم تردد فى ذهنى شطر من أنشودة كان يتلوها شيخ جميل الصوت ، شجيه :

يـامـــــا نفـــــــسى أزورك

وأتمـــلى بـنـــورك يـــانـبـى

ها قد سنحت لى الفرصة ، للمرة الثانية ، كنت وكان الجميع يرتدون البياض ، وعندما يتشابه لباس البشر يصبح كل منهم قريبا ، جميلا ، أنيقا ، فى الزيارة الأولى أقمت على مقربة من الحرم ، كانت شرفة الفندق تطل على المدخل الجنوبى عند آذان الفجر وقبل توجهى إلى الحرم تطلعت إلى الطريق ، كان مشهد

الآلاف الذين يرتدون البياض ويتجهون إلى المسجد مهيباً ، فيهم العربى ، والهندى ، والتركى ، والفارسى ، والإفريقى ، سائر أجناس الأرض ، وحد بينهم وقربهم من بعضهم البعض نبينا الأمى ، اليتيم ، الذى حمل الرسالة وأدى الأمانة كما يجب أن تؤدى ، فكانت الثمار هذه الأمة ، أمته هو بحق ، كلهم يتجهون إلى مسجده للصلاة ثم إلى زيارته - ﷺ .

استمر تقدمنا بسهولة ويسر رغم الزحام ، كانت الأعمدة الحمراء التى تحمل السقف تزداد لمعانا كلما اقتربنا من الروضة الشريفة ، وكأن داخل الإنسان يشف ، ويرق ، حتى لايبدو منه إلا العناصر الأولى ، فكأنه يجتاز مرحلة بعد الأخرى ، من الواقع المحدود بصراعاته وصغائره ، وسفاسفه إلى اللحظات الممتدة ، السرمدية ، حيث البداية والنهاية ، والشهود المؤدى إلى الغيب .

على مقربة من الروضة الشريفة ، على حدودها تماما حيث يتنافس القوم للصلاة فى هذا المكان المبارك ، لمحت انفراجة بين صفين ، اتسعت لى ولصحبى ، هكذا تجاورنا ، الشاعر محمد إبراهيم أبوسنة ، والكاتب الصحفى سلامة أحمد سلامة ، والدكتور محمد عمارة ، والأستاذ فؤاد كامل ، وكان حولنا قوم من جنسيات شتى ، لانعرفهم ، ونعرفهم فى نفس الوقت ، فهم أفراد من أمة رسولنا الكريم ، كان كل منا حريص على أن يفسح للآخر ، لايتململ ولايتذمر ، وكان المكان يتسع للكافة .

بعد أدائى ركعتين تحية للمسجد ، جلست أتطلع إلى المقصورة الشريفة ، أمسكت مصحفاً استعداداً للتلاوة ، وقد جرى لى ما

جرى منذ ست سنوات ، إذ بدأت أبكى فى هدوء ، مطرقًا ، مسندًا جبهتى إلى يدى ، غير حريص على تجفيف دمعى ، غير منتبه إلى فضول قد تسدد إلىّ نظرات من لا يعرفنى .

لماذا البكاء ؟

ولماذا هذه الدموع الصامتة ، الهادئة ، مجهولة الدوافع والأسباب . لقد عرفت فى حياتى أنواعًا شتى من البكاء ، ولكن دموعى بين يدى رسول الله ﷺ مستعصية على أى تفسير يعنى أو يلوح لى .

دموع تلقائية ، غزيرة ، مصحوبة بحزن شفاف ، وكأنى أجتاز مساحة لا يمكن تسميتها أو تحديدها أو تعيينها ، هنا قرب المقصورة الشريفة تنتفى العوالم المادية التى عرفناها والمحيطة ، ولا يبقى إلا جوهر براق ، مشع .

اقترب وقت آذان الظهر..

رحت أتطلع إلى الروضة الشريفة ، قال عليه الصلاة والسلام « ما بين قبرى ومنبرى روضة من رياض الجنة » .

وطولها اثنان وعشرون مترًا طولاً ، وعرضها حوالى خمسة عشر مترًا ، غربها تقع قبلته ﷺ ، وضعها بنفسه وحددها يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عندما أمره الله تعالى بالصلاة إلى الكعبة المكرمة ، إلى غرب القبلة يقوم المنبر الشريف ، هنا ، فى مكانه تمامًا ، كان ﷺ يخطب على جذع نخلة ثم عمل له منبر من خشب الأثل ، مركب من ثلاث درجات أو أربع .

هنا عاش ﷺ ، قابل الوفود ، وأرسل الدعاة ، ونظم شئون الأمة ، وحدد الأزمنة الآتية ، هنا اضطجع ، وفكر ، وتطلع ، وهنا تحدث ، هنا كان مسجده ، وبيته المعروف ببيت عائشة رضى الله عنها ، وحجرات زوجاته رضى الله عنهن ، وحول بيته كان يقيم أصحابه رضى الله عنهم فى منازلهم ، كانت دار أبى أيوب الأنصارى ، ودار عثمان بن عفان رضى الله عنهما فى جهة الشرق ، ويقول محمد لبيب البتانونى فى كتابه (الرحلة الحجازية) أنهما كانتا موجودتين حتى زمن زيارته فى بداية القرن ، كانت منازل آل عمر إلى الجنوب ، وغرب المسجد دار أبى بكر رضي الله عنه ، هنا كان الأصل ، والمنطلق . .

* * *

لا يمكن للمرء أن ينسى القبة الخضراء ، حضورها القوى فى الفراغ ، القبة الخضراء بناها السلطان الأشرف قايتباى ، ومن قبل وحتى زمن الناصر محمد بن قلاوون لم يكن فوقها قبة ، فى سنة ستمائة وثمان وسبعين أقام الناصر قلاوون القبة ، ثم جددها الأشرف برسباى ، والظاهر برقوق ، ثم قايتباى ، أما السلطان محمود العثمانى فقد رممها عام خمسة وخمسين ومائتين وألف ، ودهنها باللون الأخضر .

المقصورة الشريفة مصنوعة من نحاس ، عملت فى مدة العمارة التى قام بها قايتباى سنة ثمانية وثمانين وثمانمائة ، ولها باب يفتح على الروضة الشريفة يسمى باب الرحمة أو باب الوفود ،

وإلى جانبه من جهة الجنوب شباك يفتح عليها يسميه الحجاج شباك التوبة ، وهو الذى يذكرونه فى قسمهم « وحياة النبى الذى وضعت يدى على شباكه » ، ولها أيضًا منفذ يفتح إلى جهة القبلة .

يتصل بالمقصورة الشريفة من جهة الشمال مقصورة السيدة فاطمة ، طول المقصورة النبوية الشريفة من ضلعها الجنوبى والشمالى ستة عشر مترًا (طبقًا لوصف البتانونى فى الرحلة الحجازية) ، ومن الشرقى والغربى خمسة عشر مترًا ، أما مقصورة السيدة فاطمة الزهراء فطولها أربعة عشر مترًا ونصف من الجنوب ، ومن الشمال أربعة عشر مترًا فقط ، ومن الغرب والشرق حوالى سبعة أمتار ، تتصل بالمقصورة الكبرى من الداخل ببابين ، داخل المقصورة الشريفة المكان الذى توفى به رسول الله ﷺ فى يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع أول السنة الحادية عشرة من الهجرة ، وفى نفس المكان دفن .

والزيارة تبدأ من الروضة الشريفة ، أى من الغرب إلى الشرق ، قمنا مفارقين أماكننا بعد صلاة الظهر ، وكان الجمع يتحرك ببطء ، وعبر حواجز من نحاس اقتربنا قادمين من الغرب إلى الشرق ، أى عكس دورة الشمس ، فكأننا نعود إلى الأصل ، إلى زمنه هو ، إلى وقته هو الذى يشملنا جميعًا ﷺ .

عند المرور أمام المقصورة الشريفة تتمهل الخطى ، لكن الحراس الأشداء يمنعون الوقوف لفترة حتى تتاح الفرصة لهذه الآلاف

الساعية ، وأمام الدائرة الكبرى التى تتخلل النحاس المشغول ، يكون المرء بمحاذاة وجهه الكريم ، المضىء ، الطاهر ، المتجه غربًا ، هنا تمهلت وانتفى كل ما عدا ما أراه من قديم وحديث ، وكنت فى وضع شبه منحنى ، أقرب إلى السائل ، فلا يمكن للإنسان أن يقترب إلا سائلاً ، خاشعًا ، آمنًا ، غير وجل ، فهو فى الحضرة .

هكذا . .

انبثق عندى إحساس بالأمن العميق ، كنت مستسلمًا تمامًا ليس للجمع الكثيف الذى يتدافع بوقار متمهل ، وإنما لعوالمى الداخلية للمعانى التى تلوح عندى ، حريصًا على اجتياز وقتى هذا ، هنا كل المعانى ، والأصول ، هنا جدى الأعظم والوالد الأكبر لكل هذه الأمة الإنسانية ، إليه أنتسب بإيمانى برسالته ، هنا الشفيع الأكبر ، من أتوسل به وألوذ عندما تلوح الكرب العظام وساعات الضيق ، عندما تتواتر الحدثان ، وينأى الصديق ، ويدنو العدو .

هأنذا بين يدى رسول الله ﷺ ، من سبح الحصى بين يديه ، ولان له الصخر ، وحنى له الجذع ، من حمل الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة ، وما هؤلاء البشر كلهم القادمون للزيارة إلا نفر يسير من أمته الإنسانية . .

ومنى كان لسانى ينطق بأصدق سلام فهت به . .

« السلام عليك يا رسول الله . . »

لحظات ..
من ليلة القدر ..

الجمعة..

حقًا . . لكم أسعدنى الحظ بالعمل فى مشروع ليلة القدر ، أنتظر الأيام التى تسبق حلول رمضان بشهرين أو ثلاثة لأنطلق مع زملائى المحررين إلى مختلف أنحاء مصر ، لنلبى ، ونقدم المساعدة ، للفقراء ، المكلومين ، البسطاء الذين جئت منهم ونشأت بينهم ، ولكم تلح على ذهنى وخواطرى صور ومشاعر شتى باستمرار ، خلال عملى الصحفى الذى يقارب ربع القرن الآن ، عرفت وعايشت تجربتين عمقتا أيامى ، وأضفيتا الثراء الإنسانى على حياتى ، تجربتى كمراسل حربى فى جبهة القتال ، وعملى كمحرر فى ليلة القدر ، لقد انتهى واجبى فى الجبهة مع حلول السلام ، وإن لم ينته بعد فى ضرورة تدوين ما عايشت ورأيت رغم كتابتى مجموعتين قصصيتين هما « أرض .. أرض » ١٩٧١ ، و «حكايات الغريب» ١٩٧٦ ، ورواية « الرفاعى » ١٩٨٠ ، وما يزيد عن ألف تحقيق صحفى عن جيش بلادى خلال خوضه حرب الاستنزاف ، وحرب أكتوبر ، وبعد اليوميات السابقة التى أشرت فيها إلى لقائى بأبطال من قواتنا المسلحة فى الغردقة ، فى نفس الوقت الذى كان فيه أديب قمىء الروح ، يتهمنى بالعمالة للمخابرات العسكرية المصرية خلال عملى فى الجبهة ، بعد نشر اليوميات وصلنى مئات الخطابات الغاضبة ، ولكن لفت نظرى أن عددًا كبيرًا منها كتبه طلبة فى الجامعة ، وفى المرحلة الثانوية ، كلهم يطالبونى بأن أقص ما جرى ، أن أروى ما شاهدت ، ما عانيت ، أبدوا تأثرهم بما رويته عن الضابط الذى

وزع الحلوى ليلة استشهاد شقيقه الطيار ، وفى تعليقه على ما يجرى من مهاترات ومحاولات مريبة فى حياتنا الثقافية ، إما من قبل مأجورين ، أو معتوهين ، طالبنى الصديق العزيز سامي خشبة أن أكتب ما عرفته ، وأعد القراء الأعزاء ، والصديق الكريم أن أفعل .

أحيانًا لا ندرك مرور الزمن إلا عندما نسمع صيحة الآخرين ، فكأن المرء يقود سيارة ، وثمة خطأ فيها لا ينتبه إليه ، باب غير محكم الإغلاق ، إطار غير مثبت جيدًا ، إلى غير ذلك ، ولا ينتبه إلا إذا صاح به القوم من الخارج .

نبهتنى تلك الرسائل من شباب يدور حول العشرينات ، إننى أقترب من الخمسين ، وأن ما عشته أيام حرب الاستنزاف مضى عليه قرابة ربع القرن ، وأن حرب أكتوبر ستتم العام القادم عشرين عامًا ، من ولد فى عام ١٩٧٣ يتأهب الآن للتخرج من الجامعة ، دخلوا طور الرجولة ، ومع تواتر الحدثان ، وضغط الأزمان ، وسرعة المتغيرات ، وهول الأحداث ، أصبح ما شهدته بعيدًا جدًا ، نائيًا جدًا ، وأدركت أننى مقصر ، هذه الرسائل تعكس حاجة شعبنا لأن يعرف ، وأن يفهم ، وفى فترات المحن ، والشدائد ، يكون استعادة الفترات المضيئة ضروريًا ، فما البال إذا كانت تلك الفترات قد عايناها ، وشهدناها ، ومن اكتووا بشدائدها ما زال معظمهم يسعى .

هذا واجب أتمنى من الله أن يعيننى عليه ، أن أقص شهادتى عما شاهدته بعينى ، وبحواسى كافة ، خلال فترة غالية من نضالات وطننا . .

أما التجربة الثانية الخصبة ، التى لا تزال مستمرة ، فهى عملى فى مشروع ليلة القدر ، هذا العمل الذى أتقدم إليه متطوعًا فى كل سنة ، أولاً بدافع أداء ما أقدر عليه من جهد تجاه الفقراء ، أولئك الذين خرجت من صفوفهم ، وثانيًا باعتبار عملى هذا من أقوى عوامل اتصالى بالواقع ، بمعرفة ما يجرى فى قاع المجتمع المصرى ، وبالتالى إثراء تجربتى الإنسانية . .

❊ ❊ ❊

البداية..

عندما كنت أسكن حارة درب الطبلاوى ، بقصر الشوق ، قرأت أو سمعت عن ليلة القدر ، كان ذلك فى بداية الستينات ، منذ أكثر من ثلاثين عامًا ، وكنت أسمع بعض الجيران يتحدثون عن رسائل بعثوا بها إلى أخبار اليوم ، يتمنون فيها الحصول على جهاز تليفزيون ، أو ثلاجة ، أو دراجة ، كانت تلك هى محاور أمنيات الناس وقتئذ ، ثم مرت السنوات ، وعملت فى دار أخبار اليوم ، وعندما استؤنف مشروع ليلة القدر سعيت إلي العمل به ، ولكن رغبات الناس تواضعت ، فثمة من يطلب مرتبة لينام فوقها بعد طول رقاد فوق الأرض ، أو بطاطين لدرء برد الشتاء ، أو وسيلة رزق ، بل أن سيدة فى أقصى الصعيد طلبت دجاج لأنها

لم تذق طعمه منذ فترة طويلة ، ما ينشر من ليلة القدر قليل جدًا ، ولكن كثير من المساعدات لا يجد طريقه للنشر ، إما لضيق المساحة ، فى كل سنة أقوم بتنفيذ ثلاثين أو أربعين « حالة » كما نطلق عليها ، ولكننى لا أكتب إلا حوالى عشرة ، ومرات أخرى أتعمد ألا أكتب بعض ما أراه وأعاينه ، وليسامحنى أستاذنا مصطفى أمين ، ولتغفر لى الزميلة عفاف يحيى المشرفة على تنفيذ ليلة القدر .

الطالب..

حدث أن خرجت إلى بر مصر الجنوبى ، بصحبة زميلى محمد مبارك ، والمرحوم محمد عبد الرحمن ، الفنان الذى كان يفيض قلبه رقة وحبًا للبسطاء .

وصلنا مدينة المنيا ، والبحث عن عنوان فى أزقة المدن أصعب من القرى والنجوع حيث يعرف الناس بعضهم بعضًا ، وعندما تقترب سيارة الأخبار من إنسان ما ، ونستفسر منه عن عنوان ، فإنه ينظر إلينا بريبة ، بشك عمره آلاف السنين ، خاصة فى الريف ، لقد علمتهم التجربة الطويلة أن الخير قلما يأتى من جانب الأفندية القادمين من البندر ، وكثيرًا ما سمعنا تلك العبارة بلهجات شتى «أنتم عاوزين منه إيه ؟ » .

وفى الغالب لا تجئ الإجابة إلا بعد التأكد أن المسعى خيرًا ، بل إنهم يصحبونا حتى باب البيت ، يكره الناس أن يكونوا أدلة الشر ، ويفضلون أن يسعوا إلى الخير ، هكذا ، وصلنا إلى بيت قديم

متهالك فى أحد أزقة المنطقة القبلية لمدينة المنيا ، مشينا مسافة حتى نصل إليه ، وفى حجرة صغيرة ، ضيقة ، خالية من أي منفذ ، سقفها هو السلم نفسه ، أثناء المكوث بها تتردد خطوات الطالعين أو النازلين ، لم يكن بها من أثاث إلا سرير من الجريد ، وموقد صغير يشعل بالكحول ، وطبق ألمونيوم ، وكتب ، أما ساكن الحجرة ، فشاب يدرس بالجامعة ، أهله فى البر الشرقى ، أبوه فلاح أجير . .

كان نحيلاً ، متعبًا ، لكنه صرح مشيد من الكبرياء ، كلماته قليلة جدًا ، ولكم نكن فى حاجة لكى نستفسر ، ونسأل تلك الأسئلة التى تجعلنا نتحقق من الحالة وجديتها ، كان خجولاً أيضًا ، ما زلت أذكر ملامحه ، وكأنى أراه الآن ، لقد استعدت لحظات صعبة مررت بها فى حياتى ، ولكنها لم تصل إلى حد افتقاد الطعام لمدة يومين ، ونفاد النقود تمامًا ، وعدم القدرة على الذهاب إلى المحاضرات .

بعد أن فارقناه ، اتفقنا ألا نكتب عن زيارتنا له . كانت الدموع تترقرق فى عيوننا نحن الثلاثة ، وفى العام التالى توجهت إليه ، إلى نفس العنوان ، لم يكن قد أرسل إلينا خطابًا آخر ، وكنت بمفردى ، لكننى لم أجده ، وأخبرنى الجيران إنه حصل على عمل فى محجر قريب ، وإنه يكمل دراسته ، وإنه يزورهم بين الحين والحين ، وأنه كان آية فى السلوك والإنسانية ، لم ألتق به قط ، ولا أدرى أين مضى به تيار الحياة ، ولكننى لم أنس ملامحه ،

ولا كبرياؤه ولا دموعنا ، لكنها ليست المرة الوحيدة التى أنفطر فيها معى أثناء عملى فى ليلة القدر . .

فتاة القاعدة..

كان ذلك عام ستة وسبعين وتسعمائة وألف ، أى مضى سبعة عشر عامًا ، ومع ذلك أستعيد ملامحها فكأننى رأيتها صباح اليوم .

وجه جميل الملامح ، أصيل المصرية ، يُوطره شعر طويل ، خصب غزير ، يغطيه منديل فلاحى ، برتقالى اللون ، كانت الحجرة نظيفة جدًا ، رغم تواضع أثاثها ، وكانت هى تجلس إلى جوار النافذة ، راقدة فوق سرير نحاسى من الطراز القديم ، كان لدينا مثله فى طفولتى ، وكان السرير يحاذى تقريبًا النافذة المستطيلة ، المطلة على الحقول الخضراء ، الخصبة ، نصفها الأسفل مغطى بلحاف قطنى ، مغطى بقماش مشجر ، كان كل شيء بسيطًا ، نظيفًا ، أنيقًا أناقة خاصة ، ورغم رقادها شعرت أن ثمة حيوية شديدة فى الغرفة ، ومرحًا خفيًا ، فى البداية لم أدر مصدره ، ولكننى سرعان ما أكتشفت منبعه ، إنه شباب وحيوية هذه الفتاة الراقدة بجوار النافذة ، تتطلع إلى الطيور المحلقة فى فراغات الريف ، إلى الرائح والغادى ، إلى الأغصان المتدلية ، طوال اليوم هنا فى الفراش ، ذلك أنها لا تستطيع الحراك ، نصفها الأسفل مشلول تمامًا ، وهى لم تلد عاجزة ، ولكنها كانت طفلة مثل كل الأطفال ، تجرى وتلعب وتحلم

بالمستقبل ، وخلال الشهور الأخيرة من حرب الاستنزاف ، بدأ الجيش فى إقامة قواعد صواريخ لتدافع عن المطار القريب ، وخرجت هى مع بنات القرية وصبيانها للعمل فى بناء القاعدة ، كانت تحمل على رأسها قصعة المونة وتمضى فى طابور العمل ، وهذا مشهد رأيته مرارًا فى الريف المصرى ، المرأة المصرية المكافحة تعمل كعاملة بناء ، كانت أجرتها حتة بخمسة فى اليوم ، فى أحد الأيام أغارت الطائرات الإسرائيلية ، قصفت الموقع الذى لم يتم بعد ، وطارت شظية ضئيلة ، صغيرة ، لتستقر فى ظهر الصبية الصغيرة ، لتبدأ رقادًا سوف يستمر إلى الأبد ، ولتقوم زوجة أبيها على خدمتها ، فى كل يوم تساعدها على تمشيط شعرها الناعم الغزير ، وكأنها سوف تزف فى المساء ، ولتمكث بجوار النافذة متطلعة إلى الفضاء الفسيح ، كأنها تحلم باجتيازه يومًا .

أذكر أننى أمضيت يومين كاملين ، اشتريت جهاز تريكو ، وقام نجار ماهر بإعداد مسند خاص ، بحيث يمكنها من العمل رغم رقادها ، أقبلت بحماس ، وتطوعت مشرفة الوحدة الاجتماعية لتعليمها ، أما الراديو الذى حرصت أن يكون من أحدث طراز فقد استقر إلى جوارها ليساعدها فى تبديد وحدتها . .

ترى . . أين هى الآن ؟ ، هل غيرت الأيام من ابتسامتها المليئة بالتفاؤل والرغبة فى الحياة ؟ ، لكم تبدو لى دائمًا مضيئة ، ساطعة ، أقدر على الفعل مع عجزها من كثيرين . .

فقد العائل..

من اللحظات المؤثرة التى تلح علىّ باستمرار ، لحظة وصولى إلى أسرة فقدت عائلها ، إما بالموت المفاجئ ، أو الإختفاء الغامض ، وهناك أسر كنت أدرك مدى التصدع الذى أصابها مع اختفاء الأب ، أذكر زوجة ساعى فى مصلحة البريد ، كانت تجلس حولها ثلاثة أطفال صغار ، لم يترك الأب الراحل لهم أى شىء ، حتى المعاش لم يكتمل لأنه قضى شابًا ، لم تكن زوجته تعرف الطرق بعيدًا عن بيتها ، كما أذكر أسرة أخرى فى القلعة ، كان الأب يعمل حمالاً فى الجمعية التعاونية ، ثم مرض ولم يستغرق الأمر طويلاً ، فقد العائل يعنى إنهيار السقف المادى والمعنوى ، والوقوف على حافة الضياع الحقيقى ، فى مثل هذه الحالات أفضل إعداد مشروع صغير لضمان الرزق ، ماكينة خياطة ، فاترينة لبيع الحلوى والسجائر ، لقد أصيب زوج أم صابر بشكل مفاجئ ، وأصبح العامل الماهر الذى كان يصلح أنفس أنواع الساعات عاجزًا تمامًا ، ومن خلال مشروع ليلة القدر ، ومن خلال بعض الطيبين بدأت أم صابر تجارة جاز (كيروسين) وأعترف أننى خالفت تعليمات أستاذنا مصطفى أمين مرة ثانية ، تقضى تعليماته أن من حصل على مساعدة من ليلة القدر لا يحصل مرة أخرى ، ولكننى قدمت إلى أم صابر مساعدة لعدة سنوات متتالية ، ماذا كانت النتيجة ؟ ، لأم صابر خمسة أبناء ، أصرت على تعليمهم جميعًا ، تخرج منهم اثنان من الجامعة ، ما زالا حتى هذه اللحظة بدون عمل ،

لقد أدت الأم الصعيدية قوية الإرادة واجبها تجاه المجتمع ، ولكن المجتمع لم يؤد واجبه تجاهها ، ومازلت أذكر صوتها ولهجتها الصعيدية ، وقبضة يدها . . « أنا قدمت لمصر زرعة نظيفة . . رجالة زى الورد . . » . . لكن الأبناء عالة عليها الآن ، وأكبرهم الذى يحمل بكالوريوس تجارة لم يعمل بعد .

مثل هذه الأسرة يقضنى مصيرها ، ويقلقنى وضعها وكأنه يتعلق بى ، وأيضًا تلك الأسر الفقيرة التى فارقها أربابها فجأة ، أو هذه الأم الصعيدية فى إحدى قرى طما التى اختفى زوجها فى الكويت ، ولم تسمع عنه خبرًا منذ سبع سنوات ، أحيانًا أتذكر بعض المواقف التى لا تخلو من طرافة ، فى إحدى قرى الصعيد ، وصلنا إلى أسرة قبطية ، كان الخطاب مكتوبًا على لسان الأم التى فقدت زوجها ، قالت أنها قبطية وتتطلع إلى مساعدة من ليلة القدر ، وقد رد الأستاذ مصطفى أمين عليها بخطاب شخصى حملته إليها ، أذكر قوله فيه « إن ليلة القدر لكل المصريين ، وليست للمسلمين فقط » ، كانت السيدة تريد حمارًا ، حمار يمكن أن يساعدها فى عملها عند ذهابها إلى الغيط ، وإلى السوق ، وبعد أن استفسرنا واشترينا الحمار ، قامت القرية بزفة كبيرة ، فرحًا بالحمار الذى سيسهل حياة الأرملة ، أما هذا الأب الفواعلى (عامل بذراعه) فلن أنسى حزنه على وحيده أبدًا ، لم ينجب غيره ، وبعد أن حصل ابنه على دبلوم صنائع سافر إلى العراق وعمل جرسونًا فى مقهى ، واحترق هناك ، عاد فى صندوق ، وتوقف الأب عن العمل ، مع أنه لم يكف طوال

عمره ، كان حزنه على وحيده بعمق الوادى كله ، وبعرض الأرض ، وارتفاع السماء ، حزن كونى فطر قلبى . .

الأمانى..

من يدرس الحالات التى مرت أو مرت بها ليلة القدر ، سوف يكتشف تواضع الأمانى عبر الثلاثين عامًا الأخيرة ، وأثناء فحص الخطابات لا أتردد أمام من يطلب مساعدة لآخر ، فثمة فقراء لا يعرفون القراءة أو الكتابة ، فينوب عنهم الجيران ، أو (فاعل خير) كما يجئ التوقيع ، كذلك أمام من يطلب غطاء أو مرتبة ، أو وسيلة رزق .

لقد دخلت فئات أخرى إلى دائرة المحتاجين ، لن أنسى هذا الأب الذى تقاعد بعد الستين ، وطلب مني أن أساعده فى العثور على من يتبنى أولاده الثلاثة ، كان موظفًا محترمًا ، لكنه عجز عن مواجهة تكاليف الحياة وضغوطها ، فى حالة أخرى جاءت زوجة وكيل وزارة بالخدمة ، وشرحت للأستاذ مصطفى أمين الظروف ، وتقرر لها بالفعل مساعدة . . ولنسأل أنفسنا ، كم يبلغ مرتب وكيل وزارة الآن ؟

ما لا يعلن عما تقدمه ليلة القدر أضعاف مضاعفة لما يعلن ، يكفى آلاف الطلاب الذين يتلقون مساعدات شهرية ثابتة ، ودار الأيتام التى بدأ العمل فيها بالفعل فى مدينة السادس من أكتوبر ، لقد حول أستاذنا مصطفى أمين لحظات ليلة القدر المتوقعة كل سنة مرة ، إلى أيام ممتدة .

لو حاولت التوقف أمام من عاينت ، من كنت الوسيلة لتقديم مساعدة غيرت مجرى حياتهم لما استطعت ، ولكم أشعر بالسعادة عندما يزورنى ابن أحدى الأسر بعد تخرجه وعمله ، وكان ذلك نتاج ماكينة حياكة أو ماكينة تريكو أو مشروع بسيط أسهمت فيه ليلة القدر التى تعتبر من أهم علامات التكافل الإجتماعى ، والإنسانى فى مجتمع تتزايد فيه صعوبات الحياة .

بالنسبة لى فإن العمل فى ليلة القدر من أهم قنوات اتصالى بالواقع ، بالبسطاء الذين جئت منهم ، فإذا ما أتيحت لى الفرصة كى أكون واسطة لتقديم المساعدة الإنسانية فإن ذلك بقدر ما يثير راحتى ، بقدر ما يشعرنى أننى أديت بعضًا من واجبى تجاه أولئك الذين لا صوت لهم ، وأحاول قدر استطاعتى أن أكون صوتًا لهم . .

ورق × ورق

الأحد..

. . تبدى ابنتى حماسًا مع اقتراب موعد افتتاح المدارس ، اختيارها نوع الأقلام ، الكراريس ، أدوات الكتابة ، خاصة أنها تنهى مرحلة دراستها الإبتدائية ، وتدخل المرحلة الإعدادية ، الزى مختلف ، والاستعداد أيضًا ، هكذا تمضى الحياة . .

راحت تسألنى عن أنواع الكراسات ، الأقلام ، ثم قالت فجأة . . « تعرف يا بابا أن ما استريحش إلا إذا كان عندى ورق وكشاكيل كثير . . » .

تطلعت إليها صامتًا ، مخفيًا دهشتى ، هل تلاحظ عاداتى ؟ هل انتقل إليها منى بعض ما أقوم به بحكم ذلك القانون الخفى ، الوراثة؟

الورق ، الكشاكيل ، أدوات الكتابة ، بعد انصرافها وجدت نفسى أتطلع إلى ما فات ، وكانت هى تحدثنى عما هو قادم ، ساع ، لم يبلغنا بعد .

فى سنة تسعة وخمسين وتسعمائة وألف ، ولأسباب غامضة لا أجد لها تفسيرًا حتى الآن كتبت أول قصة قصيرة ، أذكر أننى كتبتها على صفحات كراسة مدرسية ، كنت فى الشهادة الإعدادية وقتئذ ، كنت أكتب على الوجهين ، وبعد عامين عندما تقدمت بأول كتاب إلى الدار المصرية للتأليف والنشر ، وكان عنوانه « المساكين » تيمنًا وتفاؤلاً بعنوان أول كتاب أصدره دستويفسكى ، وكنت قرأته فى «مطبوعات الشرق » ، تلك السلسلة الرصينة التى كانت تقدم الأدب الروسى مترجمًا .

فى هذه الدار التقيت بالسيدة شفيقة جبر ، حرم الأستاذ عبد الرحمن الخميسى- رحمه الله - ؛ ووالدة صديق العمر أحمد المقيم الآن فى موسكو ، وسوف أفيض فى حديثى عنها ، فهى تنتمى إلى عدد قليل أدين له كثيرًا ، ولا أذكر أننى فى حياتى قد انحنيت لأقبل يدًا ، إلا أيدى ، والدىّ رحمهما الله ، ونجيب محفوظ ، وشفيقة جبر ، وشيخنا عبد الوارث الدسوقى ، أمد الله فى أعمارهم أجمعين .

تطلعت إلىّ السيدة شفيقة ، ما زلت أذكر نظرتها الطيبة ، المشفقة على صغر سنى ، تصفحت أوراق المجموعة ، ثم قالت أنه من المستحسن أن أكتب فيما بعد على جهة واحدة ، لأن هذا أسهل للمطبعة .

طبعًا كنت أصغى إلى كلمة المطبعة فيرقص داخلى فرحًا ، ولكن صدور المساكين لم يحدث قط ، أما أول كتاب فصدر بعد هذا اللقاء بثمان سنوات ، وكان عنوانه « أوراق شاب عاش منذ ألف عام » ، رحلة شاقة ، وعرة ، طويلة ، عانيت فيها الكثير ، ولكننى لا أمل القول من شعورى بالإمتنان لكل من ساعدنى وهدانى .

كانت القصص القصيرة التى تضمها المجموعة مكتوبة على ورق مسطر مجوز ، كان مصروفى اليومى قرشى صاغ ، وكان يكفى بالكاد ما أحتاج إليه فى يوم الدراسة الطويل ، وبرغم ذلك كنت أوفر منه خمس مليمات لأشترى فرخى ورق مسطر من مكتبة العسال الواقعة بجوار مقهى البنان على ناصية شارع قصر الشوق .

ما زلت أذكر رائحة الورق ، والحبر ، والأساتيك ، الممتزجة برائحة الحلوى والبسكويت ولعب الأطفال .

زالت المكتبة الآن ، ولا أمر بموقعها إلا ويهفو قلبى ، فقد كانت من علامات صباى ، خاصة فى الأعياد عندما تتزين واجهتها وتعلق البالونات واللعب .

لم يكن مسكننا الضيق يتسع لمكتب ، فقط منضدة صغيرة تطوى وتبسط ، أما كتبى غير الدراسية فكانت قليلة العدد ، يصطف بعضها فوق أو فى أرضية الصوان الوحيد المخصص لملابس الأسرة .

كانت والدتى - رحمها الله - تفهم عنى ، وتدرك ما عندى بدون لفظ بيننا ، ومنى إليها كان ينتقل ما عندى فأتطلع صوبها فأدرك أنها فهمت ، وعرفت ، كنت أمامها كتابًا مبسوطًا ، مفتوحًا ، وكانت هى ملمة بمتنه وحواشيه وما خفى من معانيه .

كانت تعرف أننى أجد نفسى خلال تلك الإنحناءة الطويلة التى لا يكون بين يدى كتاب مدرسة أو كراسة دروس ، كان والدها الذى قضى مبكرًا وهى طفلة شيخ القرية ، وإمام مسجدها ، ومعالج فقرائها بالأحجبة والتعاويذ ، ومداح الرسول ﷺ . وفى السنوات الأخيرة اكتشفت مخطوطات نادرة وجميلة لابن عربى والقاضى عياض وغيرهما ، فى منزل جدى رحمه الله . ما زال المعمرون من ربع حسام الدين بجهينة الغربية يذكرون ملاحة صوته ، ورقة إنشاؤه ، هل كانت الوالدة ترى فى انحنائى على القراءة ترديدًا لما شاهدته من أبيها فى طفولتها المبكرة ؟ هل ذكرها جلوسى إلى المنضدة به ؟

هل استعادت صورته وهى ترقبنى مستغرقًا ، منهمكًا فى الكتابة فكانت تقترب لتضع كوب الشاى الثقيل المعطر بالنعناع وتبتعد فى صمت لتجلس على مقربة منى ، لا تنام إلا بعدنا ، وتستيقظ قبلنا أجمعين . . كوب الشاى هذا هو العادة الوحيدة المرتبطة عندى بالكتابة ، كوب واحد لا غير أشربه فى المساء . . لا أدرى ولن أعرف أبدًا أى صور كانت تتوالى على ذهنها وهى ترقبنى منكبًا على الورق . .

وكثيرًا ما كان الورق ينتهى ، ولا تنتهى الكتابة ، فأبدى ضيقًا ، عندئذ تدس يدها فى صدرها ، ومن ميزانية البيت اليومية تعطينى قرشًا أو اثنين لأسرع إلى مكتبة العسال وأعود بالورق الفولسكاب وأواصل الكتابة .

* * *

فى بداية الستينات ، وفى منزل الفنان الراحل عبد الرحمن الخميسى تعرفت على صلاح عيسى ، ولى عنه حديث أطول فيما بعد لتأثيره العميق فى علاقتى بالثقافة والواقع ، ولكن ما يعنينى الآن رؤيتى لورق الصحف الدشت معه لأول مرة ، كان يكتب عليه بقلم جاف وخط دقيق ، منظم صارم ، تمامًا كعلاقته بالقراءة والكتابة والحلم وقتئذ .

عندما عرفت طريقى إلى جريدة المساء ، بدأت أحصل على هذا الورق من الصديق العزيز عبد الفتاح الجمل الذى كان يفتح صدره رحبًا للجيل كله ، وبدأ يمدنى بالورق ، هذا الورق الدشت المتخلف عن طباعة الصحف أنواع ، منه الخشن والناعم طبقًا

للمصدر ، فنلنديا كان أو روسيًا ، المهم أنه حل لى مشكلة توفر الورق ، ثم اعتدت فيما بعد وحتى الآن أن أكتب قصصى عليه لأول مرة ، اسميها الكتابة الأولى ، حيث يكون الإنطلاق أشمل ، ويمكن كتابة جملة واحدة ، وإذا لم تقع من النفس موقعًا حسنًا ، عندئذ أمزق الورقة وأبدأ فى أخرى جديدة ، يشجعنى طبعًا وفرته ، فى كل زيارة إلى عبد الفتاح الجمل كنت أطلب « شوية ورق » فيسحب من الدرج رزمة ويقول لى «خد . . » ، وأعود إلى البيت لأضم الورق الجديد إلى القديم ، وأنظر إليه فى راحة ، وكلما تزايد مخزونه كلما شعرت بالاطمئنان ، والاستقرار ، وهذا دأبى حتى الآن .

فى عام ثلاثة وستين وتسعمائة وألف التحقت بالعمل رسامًا ومصممًا للسجاد بمؤسسة التعاون الإنتاجى ، وتعرفت على أنواع جديدة من الورق ، ورق أبيض ، ومسطر ، ورق ستين جرام ، وآخر سبعين جرام ، وورق خفيف شفاف اسمه ورق « رز » ، كان مخصصًا لكتابة صور الخطابات على الآلة الكاتبة ، أما الورق الأزرق السميك الناعم ، والمسمى بآزوريه فمخصص للخطابات الرسمية الصادرة عن مكتب رئيس مجلس الإدارة إلى الوزير أو العكس ، الورق الآزوريه لاستعمال المستويات العليا من البيروقراطية فقط ، ولذلك كانت دهشتى شديدة عندما التحقت بأخبار اليوم ، ورأيت الخطابات المتبادلة مع الإدارة تكتب على ورق دشت من أوراق الصحف ، وفوق هذا الورق المتواضع توقيعات موسى صبرى ومصطفى أمين وسعيد سنبل وجلال دويدار والمدير العام .

فى التعاون الإنتاجى تعرفت إلى زميل ، موظف يعمل على الآلة الكاتبة ، بدأت أتعامل معه ، يكتب لى المسودات النهائية من قصصى مقابل أجر زهيد ، وقد أنقذ هذا الزميل مخطوطة رواية لى كانت ستفقد إلى الأبد لولا أننى سلمتها إليه قبل الاعتقال الذى فقدت بسببه روايتين ، ولهذا تفصيل فيما بعد .

بدأت أحصل من زميلى على ورق أبيض مسطر ، ناعم ، وكما كنت أفعل مع عبد الفتاح الجمل ، يومًا بعد يوم أعود إلى البيت ومعى مجموعة من الورق ، وكان والدى - رحمه الله - يحضر إلىّ ورقًا من زملائه بوزارة الزراعة ، ومرة أتى إلىّ برزمة كاملة من الورق المسطر مغلفة بورق بنى اللون .

كنت أدخر الورق ، وكلما تزايد مخزونى منه اطمأنت نفسى ، وهذا دأبى حتى الآن .

فى بداية عام ستة وستين كانت ثروتى خمس رزم كاملة ، من الورق الأبيض المسطر ، ورزمتين من ورق الرز الخفيف ، وثامنة ورق أبيض ، وكمية أخرى فرط حوالى نصف رزمة ، وكمية من ورق الدشت ، والأخير مصدره عبد الفتاح الجمل .

كان لدى مخزون استراتيچى يوفر لى الإحساس بالأمن الورقى ، وكان باستطاعتى أن أكتب بدون الخوف من نفاد الورق قبل إتمام القصة أو المقال ، باختصار كنت ماضيًا ، مطمئنًا ، إلى أن حدث ليلة التاسع من أكتوبر من نفس العام ما كدر علىّ صفوى ، وأورث عندى حسرات .

* * *

فى تلك الليلة داهمنا زائر الفجر .
باختصار أعتقلت ، وكانت المضبوطات كمية كبيرة من كتب أدخرت ثمنها من قوتى ، وكافة ما أدخرته من ورق .
كان الضابط يتفحص الرزم بعناية ، يتحسسها ويقلبها ، وعندما أدركت أنه سوف يأخذها قلت له أن هذا ورق كتابة ، ماذا يعنى مصادرته ؟
نظر إلىّ مضيقًا عينيه ، قال باختصار ذو مغزى :
« طباعة المنشورات . . » .
قلت مجادلاً :
« ولكن هذا ورق لا يتشرب الحبر . . » .
قال ساخرًا :
« وكمان عارف ؟ » .

فى هذه الليلة فقدت أصول قصتى الأولى ، وروايتين مخطوطتين عدا ثالثة كنت قد دفعت بها للكتابة على الآلة ، كما فقدت كافة الصور الملتقطة لى من قبل حتى تلك الليلة عدا صورة صغيرة تحدثت عنها فى هذه اليوميات من قبل .

سجنت فى القلعة ، ومررت بظروف عاتية ، والغريب أننى فى الليالى التى كنت أواجه فيها آلة القمع الرهيبة وحيدًا ، منفردًا ، كنت أذكر الورق المصادر فأكاد أبكى حزنًا وحسرة ، أحزن عليه بنفس القدر الذى أحزن على مخطوطات قصصى ، وأوراقى ورسائلى ، وكأننى أتحسر على ما يمكن كتابته مستقبلاً على سطوره ، وأذكر أننى فى إحدى الليالى استيقظت على حلم

«كابوس» رأيت فيه رزم الورق الأبيض التى فقدتها ، تمامًا بنفس الوضع الذى كانت عليه داخل الصوان ، وكنت فى الحلم أصرخ محاولاً دفع البعض الذين يحاولون مصادرتها أو المساس بها ، غير أن صراخى لم ينتج عنه إلا يقظتى عاثر الأنفاس ، متهدجًا ، وعندى حزن هائل على الورق الضائع .

* * *

الكتابة الأولى على الورق الدشت
الثانية على الورق المسطر

الحمد لله ، عندى الآن ما يكفى من النوعين ، وعندى دفاتر تحوى ورقًا مصقولاً لامعًا ، ينزلق عليه القلم فى يسر وراحة ، ورق من فرنسا وآخر من إيطاليا ، ولكننى لا أستخدمه مخافة أن أعتاد عليه ، من أين أوفره ؟ أضع هذا الورق جانبًا ، لا أكتب عليه إلا رسائلى الخاصة إلى الأصدقاء والأحباء ، الآن . . يمكن القول أن الورق كاف بنوعيه الدشت والمسطر ، وكلاهما توفره لى إدارة أخبار اليوم بوفرة وكرم ، لا أحتاج مزيدًا من الورق ، إنما أحتاج إلى وقت ، إلى زمن كاف لأكتب ما أريد أن أكتبه على هذا الورق .

الاثنين..

من أهم الأخبار التى أحرص على متابعتها يوميًا ما ينشر عن فيضان النيل ، عدد السنتيمترات التى تزيدها بحيرة ناصر ، ما يقلقنى تلك السنوات التى يشح فيها ماء النيل ، ونضطر إلى السحب من المخزون الاستراتيجى للبحيرة ، وإلى ما قبل بناء السد

كانت الحياة فى مصر ترتبط بإيقاع المياه فى المجرى العتيد ، خاصة قبل بناء الخزانات العملاقة مثل أسوان ، والقناطر الخيرية .

فى القرون الوسطى ، وحتى القرن الماضى ، كان المنادى يطوف شوارع القاهرة يوميًا ليعلن على الناس المستوى الذى وصل إليه مقياس الروضة ، فإذا بلغ ستة عشر ذراعاً تدق الطبول بالبشائر ، وتعم الفرحة ، وتنهال الهدايا على المنادى الذى كان اسمه زمن ابن إياس « ابن أبى الرواد » ، وإذا نقص النيل عن ستة عشر ذراعًا سرعان ما تختفى السلع من الأسواق ، وترتفع أسعار الغلال ، وتبدأ المجاعة ثم الأوبئة ، هذا مشهد يتكرر عقب شح النيل طوال تاريخ مصر .

النيل بحق هو شريان الحياة ، لذلك كان يعبد فى الزمن الفرعونى ، وكان الإنسان المتوفى يقسم فى بداية رحلته عبر العالم الآخر أنه لم يسرق ، ولم يزن ، ولم . . يلوث ماء النيل ، يبدو أننا نسينا تلك الحقيقة البديهية بعد أن سيطرنا على مياه النيل ، وضعف إحساسنا بالنهر إلى درجة إهانته . . بإلقاء المخلفات فيه ، وحجبه عن الرؤية بالبناء المباشر عليه ، وأخشى أن يكون شح النيل فى السنوات الأخيرة سببه هذا الإهمال ، لذلك يجب أن نعيد إليه هيبته وأن نبتهل إلى الله لكى يتم الوفاء القديم ، المتجدد فى موعده تمامًا كل عام .

حديث فى الذاكرة الوطنية

. . فى برنامج تليفزيونى أذيع الأسبوع الماضى جرى حوار مع مجموعة من الشباب ، ولدوا كلهم منذ تسعة عشر عامًا ، أى فى أكتوبر ١٩٧٣

عندما سألت المذيعة أحدهم عن عبد العاطى صائد الدبابات ، قال أنه لا يعرفه ولم يسمع به .

وعندما سألت آخر عن أشهر معارك أكتوبر قال : إنها معركة حطين !

تأملت وجوههم وملامحهم بمزيج من الدهشة والحيرة ، عندما جرت معركة العبور كانوا أجنة فى بطون أمهاتهم ، أو يبدأون سعيهم فى الحياة الدنيا .

هل ألومهم ؟ أم ألوم الظروف ؟

أذكر أننا كنا ندرس فى المدارس الإبتدائية والإعدادية فصولاً عن أبطال مصريين ، بعضهم من أبناء الشعب البسيط وقد عاشوا على إمتداد تاريخه ، من هذه الدروس عرفت عيسى العوام الذى كان يعبر النيل إلى معسكرات الصليبيين فى دمياط قبل أسر لويس التاسع فى المنصورة ، عرفته قبل أن أقرأ مصادر التاريخ المصرى الكبرى ، مثل « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » لابن واصل ، أو « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى ، أو « بدائع الزهور » لابن إياس .

عرفت أيضًا ابن القباقيبى شهيد ثورة ١٩١٩ فى السيدة زينب وذلك الطفل الذى لا أذكر اسمه والذى كان يتسلل إلى إلى معسكرات الفرنسيين ليسرق البنادق والسلاح .

وشيخ زاوية العميان الذى تزعم الثورة ضد الفرنسيين ، وتم إعدامه غرقًا فى النيل .

هؤلاء وغيرهم استقروا فى ذاكرتى نتيجة لذلك الحرص الذى عرفته مصر طوال تاريخها على صيانة ذاكرتها الوطنية ، بدءاً من العصر الفرعونى عندما كان الفراعنة العظام يسجلون على الحجر إنتصارات جيوشهم وأمجادهم وجلائل الأعمال التى قاموا بها .

كيف وصلنا إلى نقطة تاهت فيها ذكرى عظيمة لم ينقض على مرورها إلا تسعة عشر عامًا ؟

أكتوبر واقع عشناه ، أيام تنفسناها وتنفستنا ، مررنا بها ومرت بنا ، فلماذا تغيب التفاصيل ؟ ولماذا تبدو الروح التى سادت شعبنا غريبة ، نائية الآن ؟

لم يكن أكتوبر مجرد هذه الأيام التى استغرقتها الحرب ، ولكنه كان لحظات مضيئة فى تاريخنا ، انصهرت فيها عوامل تكوين الأمة فى ظروف نادرة ، عوامل بعضها ظاهر معلن ، والعديد منها يدخل فى تكوين أمتنا العريقة ، وهذا ما نعنيه بالتاريخ الطويل ، والحضارة ، هذا ما عاينته وما شاهدته ، لم أقرأ عن أصالة وبسالة المقاتل المصرى الذى عبر القناة ، ولكننى رأيتها كشاهد عيان ، لم أسمع عن الفلاحين البسطاء الذين عاشوا على ضفاف القناة تحت القصف اليومى مباشرة وفى مرمى الأسلحة الخفية للعدو ، رفضوا مغادرة أرضهم واستمروا يزرعونها فى الشط ، فى كفر عامر ، فى الدفرسوار ، فى أبى خليفة ، وحتى الكاب والتينة شمالاً ، لم يكن النبات المسقى بدماء الشهداء مجرد أغصان تنمو من

الأرض ، ولكنها كانت دلائل على روح عظيمة ترفض القهر والموات ، وكان العدو يدرك خطورة هذا اللون الأخضر وما يعنيه من تحدى ، فاستحضر قذائف الفوسفور خصيصًا ليقصف الزرع . . وبقى الفلاحون حتى رأيتهم صباح الأحد السابع من أكتوبر يعبرون القناة فوق الجسور التى أقامتها قواتنا المسلحة ، يحملون صوانى فوقها طعام الإفطار وأكواب الشاى باللبن ، تحية رمزية للجنود يو م الصباحية كما أطلقوا على أول ليلة مرت على رجالنا فى سيناء بعد رفع العلم المصرى . .

ماذا جرى إذن ؟

لقد جرى خلال السبعينات ، خلال السنوات التى تلت الحرب تغيرات اقتصادية واجتماعية عميقة ، وعمليات هجرة واسعة لم يعرفها الإنسان المصرى فى تاريخه ، حيث جرى امتهانه على أيدى الأشقاء ، وبدأت قيم أخرى تترسخ ، الأنانية ، والإنغماس المستمر من أجل الحصول على الحد الأدنى لمتطلبات العيش ، بدءاً من مكان فى وسائل المواصلات وحتى البحث عن فرصة عمل ، ومع الثروات الهائلة التى ظهرت فى فترات وجيزة جرت عملية استقطاب حادة ، نتج عنها ظهور هذه الأعراض السلبية فى حياتنا التى نعيشها الآن ، ولكن أخطر ما جرى على مستوى الوعى ، هو عملية التدمير البطيئة للذاكرة الوطنية ، لكل العناصر التى تراكمت عبر آلاف السنين وحتى أكتوبر القريب .

إزاء منطق «وأنا مالى ؟» ، و «يا عم سيبك بلاش كلام شعارات » ، إزاء منطق الرغبة فى الخلاص الفورى ، ومنطق « يا

الله نفسى » ، جرى إنزواء اللحظات المضيئة فى تاريخنا حتى القريب ، وعندما نتحدث الآن عن الوحدة الوطنية التى ظهرت خلال ثورة ١٩١٩ يبدو البعض دهشًا ، وعندما نستعيد شعار الهلال والصليب ونقول أن القمص سرجيوس كان يخطب من فوق المنبر فى الأزهر ، والمشايخ فى الكنائس يصم المتطرفون من الجانبين آذانهم .

وعندما نتذكر السادس من أكتوبر فى المناسبة فقط فإنه يتحول سريعًا إلى ذكرى باهتة ، ربما تثير عند البعض نقيض المراد منها ، تمامًا كالأغانى الوطنية التى يتردد فيها اسم مصر بشكل يخلو من المعنى ، فلا تسهم إلا فى تسطيح المشاعر ، هذه الأغانى التى أوحت إلى كاتبنا الكبير أحمد رجب بإحدى شخصيات بالغة الدلالة ، عبده حريقة مؤلف الأغانى .

ما جرى فى أكتوبر يفوق بكثير كل وسائل التعبير عنه فى الإعلام ، فى النشاطات التى تصاحب الإحتفال به ، برغم كل ما قيل وتردد فإن جوهر تلك الأيام لم يتجسد تمامًا حتى الآن ، ولن يتم هذا إلا فى إطار عملية شاملة لإحياء ذاكرة الأمة ، تاريخها ، الناصع من مواقفها وهذا أمر لا علاقة له بأى نظم اقتصادية أو سياسية بل إنه يتصل بضرورة استمرارية الأمة ، وها نحن نجد أن عتاة الدول الرأسمالية ، مثل إنجلترا وألمانيا وفرنسا ، وغيرهم ، فإنهم يحرصون على ذاكرتهم الوطنية إلى حد التعصب ، أتصور أن الأدب والفن والإعلام ومناهج التعليم ، كلها فروع وجهود يجب أن تتضافر فى إطار مناخ عام يسمح بالحفاظ

على ذاكرة الأمة ، وإيقاظ الجذوة الكامنة ، بدون أن يردد البعض أن هذه مجرد شعارات بالية ، وحتى لا نصل إلى لحظة يجيب فيها شاب جامعى قائلاً أن إحدى معارك أكتوبر هى معركة حطين!!

ولكن تحت الرماد البادى هناك جمر ما زال متقد . . كيف ؟

حكايات الغريب..

. . بعد حصار استغرق مائة وأربعة وثلاثين يومًا فتح الطريق إلى مدينة السويس التى أصبحت بحق رمزًا ، ما زلت أذكر ذلك الصباح المبكر الذى وصلنا فيه إلى نقطة مرور المثلث ، كنت ضمن مجموعة من الصحفيين ، أول من يدخلون إلى المدينة مع أجهزة الدولة المختلفة .

ما زلت أذكر أهالى المدينة وهم يمتشقون الرشاشات والأسلحة ، منهم من يرتدى الأفرول العسكرى ، أو الجلباب البلدى ، كان الجو باردًا ، واللقاء مؤثرًا إلى أقصى حد ، الدموع فى العيون بتأثير الفرح والمعنى الكامن ، الظاهر ، كانت لحى الرجال طويلة ، كثيفة ، لم يكن هناك ظروف تتيح ترف حلاقتها .

ولأننى لست غريبًا عن المدينة ، بل كنت دائم التردد عليها خلال حرب الاستنزاف وحتى أيام أكتوبر المجيدة ، رحت أبحث عمن أعرفهم ، وسرعان ما رأيت بعضهم ، كابتن غزالى ، أحمد العطيفى ، عبد المنعم قناوى ، سوسو الحلوانى ، تقدموا منى ، وتقدمت منهم ، تعانقنا ، مازلت أذكر جملة أحمد العطيفى بمجرد أن تواجهنا . .

« بقينا تسعة . . »

كان ذلك يعنى استشهاد أربعة من الرجال أعضاء المجموعة الفدائية التى تم اختيار رجالها من أهالى المدينة ، وأشرف مكتب المخابرات الحربية على تدريبهم وتنفيذ عمليات ذات طبيعة خاصة جدًا بواسطتهم ، وكانت البيانات تصدر موقعة باسم منظمة سيناء العربية ، التقيت بهم فى وقت مبكر عام تسعة وستين وتسعمائة وألف ، فى مدرسة مهددة ، وكان ذلك عقب عبورهم القناة فى منطقة الشط ورفعهم العلم المصرى فوق إحدى النقاط الحصينة بعد اقتحامها ، لقد بدأت علاقتى بهم وقتئذ واستمرت طوال سنوات الحرب ، وخلالها استشهد منهم عدد من أخلص وأشجع أبناء السويس ، كانوا كلهم متطوعين ، وما زلت أحتفظ فوق مكتبى بصورة أول شهدائهم مصطفى أبو هاشم .

بعد فتح الطريق أمضيت أيامًا عديدة فى السويس التى كانت مدمرة تمامًا ، لم يحدث هذا التدمير فى ستالنجراد ولا فى أى مدينة خلال الحرب العالمية الأولى أو الثانية ، وخلال هذه الأيام كنت أعايش وأصغى ، وأدون فى كل ليلة ملخصًا لما أسمع ، توقفت مطولاً عند عبد العزيز .

عبد العزيز سائق عربة تنقل الصحف ، فى يوم الثالث والعشرين من أكتوبر قاد سيارة نصف نقل تحمل الصحف ليتم توزيعها بمدينة السويس ، وحدث أن قطع الطريق عندما اندفع العدو غرب القناة ليبدأ تطويق الجيش الثالث ، وسرعان ما بدأت معركة المدينة الخالدة ، فوجئ عبد العزيز بأهالى المدينة والجنود والضباط يهرعون صوب مداخل المدينة لصد العدو ، رآه أحمد العطيفى وزملائه ، سألوه :

« تعرف ضرب نار ؟ »

قال ببساطة :

« لم أضرب نار طول عمرى . . لكننى يمكن أن أتعلم . . » .

قدم إليه أحمد مدفعًا من طراز آر بى چى ، وعدة قذائف ، وراح بسرعة يشرح له طريقة استخدام المدفع ، صحبهم إلى جهة كوبرى الزراير ، وهناك أطلق عبد العزيز قذائف مدفعه ، وكان ذلك لأول مرة فى حياته ، ولآخر مرة أيضًا ، إذ استشهد عند الكوبرى ولكن . . بعد أن دمر دبابتين ظلتا فى مكانهما إلى ما بعد إنتهاء الحصار ، عدت إلى القاهرة وعندى من الحكايات زاد كثير ، ولكن عبد العزيز راح يلح علىّ ، هكذا شأنى مع الشخصيات التى أعايشها ، أو أتأثر بها ، أو أتوقف عندها ، صرت أراه أمامى أينما وليت وجهى وكأنى كنت أعرفه وقابلته وتحدثت إليه وتكونت ملامحه فى ذهنى مع أنى لم أره قط ، كتبت قصة «حكايات الغريب » فى ربيع ١٩٧٤ ، كنت متأثرًا بواقعة استشهاد عبد العزيز ، وكان تعبيرى عنها سريعًا ، فهناك وقائع أخرى لم أدونها بعد ، رغم أننى عشت تفاصيلها ، نشرت القصة لأول مرة فى مجلة صباح الخير ، وتحمس لها الصديق الناقد والصحفى رؤوف توفيق ، ثم صدرت فى كتاب يضم مجموعة قصصية كلها مستوحاة من حرب أكتوبر ، وحملت عنوان القصة «حكايات الغريب » .

ثمانية عشر عامًا مرت ، إلى أن بدأت إنعام محمد على ، الفنانة الحساسة والموهوبة فى الإعداد لتحويل القصة إلى فيلم ينتجه

التليفزيون ، تحمس ممدوح الليثى وقدم دعمه المادى والمعنوى ، وبدأ محمد حلمى هلال كتابة السيناريو ، واستمر العمل فى الفيلم أكثر من عام ونصف ، خلال ذلك كنت أقرأ أخباره فى الصحف ، فأنا أنتمى إلى موقف يشبه موقف أستاذنا نجيب محفوظ وهو أن الأديب مسئول عن نصه الأدبى ، أما تحويله إلى فيلم أو مسلسل فهذه مسئولية كاتب السيناريو والمخرج بشرط الحفاظ على المضمون ورؤية الكاتب .

ومنذ أسبوعين عرض الفيلم فى نقابة الصحفيين ، وجلست فى مقاعد المتفرجين ، وما أن بدأ العرض حتى فوجئت برجة تهزنى ، وانفعال رهيب يغمرنى حتى أن أحاسيس شتى تنتمى إلى زمن الحرب ظننت اندثارها إذا بها تستيقظ ، وتنفجر تمامًا كما عشتها منذ تسعة عشر عامًا .

بكيت طويلاً ، بكيت على أمور شتى ، على الأيام المجيدة ، على بساطة وعمق الإنسان المصرى ، على كل الذين استشهدوا وافتقدونا نحن ، ثم طواهم النسيان .

هذا العمل الجميل الشاعرى أيقظ ما اندثر عندى ، برهافته بعمق الرؤية ، بروعة أداء المشاركين فيه من ممثلين ، وموسيقى ، وتصوير ، ومن قبل ومن بعد هذا الإخراج المتمكن ، المصحوب برؤية واعية ، لقد جرت العادة أن يعلن الكتاب والأدباء عن عدم رضائهم عن نصوصهم عند تحويلها إلى أفلام سينمائية أو مسلسلات تليفزيونية ، ولكننى أشعر بالتأثر الشديد والامتنان

للتليفزيون ، ولكل من شارك فيه . . كنت طوال السنوات الماضية أسأل نفسى ، من يذكر الآن عبد العزيز أو أمثاله من رجال ونساء مجهولين رحلوا فى صمت .

وقد حاولت أن أصون الذكرى عندما أقدمت على كتابة القصة منذ ثمانية عشر عامًا ، ولكن الفيلم الذى شاهده الملايين ليلة أمس لم يحى ذكرى عبد العزيز فقط ، إنما أدخل إلى القلوب كل من رحل غريبًا كى نبقى ويبقى الوطن . . وتبقى ذاكرته حية . .

نصوص شتى..

بعد حرب أكتوبر كانت هناك رغبة سريعة فى التعبير عن أحداث الحرب ، وبالنسبة للسينما فقد أخضعت الحدث العظيم لمقاييسها ومنظورها ، هكذا جرى إلصاق مشهد العبور بأفلام كانت معدة قبل الحرب ، وتم اختيار قصة (الرصاصة لا تزال فى جيبى) للراحل الكبير إحسان عبد القدوس ، وتم تحويلها إلى فيلم سينمائى أنفقت القوات المسلحة دعمًا ماليًا طائلاً لإنتاجه ، ولكن الفيلم لم يعبر قط عن حرب أكتوبر ، لسبب بسيط . . أن القصة مكتوبة قبل أكتوبر ، وليست من خلاله ، الفيلم الوحيد الذى عبر عن الحرب ، عن مرحلة حرب الاستنزاف بالذات هو (أبناء الصمت) الذى كتب قصته مجيد طوبيا ، كذلك فيلم (مواطن مصرى) عن قصة يوسف القعيد ، هناك أفلام أخرى هامة جدًا لا تعرض للأسف لأنها أفلام تسجيلية ، هذه الأفلام عبرت عن الحرب وبعضها التقط أثناء المعارك مثل (جيوش الشمس) لشادى عبد السلام .

مـا أريد أن أقوله ، أن من يعبر عن الحرب لابد أن يكون قد عاشها ، لا يمكن أن يعبر عن تجربة مواجهة العدو من لم ينازله ، ولا يمكن أن يصف صوت إنفجار الدانة من لم يسمعه .

هناك تجارب المقاتلين ، وقد استجاب عدد من المقاتلين لنداء صفحة أخبار الأدب ، وكتبوا تجاربهم بتلقائية وعمق ، وهناك أعمال تم تقديمها بالفعل إلى الهيئة العامة للكتاب لإصدارها فى سلسلة أدب الحرب ولا أدرى السر فى عدم ظهورها حتى الآن .

هناك الوقائع اليومية التى تتضمنها يوميات القتال ، أذكر أن المرحوم المؤرخ الدكتور محمد أنيس توجه إلى مدينة السويس وأمضى فيها مدة طويلة على رأس مجموعة من الباحثين ، التقوا بأهالى المدينة وسجلوا ما جرى . . أين ذهبت ثمار جهودهم ؟ ، لماذا لم تنشر ؟

الوقائع بلاحصر ، وحرب أكتوبر فيها أحداث تثير الزهو ليس لمصر فقط ولكن للأمة العربية كلها ، وللأسف . . فإن ما نعرفه عنها لا يمثل إلا ذرات صغيرة من جبل موجود ولكننا لا نراه !

الثلاثاء..

رن جرس الهاتف ، أصغيت إلى الصوت الذى بدا مترددًا لكن سرعان ما تدفق حماسًا ، قالت أنها طالبة بالسنة الثانية الإعدادية ، وأنها سهرت حتى ما بعد الثانية لكى ترى فيلم « حكايات الغريب » ، قالت ميرفت أنها تأثرت جدًا مع أشقائها بالفيلم ، وأنها تريد أن تعرف ، أين يمكن أن ترى الأفلام

التسجيلية التى تحدثت عنها فى الندوة التى أعقبت الفيلم ؟ ، قالت : إنها مع أشقائها وزملائها فى حاجة إلى أن يروا أفلامًا أخرى تروى ما قام به المصريون فى تاريخهم المعاصر ، هذه البطولات التى تغيب شيئًا فشيئًا عن الذاكرة . .

قلت لميرفت أن الأفلام التسجيلية معظمها موجود فى المركز القومى للأفلام التسجيلية وفى التليفزيون أيضًا ، وما أتمناه أن تذاع هذه الأفلام فى التليفزيون بانتظام وليس فى المناسبات فقط ، أتمنى أن تذاع أفلام «عبد العاطى صائد الدبابات » لخيرى بشارة ، و « المدفع رقم ٨ » لفؤاد التهامى ، و « جيوش الشمس » للراحل شادى عبد السلام ، والعديد من الأفلام الأخرى المماثلة التى أنتجت بواسطة فنانين شبان ، ذهبوا إلى مواقع الجنود فى الجبهة ، وصور بعضها خلال المعارك ذاتها ، هذه الأفلام تفيض حرارة ووطنية ، لقد أجهضت السينما المصرية حرب أكتوبر حتى الآن ، باستثناء ثلاثة أفلام روائية ، ثلاثة بالتحديد ، «أغنية على الممر » للمخرج على عبد الخالق عن نص مسرحى لعلى سالم ، وفيه كان يبشر بالحرب والنصر ، و « أبناء الصمت » عن قصة مجيد طوبيا التى كتبها قبل العبور وإخراج محمد راضى ، و « مواطن مصرى » رواية يوسف القعيد وإخراج صلاح أبو سيف .

لم تكن ميرفت هى الوحيدة التى أصغيت إلى صوتها اليوم ، ومن بين أكثر من مائة مكالمة ، توقفت طويلاً عند اثنين وعشرين منها ، مكالمات من تلاميذ بالمرحلة الإعدادية ، أعمارهم تدور

بين الثانية عشر والخامسة عشر ، كانوا متأثرين جدًا بالفيلم ، وكان بينهم من له عم استشهد أو قريب رحل إلى الأبد فى معركة الشرف من أجل الوطن ، وكانت تتردد على شفاههم عبارة تنطق بصيغ متقاربة . .

« عاوزين نشوف أفلام تانية زى حكايات الغريب »

وكان هذا يعنى عندى أن الجوهر سليم ، وأن من يمثلون المستقبل يريدون أن يعرفوا ، رغبتهم قوية وعارمة وموجودة ، وأن الذاكرة الوطنية سليمة ، لم تدمر ، وإذا كان بعض الشباب لا يعرف شيئًا عن عبد العاطى صائد الدبابات ، أو غيره من أبطال أكتوبر ، فليس ذلك ذنبهم ، إنما المسئولية تقع هنا على المناهج التعليمية ، على الأدباء ، على الفنانين ، على أجهزة الإعلام بشكل أساسى ، وخاصة التليفزيون ، إن ردود الفعل الإيجابية الواسعة على حكايات الغريب بعد عرضه فى التليفزيون فى حاجة إلى وقفة ، وإلى تأمل ، وإلى عمل أكبر نستلهمه من أحاسيس الناس ومشاعرهم .

الجمعة..

كان الاحتفال الذى دعت إليه لجنة الوحدة الوطنية مهيبًا وغير تقليدى ، تحدث الدكتور أحمد الغندور عميد كلية الاقتصاد والدكتور سيد طنطاوى المفتى ، والبابا شنودة الذى كان فى حديثه مرارة وأسى لا يخفيان ، والدكتور ميلاد حنا أحد دعاة الوحدة الوطنية ، والكاتب الكبير خالد محمد خالد الذى حرص على

المشاركة رغم مرضه ، وكانت مشاركة الفن على مستوى الإحساس بخطورة الموقف الذى تتعرض له مصر فى هذه المرحلة ، كلمات الشاعر الحساس ، الوطنى ، سيد حجاب ، وصوت الفنان على الحجار القوى المعبر ، كما كانت نسبة الحضور المرتفعة ، والتى بلغت حوالى عشرة آلاف تعكس إحساس الجميع بالخطر وبضرورة تجاوزه . .

إننى واحد ممن يعرفون تاريخ مصر جيدًا ، أعايشه ولا أقرأه فقط ، وللأسف أشعر أن الصيغة التى توصل إليها الوطن فى ثورة ١٩١٩ مهددة الآن ، لقد تعانق الصليب مع الهلال ، وعبر كل المعارك التى خاضها الوطن فى هذا القرن امتزج دم المسلم بدم المسيحى ، وقد رأيت بعينى كيف يستشهد هذا إلى جانب ذاك ، ولكن بتأثير قوى التطرف المتصاعدة فى مجتمعنا الآن يحدث تراجع عن هذه المفاهيم ، وما لا يريد أن يفهمه أولئك الذين صموا آذانهم وأبصارهم عن تاريخ الوطن ، وأعملوا أسباب الهدم فى ذاكرته الوطنية ، إن تطرفهم يؤدى إلى ما يريده أعداء وطننا له من تقسيم وتشرذم ، سواء كانت قوى محلية أو عالمية ، إن الوحدة الوطنية موضوع يجب أن تكون له الأولوية الآن على كافة المستويات ، تمامًا كما يتطلب الأمر لخوض حرب شرسة يهدد فيها عدو أشرس وجود الوطن ذاته ، لقد كان انعقاد هذا المؤتمر ذو دلالة عميقة على وجود المخلصين المدافعين عن وحدة الوطن الأزلية ، ولكنه كان يعنى أيضًا أن الجميع يدركون خطورة الوضع الآنى ، وما يجرى حاليًا على أرض الواقع ، وهذا ما لا يراه للأسف المتعصبون ، المتطرفون .

زمن الزلزلة..

.. صلصلة ، شخللة ، رعد كونى ، مصدره الأرض والسماء معًا ، أصوات مجهولة ، وأشد ما يخيف الإنسان ما لم يعرفه من قبل ، ما ليس له مرجع ، صوت غريب بينما المبنى يهتز ، وكأننا فوق مركب يبحرعبر اليم وليس فى مبنى شاهق من الخرسانة يرتفع أكثر من عشرة طوابق .

بدأ زمن الزلزلة..

زمن آخر ، يلغى كل وقت عداه ، يبدأ من المجهول إلى المجهول ، كما لا يدرى الإنسان لماذا ولا من أين ؟ لا يدرى أيضًا متى سينتهى ؟ لأن كل لحظة فيه يمكن أن تكون النهاية الأبدية ، يجمع زمن الزلزلة كل الأزمنة ، البداية والنهاية معًا ، النسبى والمطلق ، إنه زمن التأرجح على حافة الهاوية التى لا يعرف مداها أحد .

ربما يستغرق ثوان ، ربما عشر ، ثلاثين ، ستين ثانية ، ولكن قلت الثوانى أو كثرت يبدو الوقت ممتدًا بلا نهاية ، أبد لا حدود له ، ما من علامة بادية ، بينما كافة الاحتمالات قائمة ، ماثلة .

إذ ينتهى زمن الزلزلة ينتقل إلى داخل النفوس ، إلى الواقع ، إلى المجتمع ، يشمل كافة جوانب حياتنا ، وبالنسبة لزلزلة الاثنين بالذات فإن وقتها لم ينته بعد ، حتى وإن همدت هذه التوابع تمامًا ، امتدت إلى حياتنا وعدت البيروقراطية المصرية وأوضاعنا كلها كما لم يحدث مع أى زلزلة أخرى .

إخلاء المسئولية..

البيروقراطية فى مصر فلسفة ، وأسلوب حياة ، رؤية تسرى فى واقعنا باقتدار ودقة ، تمامًا كما تسرى قنوات الرى المتفرعة عن النيل فى أراضينا الخصبة ، وما من حدث كشف البيروقراطية بأساليبها وتكتيكاتها مثل الزلزلة الأخيرة .

فى البيروقراطية مبادئ عدة استقرت عبر آلاف السنين ، أحدها مبدأ « إخلاء المسئولية » ، أى على الموظف صغر أو كبر أن يتصرف باستمرار على أساس أنه إذا حان وقت الحساب الصارم يكون بريئًا تمامًا من أى مسئولية ، ولذلك نجد صيغ التأشيرات على الخطابات والمذكرات الرسمية ذات صفة مائعة . نقرأ مثلاً : « للنظر » ، « للعرض » ، « رجاء إبداء النظر » ، « يعاد للدراسة والفحص » .

أما كلمة « أوافق » الحاسمة فلا تجئ إلا من مستوى رفيع ، عالى المنصب ، ذو قدرة على الحسم ، وفى الغالب يكون مسنودًا ، أو له ظهر قوى !

لنر كيف تصرفت الحكومة من خلال هذا المبدأ ؟

فى الليلة الأولى كانت البيانات الرسمية عن الضحايا والمنازل المنهارة أقل بكثير من الواقع ، لم تحو البيانات التى أذيعت إلا رقمًا يدور حول الثمانين منزلاً .

عندما ظهر وزير الإعلام على شاشة التليفزيون أكد أن الآثار سليمة ، خاصة الآثار الإسلامية .

بدا واضحًا من تصرف الحكومة ، أنها معنية أساسًا بإخلاء مسئوليتها ، ولكن المفارقة هنا مأساوية ومضحكة ، لأن إخلاء المسئولية يتم بالنسبة لظاهرة طبيعية لا قبل للحكومة أو غيرها ، أو أى قوة بردها أو إيقافها أو التقليل من تأثيرها .

كانت الحكومة تريد أن تخلى مسئوليتها وفقًا للمنطق البيروقراطى ، وفى الجانب الآخر كانت المعارضة تتصرف أيضًا وفقًا لمنطق بيروقراطى آخر (البيروقراطية تشمل الكل) ، إنه منطق تحميل المسئولية ، ألا يصيح الموظف العتيق فى وجه محدثه زاعقًا : «سوف أحملك المسئولية» .

هكذا تصرفت المعارضة ، من يقرأ صحفها سيجد أنها تريد الضغط على الحكومة باعتبارها المسئولة عن وقوع الزلزال ، حتى أن جريدة الوفد أرادت إدانة حكومة سابقة عندما كتبت أن السد العالى مسئول عن الزلزال ، رغم كل التأكيدات من علماء مصر وأمريكا واليابان ، لكن ما زال هناك من يصر على مسئولية السد ، لمجرد أن السد بناه جمال عبد الناصر ، وهذا تصرف بيروقراطى صميم ، الغرض منه تحميل المسئولية لطرف غائب ، خرج تمامًا من « المصلحة » لكن بينه وبين البعض حاجة!

إذن تصرف الجميع بمنطق إخلاء المسئولية أو تحميلها ، هذا ما كشف عنه زمن الزلزلة ، الذى كشف أيضًا عن مبدأ آخر من مبادئ البيروقراطية المصرية الفرعونية العتيدة .

فى الصورة..

عندما تسرى الأنباء فى أى مصلحة بمرور رئيسها أو مديرها ، يحرص الموظفون كلهم على التواجد فى مواقعهم ، لكى تقع عينى سيادته على هذا وذاك أثناء مروره السريع ، ولو ثوان . . المهم أن يكون الجميع فى الصورة .

فى كثير من المناسبات الرسمية التى حضرتها على مستويات مختلفة ، كنت ألاحظ تدافع كبار الموظفين وصغارهم للظهور فى الصورة ، على أمل أن تقع عينى المسئول الأكبر على كل منهم ، بل هناك من يتعمدون الوقوف وطلب الكلمة بأى شكل ، والحديث فى أى موضوع أمام المسئول الأكبر على أمل تثبيت الاسم فى ذاكرته ، حتى إذا جاءت فرصة اختيار ، عندئذ . . لعل وعسى .

المهم أن يكون الإنسان الموظف فى الصورة ، وما من مثال يجسد مبدأ « فى الصورة » مثل أخبار الحوادث ، من يقبض على المجرم ضابط صغير ، ولكن هذا تم بفضل توجيهات المقدم فلان بناء على تعليمات العميد فلان الذى لم يتحرك إلا بناء على . . . المهم أن يكون الجميع فى الصورة ، صحيح أن الزلزلة أصبحت هى الثورة ، الكل مشدود إلى أخبارها ، إلى قوة توابعها ، إلى آثارها ، إلى ما نتج عنها ، ولكن كثيرين حاولوا الاقتراب من هذه الثورة ، بل وإزاحتها ليحلوا مكانها ، المهم أن يصبحوا فى الصورة ، هل أضرب أمثلة ؟

أهل الفن ، الذين حرص بعضهم على اصطحاب مصورين معهم ، واتخاذ أوضاع خاصة لمواجهة الكاميرا . . المهم أن يكونوا فى الصورة . .

وزارة البحث العلمى ، وهى وزارة باهتة الحضور ، ويكفى أن من يتولى مسئوليتها رجل فاضل لا علاقة له بالبحث العلمى ، إنما مجال عمله الضرائب والاقتصاد ، لم تكن أخبار الوزارة بارزة ، أو تحتل موقعًا متميزًا ، ثم وقعت الزلزلة ، فأصبحت فى مقدمة الصورة ، من الطبيعى أن تسمع أصوات خبراء الزلازل ، يقال أن أهمهم طفش إلى السعودية ، ولكن بعد ظهور علماء مرصد حلوان ، وخاصة الدكتور صبحى فريحة الذى يمكن القول أنه تكلم بشكل واضح ، بعد ظهوره فى التليفزيون مع عدد من زملائه ، هنا يشعر المستوى الأعلى بالقلق ، لأن واحدًا من اثنين بدءا الظهور فى الصورة ، عندئذ يتقدم مصدرًا أوامره ألا يتقدم أحد إلى قلب الصورة عداه ، من هنا نقرأ سطرين أو ثلاثة يوميًا يحرص الوزير على إعلانها بنفسه ، من ناحية الشكل الوضع صحيح ، فهو المختص ، لكن هناك مدير المرصد ، وخبراء الزلازل . . عندما أجرى أحمد سمير حوارًا بالأقمار الصناعية مع العلماء الأمريكان ، ظهر اثنان منهما ولم يظهر وزير البحث العلمى الأمريكى ، (كان إلى جوار أحمد سمير أستاذ جامعى بكلية العلوم وطلب منه أن يعلق على حديث العالمين الأمريكيين ، فتلى

ديباجة طويلة ، قال بعدها أن الناس لو عرفت فضل الزلزلة لطلبوا كل يوم واحدة ! ولم يقل شيئًا مفيدًا مع أنه كان فى قلب الصورة) .

ننتقل إلى المعارضة لنرى كيف تصرفت ، بحيث تصبح فى قلب الصورة ؟

فى نقابة الأطباء التى يسيطر عليها التيار الإسلامى السياسى لجنة تسمى « لجنة الإغاثة الإنسانية » ، ولى ملاحظات عديدة على عمل هذه اللجنة التى تعلن عن نفسها بسخاء شديد ، ولكننى أقصر على الزلزلة الأخيرة ، لقد لاحظت سلسلة من الإعلانات المكثفة ، ليس فى الصحف المصرية فقط ، ولكن فى صحف الخليج العربية ، حملة إعلانية تتجاوز تكاليفها الملايين ، تطالب الناس بالتبرع ، ويصحب الإعلانات صور لا ندرى أين التقطت ؟ ، وإذا كان هؤلاء القوم دعاة حقًا ويعملون لوجه الله ، وهؤلاء المساكين المشردين ، ألم يكن الأجدى أن يتموا عملهم الخيرى هذا فى صمت وهم لا يفتقدون إلى من يمولهم سواء أعلنوا أو لم يعلنوا ، لماذا ينفقون الملايين للإعلان ، ألم يكن الأجدى والأصلح توجيه تكاليف هذه الحملة الإعلانية المكثفة مباشرة إلى المضارين ، المساكين مباشرة ، بدلاً من دفعها تكاليف إعلانات تحث الناس على التبرع .

ولأنهم رجال سياسة وليسوا دعاة حقيقيين فإنهم يدفعون من التبرعات التى تصلهم لكى يعلنوا عن أنفسهم ، ويستدعون

الصحفيين الأجانب لتصوير عدد محدود جدًا من الخيام نزلوا بها إلى الضحايا ، كل خيمة مكتوب عليها « الإسلام هو الحل » . . . هل هذا وقته ؟ ، ولكنهم أيضًا يريدون أن يصبحوا فى الصورة ، والحق أنهم نجحوا رغم المحدودية الشديدة لما قدموه ، بسبب تحركهم المنظم الذكى لكى يصبحوا فى بؤرة الصورة . .

وللأسف ، لم يكن تصرف الحكومة تجاههم ذكيًا ، لقد أدى التعتيم الذى فرض على ما قدموه إلى الضحايا للمبالغة فى حجمه ، أحد كبار المسئولين فى الدولة أخبرنى أنهم قدموا إلى المناطق المنكوبة أربعين خيمة فقط ، فى المواجهة لم تظهر فى الصورة تمامًا آلاف الخيم التى ذهبت فى ساعات بواسطة قواتنا المسلحة ، وحجم المساعدات الذى قدمته تلك الجهة التى تعد ركنًا أساسيًا لأمن هذا الوطن ولاستقراره ولدرء أخطار شتى تتهدده .

القوات المسلحة . . هى الجهة الوحيدة التى كانت على مستوى المسئولية ، قدمت فى صمت ، بدون إعلان أو ضجيج ، أما الحزب الوطنى وأحزاب المعارضة العلنية وقوى المعارضة غير العلنية ، الإسلامية وغيرها ، فكلها لم تكن على مستوى مواجهة الكارثة ، لأن الجميع يهمهم أن يمثلوا فى الصورة . .

بعيداً عن الصورة..

تتوالى الأيام ، وتهن التوابع أو تتوقف تمامًا ، لكن ما يجب ألا يغيب عنا ، ضرورة محاربة هذا الفساد الذى استشرى ، خاصة

فى قطاع البناء ، ما ظهر منه عرّى البيروقراطية المصرية المتهالكة تمامًا ، هذه البيروقراطية التى كان من المفروض أن تنظم وتحمى الناس ، فإذا بها تكاد تودى بحياتهم .

لقد اقترح الأستاذ جلال دويدار تعيين وزير مسئول عن مواجهة آثار الزلزال ، وهذا صحيح تمامًا ، فالمواجهة يجب أن تتم بأكبر قدر من المرونة ، وبعيدًا عن تعقيدات وأساليب البيروقراطية ، لنتذكر أن الشتاء على الأبواب ، وهناك الآلاف ما زالوا فى الخيام ، سيدات وآنسات وأطفال وعجائز مسنين فقدوا إطار حياتهم ، البيت ، وأصبحوا نهبًا لظروف عاتية . .

ما أدمى قلبى خلال الأيام التى أعقبت الزلزلة ، رؤية النساء فى الأحياء الشعبية وقد جمعن أغراضهن البسيطة ، كل ما خرجن به من الدنيا بجوارهن ، وهن فى انتظار المأوى ، دائمًا أقول ، إذا تعرض إنسان لكارثة فليحاول المرء أن يتخيل نفسه مكانه ، وما من أحد بعيد أو نائى عن تلك الظروف فى زمن الزلزلة .

ما أدمانى ، وأوجع قلبى أيضًا . . ما جرى لآثارنا الإسلامية ، هذه الآثار التى عايشتها بناءً ، بناءً ، ونقشًا نقشًا ، لا أستطيع الآن رؤية قمة مئذنة السلطان الغورى فى مدخل الأزهر وقد سقط جوسقيها .

كيف أمر غير مبال أمام قبة قلاوون التى أغلقت أمام الزائرين ، وقد كنت أقصدها كل أسبوع مرة على الأقل . .

السخرية..

عندما تغيب النكتة وتختفى أشعر بقلق حقيقى ، فالشعب المصرى من سماته الأساسية السخرية التى تساعده على إجتياز مصاعب الحياة التى يمر بها ، والنكتة أحد أسلحته فى مواجهة الظلم والقسوة والظروف الجهمة ، واختفائها يعنى أن حالة من الكآبة تهيمن وهذا مقلق جدًا . . والغريب أنه بعد الكوارث الكبرى سواء كانت طبيعية أو سياسية ينشط هذا الحس الساخر ، وما زلت أذكر طوفان النكت الذى ظهر بعد يونيو ١٩٦٧ . .

بعد أيام من الزلزال ، قابلنى صديق ، همس فى أذنى :

- ما دريتش . . مش اعتقلوا اللى عمل الزلزال . .

سكت لحظة ثم قال . .

- واعترف كمان . .

ضحكت ، وفى الأيام التالية سمعت عددًا آخرًا من النكت ، كلها تدور حول الزلزال ، وأدركت أن أحد العناصر المكونة لشخصيتنا المصرية بدأ يعمل فى مواجهة الكارثة .

فى الخان...

. . فى خان الخليلى ، أصدقاء أعزاء عرفتهم عن قرب ، وعشت معهم أيامًا حوالك ، يونيو عام ١٩٦٧ وما تلاه من كساد جسيم حط على السوق العريق ، رأيت بعينى كيف تهدر طاقات فنية دافعة بسبب الكساد ، خاصة بعد إغلاق قناة السويس ، كيف يتحول نحات تماثيل ماهر إلى بيع الفول والطعمية ، كيف يخرج نقاش نحاس موهوب إلى الشارع ويمد يده إلى من لا يعرف بعد نفاد القوت .

عرفت فى الخان شخصيات أتمنى أن أطيل الحديث عنها يومًا ، تمثل فى مجموعها صناع الفنون ، بناة حضارة ، ورثة تقاليد عريقة توارثوها عبر طبقات من الأزمنة المتوالية ، وأسرار حرف كانت مغلقة على أصحابها .

ما زلت أذكر حرص عم مصطفى نقاش النحاس الذى تجاوز التسعين الآن على زيارة المساجد والمتحف الإسلامى ، والقبطى ، يتأمل النقوش لساعات طويلة ، يحفظها فى ذاكرته ، ويعود ليبدأ عمله أو بتعبيره هو «أخلّق . . » من « خلق » أى « إبداع » ، الآن عم مصطفى كف بصره ، ولكن بصيرته الداخلية ما تزال مضيئة ، إذ يجلس لينحنى على صينية لينقشها ، أو دورق نحاسى أو فضى ، تتدفق الزخارف من بين يديه ، من ذاكرته العامرة ، من ذاكرة بنيت عبر آلاف السنين ، عبر ملايين الجزيئات الصغيرة المتراكمة عبر تفاصيل لا حصر لها ، استقاها واستوعبها من سقوف المساجد ، وجدرانها ، ومقصورات الأضرحة وحشوات

الرخام ، وصناديق الخشب المطعمة بالصدف والعاج ، من أخشاب الخرط ، ذاكرته عامرة بالفن ، بموروث أجداده العظام ، هذا مثال حى ، على ما يردده البعض بدون أن يعوا المغزى أو المضمون عن حضارتنا التى تمتد آلاف السنوات ، وهذا ما يجعل من مصر حالة خاصة ، وخاصة جدًا ، وهذه الحضارة هى ما يستهدفه الإرهاب الأسود الغشيم الذى يبسط ظله الآن على أرض الكنانة . .

* * *

أعود إلى أزقة خان الخليلى ، إلى ما تبقى من البناء الذى شيده السلطان الغورى ، القائم حتى الآن فى سكة البادستان ، إلى الربوع الضخمة التى تشكل الخان الآن ، وأقربها إلى قلبى ربع السلحدار الذى شيد فى العصر العثمانى ، أمضيت فيه عامين من حياتى ، وما زلت أعتبره مجمعًا للحرف والفنون .

فيه تعرفت إلى صديقين عزيزين ، صالح رضا فنان الصدف ، وأحد القدامى فى هذا الفن ، أعرف منتجاته ، حتى لأميزها فى البازارات الكبرى ، كما كنت أميز صناديق وأطباق الحاج سعيد -رحمه الله - ، وغيره من الأصلاء .

أما الصديق الآخر فهو الفنان فتحى ، المتخصص فى الفضة ، ترجع صلتى بهما إلى حوالى الثلاثين عامًا ، وما زلت أعتبر ورشة صالح ، ومعرض فتحى فى قلب الخان من أركانى الآمنة ، التى أمضى فيها وقتًا هادئًا ، عامرًا بالفن والصداقة ، والبعيد عن سخافات المثقفين !

فتحى يقترب الآن من الخمسين مثلى ، ما زال يعمل بيديه ، وزيارته للمتحف المصرى ، ولمجموعة توت عنخ آمون بالذات لا تنقطع ، أما ذروة نشاطه الإبداعى فتكون فى الخريف ، فى هذه الفترة يخلو إلى نفسه كثيرًا ، وفى الشتاء يعرض فى واجهة متجره الخواتم والقلادات الجديدة ، قطع رقيقة ، وجميلة من الفن الأصيل .

دائمًا هناك سؤال تقليدى منى . . « ماذا عن حال السوق ؟ »

طبعًا أكون سعيدًا عندما أشعر أن أصدقاء العمر راضين ، السوق هنا حساس جدًا ، أى هزة سياسية فى أقصى أركان الأرض يكون لها تأثير محسوس ، هذه الأزقة والحوارى ، هذه الورش الصغيرة ، المتاجر القديمة العامرة بالأسرار متصلة أوثق الاتصال بما يجرى فى العالم ، سوق حساس جدًا ، خاصة بالنسبة للتطورات السياسية ، وقد رأيت عن قرب الفترات الحرجة ، وأخص منهما مرحلتين ، الأولى ما تلى هزيمة يونيو ، والثانية ما تلى بداية أزمة الخليج فى أغسطس ١٩٩٠ ، غير أن فترات الإزدهار النسبى قصيرة فى عمر السوق ، أكثرها توهجًا الشهور الأولى من هذا العام .

سألت أحد أصدقائى فى الخان عن الأحوال منذ حوالى خمسة شهور ، قال راضيًا : « وأما بنعمة ربك فحدث . . »

يعنى ازدهار الخان ، صعود الفنون التقليدية المرتبطة به ، إن الحرفى المصرى ، النقاش ، الصدفجى ، فنان الفضة أو الجلود ، هذا الحرفى الذى يعيش يومًا بيوم ، رأسماله فنه وموهبته ، لا أحد

يرعاه من الدولة ، ولا من أجهزتها ولا تأمين صحى ، هذا الحرفى ، إذا ما شعر بالاستقرار فإن الذهب يتدفق من بين أصابعه ، كما أن قدرته على التجويد تتقدم .

منذ أسبوع قال لى فتحى وعلامات القلق على ملامحه : « الأحوال بدأت تتعثر . . » .

مرة أخرى ظهر القلق فى السوق ، تسرب إلى الأصابع الماهرة ، إلى الورش التى تنتج فنًا وحضارة ، السبب فى هذه المرة قادم من الداخل ، بعد تصاعد العمليات الإرهابية لجماعات التأسلم السياسى (كما أطلق عليها بحق الدكتور رفعت السعيد) هذه الجماعات المتأسلمة ، اتخذت من أقباط مصر رهينة ، ومن السياح الأجانب رهينة أخرى .

مرة يتجه العنف إلى الأقباط .

مرة يتجه الرصاص إلى السياح الأجانب فى عمل غير مسبوق فى تاريخنا ، وغريب تمامًا على سلوك المصريين ، أما الغطاء النظرى والأيديولچى فتقدمه جريدة الشعب ، وحزب العمل ، الذى تحركه الآن جماعة الإخوان المسلمين ، تنسيق محكم ، وتوزيع ماهر تمامًا للأدوار ، ومعارضة تتجاوز المعارضة إلى التخطيط الإنقلابى الشامل لتغيير المجتمع بالعنف ، بالقوة . . ، المدبر الخفى ، له أصابع هنا ، وفى الخارج ، إتخاذ السياح رهينة له سابقة .

« لا . . هناك فرق ، إذا انفجرت قنبلة فى لندن مثلاً فإنها تستهدف المواطن والأجنبى . . لكن هنا السياح الأجانب هدف ، أى أنهم يصوبون الرصاص إلى الأجانب المسيحيين فقط . . هذا فرق كبير . . » .

حاولت ضبط أعصابى وأنا أرد متحدثًا عن سماحة الإسلام ، واحترامه للأديان الأخرى ، وعن سيدنا عمر الذى رفض أن يصلى فى الكنيسة حتى لا تتحول إلى مسجد ، وعن صلاح الدين الذى أرسل طبيبه لعلاج خصمه ريتشارد قلب الأسد ، وعن علاقات التآخى بين المسلمين والأقباط فى مصر .

قالت السيدة العجوز مرة أخرى مقاطعة . .

« ولكن هؤلاء يقولون أن الإسلام انتشر بحد السيف وليس بالدعوة . . وأنهم يعيدون السيرة الأولى . . » .

ومرة أخرى بدأت أتحدث عن الدعوة بالحسنى ، وعن الجدال الحسن ، وعن سماحة الإسلام فى مواجهة الديانات الأخرى ، حتى الكفار . .

الحق أننى لم أكن فى مواجهتها أقول ما لا يستقر فى وجدانى ، لم أكن أقوم بدور دعائى ، أو إعلامى ، ولكننى كنت أدافع عن دينى ، وعن إسلامى ، وعن قناعات فطرت عليها ، كنت أدافع عن عظمة الإسلام وسماحته ، ليس فى مواجهتها هى الأوروبية ، التى قد يحمل وعيها تعصبًا ، إنما فى مواجهة أولئك الذين

أغلقت عقولهم وقلوبهم وراحوا يقدمون على أفعال لا تضر أوطانهم فحسب وتدفع بها إلى الدمار ، إنما تضر بدينهم نفسه الذى يوجهون رصاصاتهم باسمه ، أفضت فى الحديث ، وفى لحظة بدا تردد على وجه الألمانية العجوز ، لكنها سرعان ما قالت :

« . . وما ذنب هذه الممرضة الإنجليزية التى ادخرت من مرتبها الضئيل لتقضى أجازتها فى مصر وتشاهد آثار مصر . . ثم تجئ ليقتلها من لم يلتق بها قط ، ومن لم يعرفها قط . . ولكنه يظن أنه يرفع راية الإسلام . . » .

تطلعت إليها صامتًا ، أردت أن أضع حدًا لتلك المناقشة التى كشفت لى عن كثير ، قلت مازحًا :

« ولكن رغم الرصاص أراك فى مصر . . غير خائفة . . » .

قالت : « . . إننى أحب بلدكم ، والناس من أطيب الشعوب . . وبالنسبة لى هناك سبب خاص . . »

سكتت لحظة ثم قالت : « إن شقيقى مات هنا . . مدفون فى مقبرة لا أعرفها بالضبط . . هناك فى العلمين . . وكل سنة أجئ لأزوره . . وأضع باقة من الزهور . . » .

* * *

حوار عابر فى معرض صاحبى كشف لى عن أمور كانت تحيرنى ، ما هى تلك الأمور ؟

لا شك أن هناك إتجاهات عنصرية فى الغرب معادية للإسلام ، كارهة له ، لن أنسى أبدًا غلاف مجلة هولندية رأيتها فى فبراير ١٩٩١ ، كان الغلاف مصحفًا كبيرًا ومن بين صفحاته يخرج فتيل قنبلة يدوية مشتعل .

هذه العناصر قوية ، وفعالة ، وهناك فى المقابل قوى أخرى تؤمن بالتعايش ، وتقدر الإسلام وحضارته ، بعد الزلزلة الأخيرة . . من تقدم ليضع خطة لإصلاح الآثار الإسلامية فى الجمالية ؟

لم يجئ من حكام المسلمين الأثرياء ، ولا من أغنياء المسلمين الذين يدعمون الحركات الإرهابية ، بل جاء المشروع من فرنسا !

ومع ذلك يجب أن ننتبه إلى القوى الكارهة للإسلام ، للعرب ، فالعنصرية تتصاعد فى الغرب .

دائمًا كنت أسأل نفسى ، لماذا يحتضن الغرب قوى التطرف فى العالم الإسلامى ، ها هو الشيخ عمر عبد الرحمن يقيم فى أمريكا ويجمع التبرعات فى اجتماعات علنية ليرسلها إلى التنظيمات الإرهابية فى مصر ، ها هم قادة آخرون فى ألمانيا وسويسرا ، ها هى وسائل الإعلام الغربية تركز على قادتهم هنا وتعد الأفلام عنهم ، والإذاعة البريطانية تركز على الأربعين خيمة التى قدمتها نقابة الأطباء التى يسيطر عليها المتأسلمون هنا وكأن الدولة لم تقدم أى شىء فى المقابل ، بل إن كثير من الوفود الرسمية التى تزور مصر يسعى بعضها سرًا للإلتقاء بقادة الجماعات ، سواء العلنية أو السرية . . لماذا ؟

فى رأيى هناك سببان ، الأول انتهازى ، يتعلق بالغرب ومصالحه ، ومحاولة الاتصال بقوى . . ربما يكون لها وضع فى المستقبل !

أما السبب الأقوى والأخطر ، فهو التركيز على هذه الجماعات الإرهابية باعتبارها واجهة الإسلام ، وتصوير أعمال القتل للسياح ، على أنها من تعاليم الإسلام ، هكذا يتم تضخيم التطرف والدعاية له فى الغرب للوصول إلى هدف أخطر وأعم ، هو تشويه الإسلام نفسه وتعميق الكراهية ضد الإسلام ، حتى ينطق الإنسان العادى بمثل ما نطقت به السيدة الألمانية فى حوارها معى . .

* * *

نعم . . بدأت حركة السياحة تتأثر ، هذا محسوس فى السوق العريقة ، ربما يكون الإرهاب نجح مؤقتًا فى إحداث ضربة للسياحة ، فى خراب بيت ثمانية ملايين مصرى يعيشون من عوائدها ، ولكن أخطر ما ينجح فيه الإرهاب هو جرجرة الدولة وقوى الإستنارة والقوى الوطنية إلى أرضه ، هكذا تتراجع البديهيات .

نناقش . . السياحة حلال أم حرام ؟

الفن . . حلال أم حرام ؟

الإبداع الأدبى والفنى . . حلال أم حرام ؟

وتقع أجهزة الإعلام فى الخطأ ، مجرد السماح بالمناقشة فيه تراجع فى مواجهة الإرهاب الذى يتحرك بقواه السرية والعلنية فى واقع خلا تقريبًا من أى قوى سياسية مضادة ، عدا أجهزة الأمن التى تقف بمفردها تمامًا فى الساحة ، تؤدى واجبها ببطولة مطلقة ، بينما المجتمع المهدد كله بمنأى ، ذلك أن ثمة عوامل أخرى تقوى الإرهاب وتغذيه بشكل غير مباشر ، أهمها فى رأيى ، استشراء الفساد ، وانعدام مفهوم العدالة الاجتماعية ، وغياب الأمل ، وانغلاق الأبواب فى وجه الشباب ، وتضبيب الرؤية . .

أسباب عديدة تتضافر ، لتدفع وطننا كله إلى هاوية تفغر فاها ، أراها دانية أقرب مما نتصور ، هاوية قد تدفع بنا إلى نفق عميق ، لا يعلم إلا الله . . كيف سنخرج منه ، لكن . . لذلك حديث آخر .

زميلة صباحية كبرى

بعـد أن قـدم التليـفزيون فى أكتـوبر الماضى فيلم حكايات الغـريب المأخوذ عن قصتى القصيرة التى كتبتها عام أربعة وسبعين ، رحب به العديد من النقاد والكتاب ، وكان من بينهم الأستاذ محمد صالح ، وهو من أصحاب الأقلام الذين أحترمهم ، وأحرص على متابعتهم ، بل وأسترشد بكثير من آرائه فيما يتعلق بأمور الإذاعة والتليفزيون .

فى البداية كتب مقالين رحب فيهما بالفيلم ترحيبًا حارًا ، ثم كتب يقول إن سائق عربة الصحافة ، بطل الفيلم هو فى الأصل من المؤسسة التى يعمل بها الأستاذ محمد صالح ، وأنه ظهر فى الفيلم منتميًا إلى مؤسسة صحفية أخرى ، تصدر عنها زميلة صباحية يعمل فيها المؤلف جمال الغيطانى ، ولهذا نسبت البطولة إلى مؤسسة أخرى ، وأن العاملين بإدارة النقل فى المؤسسة التى يعمل بها الزميل محمد صالح طالبوه بإعلان الحقيقة ، وبالفعل بادر الرجل مشكورًا إلى نشر صورة السائق الشهير عبد العزيز ، وبالنسبة لى كانت المرة الأولى التى أرى فيها ملامحه ، وقد قطعت الصورة التى نشرت فى « زميلة صباحية كبرى » يكتب فيها الأستاذ محمد صالح مقالاته الممتازة ، وضعتها فى ملف أحتفظ فيه بصور الشهداء الذين عرفتهم شخصيًا ، والذين لم أعرفهم ، وكان مؤثرًا بالنسبة لى أن أرى ملامح البطل الذى حدثنى عنه أبطال مدينة السويس وزرت قبره ، وقرأت عليه الفاتحة مرارًا ولم أكن أعلم عنه شيئًا إلا اسمه وما قام به ، وما حكاه لى الفدائى البطل أحمد العطيفى أحد أبناء منظمة سيناء العربية ، وأحد أفراد المجموعة التى حسم أداؤها القتالى مصير

معركة السويس واستشهد منهم إبراهيم سليمان وأشرف عبد الدايم ومحمود عواد فى معركة الأربعين ، ثم لحق بهم السائق عبد العزيز ، ثم نشرت مجلة شهرية رائجة تحقيقًا عن الشهيد وعن أسرته ، والمجلة تصدر أيضًا عن المؤسسة الكبرى ، التى تصدر عنها أيضًا الزميلة الصباحية الكبرى التى يكتب فيها الأستاذ محمد صالح ، وسوف أكون أكثر وضوحًا منه عندما أشار إلى عملى فى زميلة صباحية ، وإلى المؤسسة الأخرى (يقصد أخبار اليوم) ، سوف أصرح أكثر ، رغم خشيتى من اعتبار هذه السطور إعلانًا عن المؤسسة التى يعمل بها الأستاذ محمد صالح والتى أنتمى إليها الشهيد عبد العزيز ، فأقول أن أول حرف فى اسمها « ألف » وآخر حرف « ميم » ، وأن اسمها مأخوذ من أثر عظيم يعد من عجائب الدنيا السبع ، ويأتى إليه القوم من كافة أنحاء المعمورة لينظروا إليه وينبهروا . .

يكفى ذلك القدر من التصريح ، أو التلميح الشديد ، طبعًا انتماء الشهيد عبد العزيز إلى الزميلة الصباحية الأخرى صحيح تمامًا ، وعندما أصغيت إلى تفاصيل الواقعة منذ تسع عشرة سنة ، لم أتوقف طويلاً عند المؤسسة التى ينتمى إليها عبد العزيز فعلاً ، ولكننى رأيت فى التفاصيل ذلك الجوهر والمعنى الذى أبرزه الفيلم بحق ، قدرة الإنسان المصرى ، البسيط ، على العطاء بغير حدود وتجاوز ذلك الخط الوهمى الفاصل بين أن يكون الإنسان عاديًا ، بسيطًا ، وبطلاً حقيقيًا ، تنتقل سيرته من جيل إلى آخر .

هنا أقول - بعد أن تأكدت - للأستاذ محمد صالح السبب الذى جعل البطل فى الفيلم يظهر منتميًا إلى مؤسسة أخرى تصدر عنها

زميلة صباحية يعمل فيها المؤلف (الأخبار طبعًا) ، السبب يا سيدى هو المؤسسة الكبيرة التى تصدر عنها زميلة صباحية كبرى أول حرف فى اسمها ألف وآخر حرف اسمه ميم .

عندما بدأت الفنانة إنعام محمد على الإعداد لتصوير الفيلم ذهبت إلى المؤسسة الكبرى التى كان يعمل بها عبد العزيز ، وكانت قد علمت منى ومن أهالى السويس حقيقة انتمائه ، وطلبت تصريحًا لتصوير لقطة يقوم خلالها الفنان محمود الجندى بقيادة عربة الصحافة التى تحمل اسم المؤسسة الكبرى ، وعرضت دفع المبلغ المتفق عليه فى مثل هذه الحالات ، ولكن المسئولين الذين التقت بهم لم يقدموا إليها أى مساعدة ، ورفضوا برغم أنها شرحت لهم طبيعة الفيلم ، وأكدت لهم أن البطل كان يعمل فى المؤسسة الكبرى . .

رفضوا..

عندئذ اتصلت وطلبت اتخاذ الإجراءات اللازمة لتصوير اللقطة فى المؤسسة التى أعمل بها والتى أشار إليها الأستاذ محمد صالح باعتبارها « أخرى » . .

وقدم رجال أخبار اليوم ، من المسئولين عن الأمن إلى إدارة النقل ، إلى العاملين فى التوزيع كل مساعدة ممكنة . . وهكذا ظهر الفنان محمود الجندى وهو يقود عربة توزيع الأخبار ، وهذه الحقائق لم يكتبها الزميل الذى اتصل بى ويعمل فى مجلة شهرية تصدر عن المؤسسة الأخرى بالنسبة للمؤسسة التى أعمل بها ،

وهكذا . . أرجو أن أكون قد أوضحت للأستاذ محمد صالح الحقيقة التى أثار تساؤلاً حولها بقلمه اللامع على صفحات الزميلة الصباحية الكبرى ، والتى أرجو ألا أكون قد لمحت إليها أكثر مما يجب حتى لا يعتبر ردى هذا ترويجًا على صفحات الزميلة الصباحية الأخرى بالنسبة للأستاذ صالح ، للزميلة الصباحية الكبرى بالنسبة لى . .

فى الحجاب..

. . ملفتة للنظر تلك الضجة التي تصاحب إعتزال بعض الفنانات لنشاطهن ، ولن أخوض فى الظروف التى تؤدى إلى ذلك ، فلا شك أنها تختلف من فنانة إلى أخرى ، بعضها شخصى ، وبعضها نتيجة بلوغ مرحلة من العمر يقل فيها الإقبال ، وبعضها عن اقتناع . ولن أتحدث أيضًا عما يتردد فى الوسط الفنى عن جهات خارجية تدفع أموالاً طائلة للبعض حتى يتحجبن ويعلن إعتزال الفن ، وتشير أصابع البعض بوضوح إلى مؤسسة تتخذ من بلد عربى شقيق مقرًا لها ، لديها فائض هائل من الأموال ، تؤكد تقارير عديدة متوفرة عند من يعرفون خلفيات الأمور والحقائق والظواهر أن جزءاً لا بأس به من تلك الأموال يصب فى تمويل الإرهاب ، هذه المنظمة تسمى منظمة العالم الإسلامى .

لن أتوقف عند هذا ، فتلك أمور لها أهلها ، والمختصين بها ، لكننى أمعن النظر فى تلك الضجة المصاحبة لتحجب فنانة ما ، والتى تستجيب لها بعض وسائل إعلامنا بشكل ساذج عندما تنشر هذه الأخبار باعتبارها توبة ، باعتبارها عودة إلى الطريق

السليم ، الصحيح ، القويم ، وكأن ممارسة الفن صنو للدعارة ، وللكفر ، والإباحية .

هذا هو بالضبط الهدف الذى تحركه أيدى خفية فى الداخل أو الخارج ، أيدى تحركها عقول تستهدف الثقافة المصرية ، وبالتالى الدور الثقافى المصرى الذى هو جوهر الوجود المصرى منذ القدم وقوته .

نحن لسنا دولة عظمى عسكريًا ، ولا نفطيًا ، ولكننا دولة عظمى بميراثنا الثقافى ودورنا فى المنطقة الذى هو أصل كل الأدوار الأخرى ، ميراثنا الثقافى بعناصره المختلفة ، الفرعونية والقبطية والإسلامية .

هذا الدور نمارسه من خلال المضمون الروحى لمصر ، والذى ينعكس فى الفن ، فى الأدب ، فى الفكر .

المطلوب خلال العقد الأخير إضعاف مصر ، تحجيمها ، سواء بإثارة اضطرابات داخلية وهذا ما يقوم به الإرهاب تمامًا ، أو ضرب دورها الثقافى وإضعافه ، والقوى التى تقوم بذلك واحدة ، قوى لم تنس بعد المراحل التى تصعد فيها مصر وتصبح قوة مؤثرة فى المنطقة .

إذن . . شيئًا فشيئًا تتردد هذه المعانى ، التوبة عن الفن ، العودة إلى الطريق الصحيح بإرتداء الحجاب ، ويومًا بعد يوم يترسخ هذا المعنى حتى نصل إلى لحظة يصبح فيه النشاط الفنى سواء كان الاشتغال بالسينما أو المسرح أو الموسيقى مرادفًا للكفر ، وللدعارة ، ولست بحاجة إلى الإشارة أو التنبيه إلى ما فى هذه المفاهيم من مغالطات فادحة .

هكذا تصبح السينما حرام .

والمسرح حرام .

والنحت والتصوير حرام .

والإبداع الأدبى أيضًا حرام إلا إذا تم وفقًا لشروط يضعها صبية جهلة ، أو متعصبون قتلة ، وهكذا يسود الظلام وتعم العتمة أعرق الأوطان حضارة وثقافة ، تمامًا كما تسود بعض الأقطار الأخرى القريبة .

إن زرع هذه المفاهيم المعكوسة يتم بتدرج وخبث شديدين ، أفهم أن تقاعد فنانة ما أو تحجبها أمر شخصى تمامًا ، لماذا يصور وكأنه عودة إلى الإيمان ، وهل كان الفن خروجًا عنه ؟ ، إن الفن فى أرقى صوره تعبير عن علاقة الإنسان بالكون وخالق الكون ، فلماذا التركيز على التوبة ، خاصة على أيدى بعض مشاهير المشايخ . . إلخ .

هنا يكمن ذلك الهدف الأبعد ، ضرب الثقافة المصرية . . ولكن مصر كما نقول ولادة ، وفى كل يوم تدفع بالمزيد من المواهب الأصيلة ، فى السينما ، فى الأدب ، فى النحت ، فى الفن التشكيلى ، ومرحبًا بتحجب وتقاعد بعض الفنانات أيًا كانت الدوافع إذا كان الطريق يفتح لمواهب أكبر ، وأروع ، وأنصح فقط برؤية الفيلم المصرى الأخير « ليه يا بنفسج » للمخرج الشاب رضوان الكاشف بتكنيكه الفنى وأبطاله ، لكم شعرت بالسعادة والإطمئنان ، إن أى عمل فنى جيد يظهر هو سلاح مضاد للإرهاب ولتلك القوى المتخلفة التى تستهدف الثقافة المصرية ، وجوهر الوجود المصرى ، سواء بالتوسل بالدين ، أو فرض الحجاب أو دفع الأموال .

« . . والناس حتقول علينا إيه ؟ »

كم مرة تتردد هذه العبارة يوميًا ؟

لا أبالغ إذا قلت أن كل منا إن لم ينطقها بلسانه فهو يرددها بينه وبين نفسه ، سواء عند إقدامه على جليل الأعمال أو صغيرها ، على ارتداء ملابسه أو الشروع فى عمل جليل .

يقول المثل الشعبى : كل اللى يعجبك والبس اللى يعجب الناس . وهذا جميل ، أن يحقق الإنسان حريته عندما يكون بمفرده ولكن عند خروجه إلى المجتمع ، لمواجهة الآخرين فإنه يجب أن يلتزم بما استقر عليه العرف فى هذا المجتمع .

ولكن منطق « الناس حتقول علينا إيه ؟ » يمتد أحيانًا ليصبح متغلغلاً فى كافة تفاصيل الحياة سواء الإنسانية ، أو الاجتماعية ، أو الاقتصادية ، وحتى السياسية ، عندما تبذل دول مختلفة جهودًا كبيرة لتحسين صورة أوضاعها أو لتشويه صورة دولة أخرى ، ألا يتضمن ذلك مبدأ أو مضمون هذه الجملة السارية فى حياتنا .

أحيانًا يسعى طرف إلى سلوك معين يستهدف خصمه حتى يقول الناس عنه أنه مختل ، أو مهتز ، أو ناقص تربية ، المهم .. ما ستقوله الناس فى النهاية .

والناس هنا فى لغتنا وتعبيراتنا الشعبية كلمة شاملة جامعة ، رغم ضمورها ومحدودية عدد حروفها .

الناس يمكن أن يكونوا الجيران فى الشقة المجاورة ، فإذا ارتفع صوت رب الأسرة خلال النقاش تشير الزوجة إلى حيث يقطن الجيران ، تقول محاولة تهدئته : « الناس حتقول علينا إيه ؟ »

وهنا تشير الجملة إلى بشر محددين معروفين بالاسم تقريبًا ، إنهم جيران السكن ، أو جيران الحارة ، ولكن أحيانًا لا يمكن تحديد المقصود بالناس . .

فى الطرق المزدحمة ، وأثناء ركوب بعض وسائل المواصلات العامة أرى رجلاً أو امرأة ، يقود كل منهما عربة من أحدث طراز ، ويمسك عجلة القيادة بيد ، وسماعة تليفون السيارة بيد . . يعنى حبكت ؟!

ومع مضي الوقت تبين لى أن البعض يضع جهاز الهاتف فقط فى السيارة ، أى أنه خط وهمى غير متصل بالدائرة اللاسلكية ، والأمر مجرد عدة ، المهم . . أن تراه الناس وهو يتكلم فى الهاتف الخاص بالسيارة . . يا ترى حيقولوا عليه إيه ؟ وحتى فى حالة الهاتف الحقيقى ، يجرى البعض مكالمات - أى كلام - لمجرد أن يرفع سماعة الهاتف ويراها الناس . . فيقولوا إيه ؟ مع أن الناس المكدسين فى عربات المواصلات العامة ، أو المتواجدين فى الطريق أو على أرصفة المقاهى ، لا يعرفون السائق ، أو صاحب السيارة ذات الهاتف ، مجرد ملامح ، لكن جزء من متعته هو أن يراه الناس ، حتى لو كانوا يجهلونه ، وهذه حالة تتداخل مع حالة أخرى اسمها « المنظرة » ومنها الفعل «يتمنظر» ، ولى معه وقفة أخرى .

حدثنى أديب موهوب ، فقال أنه لا ينزل إلى المنتديات الأدبية وأماكن تجمعات الأدباء إلا عند نشره لقصة فى مجلة أو ظهور كتاب جديد ، يتظاهر أنه جاء بالصدفة ، أو ليمضى وقتًا أو ليقابل بعض الأصحاب ، وهو فى الحقيقة جاء ليسمع « الناس حتقول إيه » عن قصته الجديدة أو قصيدته .

ترتدى الأنثى أجمل ما لديها ، وتقف طويلاً أمام المرآة ، وتنظر إلى نفسها بالمواجهة ، والجنب ، وتعدل شعرها ، أو تسدله . . كل هذا قبل خروجها إلى الطريق ، حرصًا على ما سيقوله الناس عند رؤيتها أو عند مرورها أمام مقهى ، أو دخولها نادى ، أو مكتب تعمل به . .

كثيرًا ما سمعت امرأة تصيح نادبة حظها ، وإذ تبدأ الولولة تشد شعرها ، تصيح : « الناس حتقول عليا إيه ؟ »

على مستوى آخر نجد الدول الصغيرة والكبيرة تحرص على المظاهر التى تؤدى إلى بث الإحساس بهيبة الدولة ، وقوتها .

يقف رئيس فرنسا أو ألمانيا أو غيرهما فى الأعياد الوطنية يستعرض بعض الوحدات العسكرية ، منتهى الانضباط ، منتهى الحزم ، طبعًا « الناس حتقول إيه » موضوع فى الاعتبار ، لكن فى الدول القديمة ، الأصيلة ، أو المعاصرة ، يتطابق إلى حد كبير ما يراه الناس ، وما يقولونه ، وما هو عليه الأمر بالفعل ، ولكن فى العالم الثالث يتحكم منطق « الناس حتقول إيه » فى كل شىء ويصبح هدفًا فى حد ذاته ، وكلما كان الناس اللى حتقول إيه أجانب كانت كلمتهم مسموعة أكثر . .

أحيانًا يرى بعض أبناء الوطن الخطر ، ينبهون إليه ، يشيرون بمقالات وخطب وأحاديث ، وإذا كانوا منضمين إلى أحزاب أو نقابات يصدرون البيانات ، ولكن الحكومة لا تبالى ، أذن من طين ومن عجين ، لأن الناس اللى حتقول إيه هنا من أبناء البلد ، ولكن إذا قيل نفس المضمون من منابر أجنبية خارجية ، فسرعان ما تتحرك الأجهزة ، وتنتفض المؤسسات ، ويبدأ الحسم ، لأن الناس التى قالت فى هذه المرة أجانب ، وإذا كنا نتحمل الناس التى تقول أو لا نهتم بهم لأنهم فى النهاية منا وعلينا ، فإن الأجانب لكلامهم وقع آخر .

كم مرة أشارت الدراسات إلى خطر الإرهاب الكامن فى مناطق الإسكان العشوائى ، فى عين شمس ، فى إمبابة ، فى عزبة اللواء ، فى منشية ناصر ، كم تحقيقًا نشر عن أوكار الإرهاب ، وعن الذين نصبوا أنفسهم قضاة وأمراء وهم إلى البلطجة أقرب ، ولكن ما من صدى حاسم . .

ثم حدث أن ذهب بعض الصحفيين الأجانب إلى هذه المناطق ، وبدأوا يلتقون بزعماء الإرهاب ، ويبدو أن مجرد ظهور صحفى أجنبى وفى يده جهاز تسجيل يضع الطرف الآخر فى حالة اسميها « وضع التصريح » ، وعندئذ يتبدل الوضع سواء كان المتحدث إرهابيًا أو معارضًا ، ويقول ما يشاء ، ويصرح « الله مش جم لغاية عندنا ؟ » وهذا يعنى أنهم أقوياء ، والناس بتقول عليهم فى الخارج . .

ما أرجوه وأتمناه ، أن نصل إلى يوم يتم فيه النظر إلى ما يكتب فى صحفنا بنفس القدر الذى يتم فيه النظر إلى ما يقوله الناس الأجانب عنا .

مرة أخرى أفكر فى مفهوم الناس ، من ناحية اللغة والمجتمع والسياسة ، وطوال تفكيرى هذا ومحاولة التقاط هذا الموضوع وأطرافه أفكر طبعًا : يا ترى الناس حتقول إيه ؟

الثلاثاء..

رأيت الأستاذ محمد مأمون الهضيبى خارجًا من مكتب الأستاذ جلال دويدار ، جاء فى نفس اليوم الذى علق فيه الأستاذ جلال على تصريحاته إلى مجلة الإكسبريس الفرنسية والتى نشرت تحت عنوان « الله ضد السياحة » ، قال أن تحريفًا وقع وأن هناك عدم دقة فى الترجمة ، كان مضمون حديثه نفى لما ذكرته الإكسبريس .

يوم الجمعة الماضى أشار الأستاذ جلال إلى نفى الهضيبى الشفوى فى أثناء زيارته للأخبار عصر الثلاثاء ، ولكن . . ما لم يشر إليه هو ما قاله للأستاذ الهضيبى : « يمكنك أن تكتب توضيحًا وأنشره فى الصفحة الأولى » .

أجاب الأستاذ الهضيبى ، أنه سوف يكتب ردًا يوضح فيه الموقف ، ويرجو إمهاله إلى اليوم التالى لأنه مرهق ، وسوف يرسل الرد المكتوب . .

وحتى الآن لم يرسله ، وبالتالى لم ينشر ، هكذا تمارس الإزدواجية ، كلام جميل فى المكاتب المغلقة ، وكلام آخر للصحف الأجنبية ، ومواقف مختلفة عند الإعلان عن الآراء والأفكار . . بماذا نسمى ذلك ؟

الأربعاء..

قال اللواء محمد عبد الحليم موسى أمام مجلس الشورى فى حديثه عن الإرهاب أن الشواهد تنذر بالخطر الداهم والإنتظار لحظة

واحدة نوع من الغفلة ومن هنا تحركت أجهزة الأمن حركة واسعة واستطاعت بجهود فائقة وتضحيات غالية أن تصل إلى أكثر من ٩٠٪ من مرتكبى حوادث العنف ، ثم قال إنه يتحدث عن الظواهر والأعراض وليس المسببات والأسباب ، ومن هنا يجب الإعتراف أن ما تحققه قدرات الأمن هى مواجهة الظاهرة على السطح بينما تبقى أسبابها فى الأعماق قادرة على معاودة الظهور ومواصلة النشاط . .

هذا ما قاله وزير الداخلية ، والحق أن قلبى مع أجهزة الأمن التى تتحمل الآن طاقات هائلة ونتائج أوضاع هى غير مسئولة عنها ، أوضاع نتجت عن التسيب والإهمال ، وقصور الإدارة ، وخلو الساحة من أى قوة سياسية مؤثرة وفعالة فى مواجهة قوى الإرهاب المنظمة جيدًا ، الممولة جيدًا ، والتى تستثمر أوضاع البطالة وصعوبة الأحوال الاقتصادية ، وتستثمر صبية تقع أعمارهم بين الرابعة عشر والسابعة عشر ، جيل كامل ولد فى ظروف صعبة السبل أمامه مسدودة ، ومعظم أفراده مجهولين لأجهزة الأمن ، غير معروفين ، هذا الجيل ضائع الآن ، ويجب التفكير فى أوضاعه من خلال خطط تنمية شاملة وحلول عملية جادة . .

نعم . . إن المعالجة الأمنية ضرورية على المدى المباشر للإرهاب ، ولكن هناك ظروف أخرى اقتصادية واجتماعية تقع فى نطاق مسئولية أجهزة أخرى فى الدولة ، وفى المجتمع ، ومن هنا تأتى ضرورة التحرك الشامل وفقًا لرؤية عامة تستهدف كافة عوامل القصور التى تؤدى إلى تفريغ الإرهاب .

فى الأسبوع الماضى علمت أن مسئولاً أمنيًا كبيرًا قال أن قوات الأمن قامت بتطهير مناطق بأكملها من الإرهاب ، أى أنه من وجهة نظر الأمن أصبحت نظيفة تمامًا ، ولكن لم تتقدم أجهزة الدولة الأخرى للقيام بواجباتها فى هذه المناطق .

هذا كلام خطير ، فالدولة المركزية القوية يجب أن تكون قوية على كافة الجبهات ، وعندما يتآكل أحد هذه الجوانب فسرعان ما يتقدم الإرهاب لينفذ منه ويحاول التمكن .. ولهذا حديث يطول .

الكلام والعقل..

.. فى ممارسة السياسة لا يُقال كل شىء عند النطق بالقول ، وكثيرًا ما يكون التلميح أكثر من التصريح ، لهذا أعنى جدًا بلهجة الحديث ، ونبرات الصوت ، وأدقق الملامح عندما يقدم سياسى كبير على الحديث ، أو خطاب الآخرين ، فى مؤتمر جماهيرى ، أو صحفى ، أو فى لقاء عام أو خاص .

أحيانًا تكون هناك مسافة بين القول ومضمونه ، وكثيرًا ما لمحت الكثيرين يبذلون جهدًا حتى أن بعضهم يتصبب عرقًا ، فأدرك على الفور أنه يتظاهر بما هو مغاير لجوهره ..

الرئيس مبارك صريح وبسيط ، ولكنه كرجل سياسة يلمح أحيانًا ولا يصرح ، وبالطبع الاعتبارات التى تحكم رجل الدولة عديدة ، وهناك لغة يمكن رصد مفرداتها ، لكن ما أركز عليه أثناء جلوسى أمام التليفزيون ، فى بيتى أو فى مقهى شعبى ، الطريقة التى يقال بها الكلام ، أحاول النفاذ إلى ما وراء الظاهر ، خاصة فى اللحظات الحرجة .

فى المؤتمر الصحفى الأخير الذى التقى فيه الرئيس برجال الإعلام الأجنبى أجاب عن أسئلتهم بهدوء رغم جنوحها إلى الاستفزاز أثناء حديثه عن الإرهاب والسياحة ، مال فجأة إلى الأمام وقال ما مضمونه :

« هم صعب عليهم إننا اشترينا القمح السنة دى نقدًا .. مش بالدين .. » .

وعلى الفور انتبهت إلى اللهجة ، إلى التعبير الذى بدا على الملامح ، قال الرئيس « هم » ، لم يحددهم بالضبط ، لم يسمهم ، وجدت نفسى أفكر :

ترى من هم الذين صعب عليهم شرائنا القمح نقدًا ، من حصيلة أموال السياحة ، فسعوا إلى ضربها ؟

من هم ؟

من جهتى حاولت التخمين ، هل هم بعض القوى الكبرى التى تعيد صياغة العالم الآن ؟ ، تلك القوى التى لا تريد لمصر أن تكون عفية قوية ، خوفًا من جوهرها ودورها ؟ ربما تكون تجربتا محمد على الكبير ، وجمال عبد الناصر ، لا تزالان ماثلتين ، وهناك من يرى فى الجانب الآخر أو الجوانب الأخرى أن مصر إذا قويت ، وحلت مشاكلها ، فإنها تبرز كقوة يعمل لها حسابها ، إذن فمن الأفضل إنهاكها باستمرار ، إما بالمشاكل الاقتصادية ، أو دعم جماعات الإرهاب المتسترة بالدين ، أو إثارة القلاقل حولها .

ربما . .

لكن هناك احتمال أن يكون « هم » بعض الأقارب فى المنطقة ، الأقارب والأشقاء ، والذين يسعون إلى البروز كقوى مؤثرة فى المنطقة ، وفى العالم ، وأى دور يتحقق لهم يجب تحقيقه على حساب الدور المصرى ، ولنتأمل جيدًا الحملة العنصرية ، الشرسة التى تتعرض لها الثقافة المصرية فى بعض الصحف العربية الصادرة فى العالم العربى وأوروبا ، ألم يرسم أحدهم كاريكاتيرًا فى جريدة عربية عقب الزلزال مباشرة يصور فيها الهرم الأكبر (عقدتهم الأبدية) مشروخًا وفوقه كلمة واحدة فقط « خربت » . .

قلة ذوق رجليطة مجافية للحد الأدنى للخلق العربى الذى كان ، أو نقرأ عنه فى كتب الأقدمين ، كان ذلك وقت أن هرع العالم كله ليواسى الكنانة .

هل يعنى الرئيس هؤلاء ؟ أو أنه يقصد قوى من الداخل لا يعنيها تماسك هذا الوطن واستمراره ، بقدر ما يعنيهم الوصول إلى السلطة ، هذه القوى التى استبدلت الولاء للوطن ، بالولاء للأفغان ، أو للترابى ، أو الغنوشى ، ولنقرأ أدبياتهم المنشورة جيدًا . .

هل يقصد الرئيس هؤلاء ؟ ألم يقدم بعض الصبية المنتمون إليهم على قتل السياح ، لضرب المصدر الذى أتاح لنا شراء رغيف الخبز نقدًا ، ودفع ثمن القمح مقدمًا ، أستعرض كافة الاحتمالات ، وأستعيد إيقاع الكلمات والملامح ، لعل وعسى أقدر على معرفة هؤلاء !!

فى بر مصر الجنوبى

السبت..

توقف القطار القادم من الجنوب تمامًا ، توقف بحذاء رصيف محطة لا تقف عليها القطارات السريعة أو الفاخرة ، تحمل اللافتة اسم « بنى حسين » ، يتم استبدال الخطوط الحديدية ما بين أسيوط والمنيا ، لذلك يحدث التأخير ، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشر ظهرًا ، فوق الرصيف المقابل تجمع عدد من الصبية ، ربما عشرة ، أعمارهم ما بين الثالثة عشر والسادسة عشر ، واضح أنهم يقضون بعض الوقت بعد إنتهاء اليوم الدراسى ، منهم من يحمل كراساته وكتبه ، وآخرون أسندوا حقائبهم إلى تحت شجرة عتيقة ، كانوا يتضاحكون ، ويتدافعون ، بعضهم يرتدى قميصًا فقط بدون بلوفر أو چاكت ، مع أن برد الصعيد قارس جدًا ، نهارًا وليلاً .

يبدو أنهم انتبهوا إلى القطار ، بدأوا يشيرون إلى ركابه ، ثم اندفعوا تجاه نقطة تقع مقابل نافذة فى العربة التى أركبها ، أشار أحدهم قائلاً : « أجنبى .. أجنبى .. » .

صاح أحدهم : « هالو » .

لوح قصير منهم بيده ، بينما أخرج أحدهم لسانه ، رفعت رأسى ، لمحت شابًا أجنبيًا يرتدى نظارة ، إطارها معدنى ، وقف ملوحًا لهم ، كان يبتسم ، وعندما صوب أحدهم حصاة صغيرة فى اتجاه القطار ، أسدل الستارة ، راحوا يصفرون ويصيحون ، ثم انتبهوا فجأة إلى أن هناك من يرقبهم باهتمام ، فتحولوا إليه ،

هكذا أخرج أحدهم لسانه ، بينما لوح أحدهم لى مهددًا ، ثبت نظراتى صوبهم ، لم أبتسم ، ولم أبد غضبًا ، إنما رحت أحملق فى ثبات ، والعديد من الأفكار يتوالى علىّ .

من المعروف أن الشخص الوحيد يتردد فى القيام بفعل عدوانى ، ولكن إذا صاحب شخصًا آخر فإن كل منهما يشجع الآخر ، هنا تتولد شخصية ثالثة غير مرئية يمكن أن تقدم على الأذى ، وكلما تزايد العدد قوى الإحتمال ، وربما يحدث هذا كله فجأة .

من الواضح أنهم فتية فقراء ، تبدو ملابسهم الرثة متواضعة جدًا فى مواجهة البرد والآخرين ، يمرون بحالة فراغ بعد انتهاء اليوم المدرسى ، وربما كان بينهم من لا عمل له ، مجال البلدة الصغيرة محدود ، ما من نشاط رياضى ، أو ثقافى ، ما من مشروع اقتصادى يمكن أن يمتص هذه الطاقات الفتية ، إنهم لا يقفون على الرصيف فى العراء ، بل .. عند مفترق طرق ، فإما أن يمضى كل شىء كما يتمنى المرء ، وإما أن تحدث المفاجآت والمنحنيات الحادة .

من يفكر ، من يخطط ، من يقيم المشروعات لهذا الجيل من؟ ، هل علمهم أحد احترام الغرباء ، بدلاً من هذه التصرفات التى تتناقض مع كل موروث المنطقة القائم على احترام الضيف وعابر السبيل !

على الناحية الأخرى هناك قوى خفية ، لا نعرف أين تنتهى خيوطها ، تتستر بالدين ، قوى نشطة تستهدف هذه الأعمار

بالتحديد ، وتدفعها باللين ، والخداع ، والترهيب ، وقليل من المال ، إلى الإرهاب ، وهذا الجيل الذى يقع عمره بين الثالثة عشر والرابعة عشر هو المرتع الخصب للإرهاب ، وهو الجيل الذى يجب أن يوضع فى اعتبار أى خطة وأى بيان حكومى .

كنت ما زلت أثبت البصر تجاههم عندما رحت أتساءل عن احتياجات كل منهم ، وكيف ستلبى ، وأين سيكون كل منهم بعد عشر سنوات ، بعد عشرين . . ماذا سيفعل بهم الزمن ؟ وإلى أين ستمضى مصائرهم ؟

قذف أحدهم حجرًا تجاهى ولم يرمش لى جفن ، بالتدريج بدأ انسحابهم البطئ ، فى لحظات ابتعدوا ، عاد أحدهم ، كان قصيرًا ، غامق السمرة ، ابتسم ملوحًا لى ، عندئذ رفعت يدى مبتسمًا ، دار حول نفسه ، ضرب جذع الشجرة بقدمه ومضى مبتعدًا ليلحق بصحبه ، مفارقًا فراغ الرصيف .

السبت ظهرًا..

ويمضى قطار الجنوب ، هذا الطريق نفسه الذى قطعته مرات لا أدرى عددها عبر عمرى منذ أن ولدت فى جهينة ، ومع العمر أرحل هنا وهناك ، وأبلغ مناطق جد نائية من العالم ، وأسافر الساعات الطوال بالطائرات ، لكن ما من رحلة تثير عندى الإحساس بالسفر مثل الرحيل إلى الجنوب الحبيب ، ويبدو أن الإنسان مع تقدمه فى العمر يحن إلى المنشأ ، خاصة بقعة الأرض التى خرج فوقها إلى الدنيا .

كنت أستعيد رحلتى الخاطفة إلى أسيوط ، وسوهاج ، لحظات وصولى إلى مدينة أسيوط ذات الحضور التاريخى الكثيف ، والقصور المنحدرة من الزمن الإقطاعى ، والطرق الممتدة ما بين الجبل والنيل ، لا تُذكر أسيوط على مسمع منى إلا وأرى بيوتها وقت ضحى ، لماذا . . لا أدرى ؟ ، لقد ارتبطت عندى بهذا الوقت ، كما أنها محطة حتى لو أقمت فيها زمنًا ، فالمدينة مدخل إلى طهطا ، إلى سوهاج ، إلى جهينة حيث أهلى ومسقط رأسى .

منذ فترة تعيش أسيوط ظروفًا متوترة بسبب الإرهاب ، ولا أخفى أننى كنت أسافر وعندى شىء من حذر ، أنا المنتمى إلى المنطقة روحيًا وجسديًا ، فما البال بالأجنبى القادم من بلد بعيد ليمضى أجازة ، ويتعرف على ثقافتنا وآثارنا ، حقًا . . لماذا نعجب لأولئك الذين امتنعوا عن الحضور بعدما سمعوه ، وما قرأوه ، لكن بعد الخروج من المحطة إلى الشوارع ، بعد دخول الحياة اليومية العادية ، نكتشف على الفور حجم المبالغة فيما ينقل من تفاصيل ، باختصار شديد أشير إلى عدة نقاط هامة ، ألمح فى بعضها ولا أصرح ، فالصورة موجودة عند كافة المسئولين فى الدولة على مختلف المستويات ، والمعلومات المتوفرة أدق ، ولكننى أتحدث عن المنطقة التى لا ترصدها التقارير ، ولا أجهزة المعلومات ، المنطقة الرمادية التى تكمن خلف الظاهر ، سواء كان ناصعًا ، أو قاتمًا .

هناك دور بطولى لأجهزة الأمن ، وللشرطة التى تواجه الإرهاب بمفردها فى الميدان ، بعيدًا عن أى مساندة سياسية ، إن الدور

الذى تقوم به أشبه بالجراح ،لكن بعد الجراحة ، تأتى العناية المركزة ، وللتمريض فى الشفاء دور عظيم ، والتمريض هنا يجب أن تقوم به جهات الدولة المختلفة ، من تربية وتعليم ، وصحة ، وشباب ، وخطط لاستيعاب البطالة ، يجب ألا يكون حضور الدولة ممثلاً فقط فى جهاز الشرطة الذى يواجه بشجاعة نادرة عصابات الإرهاب الأسود .

يجب وضع الطبيعة الخاصة للصعيد فى الحسبان ، ومن هنا أرى مشاركة القوى التقليدية والعائلات العريقة فى العمل ضد الإرهاب ، مع عودة نظام العمد ، ذلك أن العمدة كان يحل مشاكل الناس اليومية بطريقة ونظرة إدارية ، وعندما اختفى حل مكانه ما يسمى بأمير الجماعة ، وهذا يتدخل لحل مشاكل الناس ، ولكنه يقدم من أجل هدف سياسى يغلف بالدين .

بالنسبة للوضع فى أسيوط بالذات ، أقول بصراحة أنه لابد من فك الاشتباك بين المحافظ ، وأعضاء الحزب الوطنى ، لقد تجولت فى المدينة ، وأمضيت وقتًا طويلاً مع أصدقاء قدامى منهم موظفين وتجار وأدباء وأساتذة ، وجلست بمقاهى أعشقها وركبت عربات أجرة بالنفر ، ومن كل المواطنين البسطاء ، وقفت على صورة إيجابية جدًا لمحافظ شريف ، يدرك رجل الشارع نظافة يده وقلبه ، وجهده الخالص ، من أجل خدمة المواطن البسيط ، وعندما زرت سوهاج التى أمضى بها زمنًا قصيرًا سمعت سيرة عطرة ، هل من المعقول فى محافظة حساسة ، يستهدفها الإرهاب ، ومفجرو

الفتنة الطائفية أن يواجه المحافظ أصحاب النفوذ وذوى المصالح وأن يشتعل الموقف نتيجة لذلك .

فى محافظة كهذه ، يجب تضافر كل الجهود ، التنفيذية ، والأمنية ، والشعبية ، والسياسية ، ولكن الوضع الحالى خطير ، وأقولها بوضوح ، والأسباب كلها معروفة ، بل إن بعض القوى ذات النفوذ والمصالح تستخدم الفتنة وكل الوسائل فى حملتها غير النزيهة ضد المحافظ . .

هل هذا معقول ؟

أن تتعرض دولة بأكملها ، وأمن شعب بأكمله ، أن يتعرض وطنى بأكمله لخطر الحريق لمجرد أن بعض أصحاب النفوذ وأرباب المصالح لا يعجبهم المحافظ . .

هل هذا معقول ؟

من أجل ذلك أرفع الصوت بضرورة إنهاء هذا الوضع ، وأكتفى بالتلميح . . حتى وإن جاء بدرجة الصراخ .

استدعاء الذاكرة..

ويمضى القطار صوب العاصمة ، وتلك الساعات بقدر ما هى رحلة فى المكان ، تعد رحلة فى الزمان أيضًا ، زمنى أنا الخاص ، أستعيد وقتى ما بين أسيوط وسوهاج ، فى الخامسة فارقت أسيوط بصحبة صلاح شريد المسئول عن الثقافة الجماهيرية بجنوب مصر ، وسعد عبد الرحمن ، مدير الثقافة بأسيوط ، فى الليل الجنوبى ، كنت أتأمل حماسهما ، وجهدهما ، وكنت أفكر . . فى كل موقع

هناك من يشبههما فى أدائهما المخلص ، ويمثل هؤلاء يستمر الوطن .

توغل السيارة فى المكان ، والذاكرة ، وتتعاقب فى مجال الرؤية المشاهد الجنوبية ، كثافة النخيل ، الغموض الأسطورى ، ظلال الجبل البعيد ، رحيل النيل ، المقاهى الصغيرة ، عودة الرجل فوق الحمير ، وقوف البعض عند ناصية ما ، العمائم والجلابيب السوهاجية ، لكل ناحية تصميمها ، نمرق بالأماكن التى تشكل أركان ذاكرتى ، طهطا ، المراغة ، جزيرة شندويل ، يقوى حضور أبى - رحمه الله - وأستعيد سعيه فى الحياة الدنيا ، هنا فى كل مكان أثر منه وعبرة !

أصل مدينة سوهاج ليلاً ، يستقبلنا عبد الجابر بهلول مدير الثقافة وأدباء سوهاج بترحيب وعواطف فياضة تشعرنى بالذنب لتقصيرى فى التردد على موطنى ، ويمتد السهر فى الليل البارد الذى بدد صقيعه دفء الأصدقاء ، عميد شعراء سوهاج محمود بكر هلال ، والشاعر الكبير محمد الربيعى ، وجميل عبد الرحمن الذى جاء من المستشفى ليلقانى ، والسيد رشاد شاعر العامية الرائع ، والقصاص محمد محمود عثمان ، والسيد رشاد ، والصديق العزيز الدكتور نصار عبد الله الأستاذ بجامعة سوهاج ، وأخوه الذى ينتمى إلى أسرة كلها شعراء ، والعديد من الأصدقاء الذين وجدت فيهم ما لا أحبه فى كثير من مثقفى العاصمة !

سوهاج بالنسبة لى كانت نقطة عبور إلى جهينة ، وربما كانت ليلتى الأولى تلك التى أقضيها فى المدينة ، مدينة هادئة ، جمال الطبيعة الجنوبية يبلغ ذروته هنا ، حيث الجبل والنهر ، وخضرة الحقول .

سوهاج هادئة أيضًا ، ما من حوادث عنف ، لا طائفية ولا إرهابية ، هل هى طبيعة الناس هنا ؟ ربما . . ولكن لا شك أن الوفاق بين محافظها شديد الحنكة الذى عمل خمسة عشر عامًا مديرًا لمباحث أمن الدولة ، وبين أعضاء مجلس الشعب ، والمسئولين عن الأجهزة الشعبية ، هذا التفاهم له أثره ، عندما دخلت مكتب المحافظ كان أعضاء مجلس الشعب يجلسون فيه ، صافحت بترحاب شديد حسن رضوان ابن عم المرحوم محمد عبد الحميد رضوان وزير الثقافة السابق ، وأحد الوجوه البارزة من الإقليم .

خلال حديث المحافظ ، والأعضاء الذين كانوا فى مكتبه لمست فهمًا عميقًا لكيفية مواجهة الإرهاب فى إطار إدراك الطبيعة الخاصة جدًا للصعيد ، وهذه الطبيعة التى لن أمل الإشارة إليها يجب وضعها فى الاعتبار دائمًا ، إن الجنوبى لديه إحساس قوى بنفسه ، يمكن أن يمنح حياته ذاتها مقابل كلمة طيبة ، أو عن اقتناع ، ويمكن أن يضحى بها إذا أهين ، أو ناله ظلم ، والثأر قيمة عظمى على مختلف المستويات ، وهناك حكايات عديدة تُروى ،

والمساس بالكرامة أقوي الأسباب المحركة للرغبة فى الثأر ، أو إيجاد دوافعه .

هكذا تبدو سوهاج هادئة .

صباح ثانى أيامى بها سلكت الطريق الشرقى الطموح الذى يذكرنا بأعمال الفراعنة العظام ، بدأه اللواء محمد حسين طنطاوى بفكرة سرعان ما تجسدت ، يهدف إلى ربط سوهاج بالغردقة ، وصلنا ذروة الجبل القريب ، تطلعت إلى النيل الماضى من دهر إلى دهر ، إلى الطبيعة المصرية الخصبة ، السمحة ، وأقسم أن ما رأيته من جمال لا مثيل له فيما طالعه بصرى ، إن فى أوروبا ، أو أى بقعة من العالم حللت بها ، هنا جمال خاص ، له عمق من الزمن والجلال والأسرار التى لم تدرك بعد . . لهذا يطول الحديث عنه ، فلأرجئه إلى يوميات قادمة . .

كتاب النيل

. . لطالما سمعت اسمه ، لكننى لم أعرفه شخصيًا ، ولأننى قرأت عنه ، وعن جهوده العلمية التى يعرفها الآن ، ولأن اسمه طالعنى أكثر من مرة ، عندما اختاره عبد الناصر ليكون عضوًا فى البرلمان عن الأقباط منذ عام ٦٤ وحتى ٧٦ ، أى أمضى ست سنوات فى نفس الموقع خلال حكم الرئيس السادات ، ولأننى سمعت أكثر من صديق يلقبه بأب الچيولوچيين المصريين ، فهو الأقدم ، والأغزر علمًا ، وهو مكتشف فوسفات أبو طرطور ، لأسباب عديدة ، لم أتردد الأسبوع الماضى فى تلبية دعوة صديقى الدكتور سعد الدين إبراهيم للقائه ، خلال زيارته لمركز ابن خلدون للدراسات ، رغم خضم العمل الذى نخوضه ونقوم به فى دار أخبار اليوم هذه الأيام لإصدار « أخبار الأدب » ، أول صحيفة أدبية عربية ، تصدر أسبوعيًا وتحوى أربعين صفحة كاملة من الثقافة ، لقد دارت العجلة بالفعل بعد أن اتخذ الأستاذ إبراهيم سعدة قراره الجسور ، واليوم صباحًا سوف يقدم النسخة الأولى من العدد التجريبى الأول إلى الرئيس مبارك عند افتتاحه المعرض ، وخلال فترة قصيرة سوف تصل أخبار الأدب إلى القارئ المصرى والعربى لتغير الكثير من المفاهيم السائدة فى الصحافة والثقافة . .
غير أن الحديث عن هذا الإصدار الجديد لأخبار اليوم يطول ، لكننى بلا شك واقع تحت تأثيره ، فطوال الأسابيع الأخيرة لم نعرف النوم إلا ساعات قليلة ، خاصة فريق الزملاء المحررين ، والفنيين الذين يقودهم الفنان سعيد إسماعيل ، اختلست ساعتين ، ومضيت إلى موقف الأتوبيس المزدحم وسط المدينة لأصعد إلى المقطم ، هذا المرتفع الصخرى الذى نسميه جبلاً . .

كنت حريصًا على الاستماع إلى الدكتور رشدى سعيد ، الچيولوچى العالمى ، المقيم فى الولايات المتحدة منذ عشر سنوات ، وبسبب كل هذه الخلفية التى ذكرت بعضًا من ملامحها شعرت أننى أعرفه منذ زمن طويل ، رغم أنه اللقاء الأول المطول ، إذ قابلته فى برلين منذ سنوات ولكن لدقائق . .
رشدى سعيد عاشق مصرى صميم ، وأصيل ، ومصر . . هذه الكلمة المجردة التى نعنى بها الوطن والإنتماء ، تعنى عنده هو الأرض ، يحفظ رشدى سعيد الملامح والتضاريس ، والصحارى ، والجبال .
ومصر الأرض بلد عتيق ، أقدم صخوره وأجملها فى جبل أبو رواش ، وفى مكان اسمه قبة الحسنة نلتقى بتضاريس چيولوچية فريدة ، أما الجبل الأحمر الذى يقع فى مدينة نصر فيعتبره رشدى سعيد من أثرى وأخصب أماكن الچيولوچيا فى العالم ، وهو من الأماكن الأولى التى عاش فيها الإنسان المصرى منذ ملايين السنين ، وكان يوجد به نافورات مياه حمراء اللون ، وفى الجبل الأحمر بقايا بركان قديم .
للدكتور رشدى سعيد كتاب هام سوف يصدر خلال ساعات ، كتبه فى الأصل بالإنجليزية ، ولكن انتمائه الوطنى أبى عليه أن يظل مغتربًا عن قارئه المصرى ، فترجمه وجاء إلى مصر ليشرف على إصداره من دار الهلال .
حدثنا عن النيل ، عن علاقته به ، قال إنه بدأ يهتم به منذ نصف قرن ، منابعه ، مجراه ، مساراته القديمة ، ينبع النيل من هضاب الحبشة وقديمًا كانت مياهه تتجه إلى المحيط الهندى ، ولأمر

ما . ولأسباب جرت فى الأزمنة المنقضية تبدل مجرى النيل ، وبدأ يتجه شمالاً ، منفردًا بوضع خاص بين كل أنهار العالم التى تجرى دائمًا من الشمال إلى الجنوب ، عدا نهر النيل الذى أصبح حالة خاصة وفريدة ، وبالتالى أصبحت مصر حالة خاصة ، فكرة فريدة فى تاريخ الإنسانية وما زالت .

بدأ رشدى سعيد يتتبع المجارى القديمة للنيل فى الصحراء الغربية ، والشرقية ، تذكرت حوادث متفرقة قرأتها فى المصادر المملوكية للتاريخ المصرى ، عند ابن إياس والمقريزى وغيرهما ، فعندما بدأوا حفر أساسات مسجد السلطان حسن عثروا على بقايا قارب قديم ، وعندما حفروا الأرض لتشيد سبيل كتخدا يذكر الجبرتى أنهم عثروا على أخشاب قارب مدفون ، ومن وصف المقريزى للقاهرة فى العصور الوسطى نكتشف أن مجرى النيل الحالى كان يمضى فى ميدان رمسيس .

أعود إلى رشدى سعيد ، إلى حديثه عن مسارات الأنهار التى تبدو ثابتة ولكنها تتحرك فى حياة دائمة التغير تمامًا مثل البشر ، من يصدق أن المحيط الأطلنطى كان منذ ملايين السنين فى مساحة البحر الأحمر ، ثم بدأ تباعد الأرض ، القارة الإفريقية والأمريكية ، ومن هنا نشأت أسطورة القارة المفقودة أطلانتس ، لكن الجزء اليابس من الأرض لم يستقر تمامًا ، البحر الأحمر يتسع ، فى كل سنة تبتعد الشواطئ العربية عن الإفريقية فيه بمقدار ثمان ملليمترات ، يعنى ذلك أن البحر الأحمر سوف يصبح محيطًا بعد ملايين السنين ، أما القارة الإفريقية نفسها فسوف تنشطر ، وفى الزمن القديم كانت الجزيرة العربية جزءاً من القارة الإفريقية .

هذه الأرض التى تبدو ثابتة فى حالة تغير دائم ، كثيرًا ما كنت أقول لنفسى ، الزمان متغير والمكان ثابت ، ولكننى بعد إصغائى إلى رشدى سعيد أدركت أن المكان ما هو إلا تابع للزمان ، وصورة منه ، وما يبدو ثابتًا ، أبديًا ، فى حالة تبدل باستمرار بالطبع تحدث رشدى سعيد عن الزلزلة ، لم يكن معقولاً ألا نسأله . .

جبل أبو دباب..

الأرض فى حالة اهتزاز دائم ، لكن هناك مناطق تهتز أكثر من الأخرى ، ومصر من البلاد النادرة التى يمكن تأريخ زلزلاتها ، فقد دون المؤرخون أوصافًا عديدة ومنها يمكن تحديد شدتها وفقًا لمقياس رختر الذى أصبح مادة أساسية فى فكاهات المصريين وتندرهم الذى أعقب الفاجعة .

قال رشدى سعيد أنه أمكن تحديد زلزلة وقعت عند بناء معبد أبو سمبل ، كذلك وقعت زلزلة فى منطقة معبد الكرنك سنة ٢٧ قبل الميلاد ، فى عام ١٩٧٦ ، أحضر رشدى سعيد أجهزة حديثة لقياس الهزات الأرضية الدقيقة فى مصر ، وفى شهر مايو من كل عام تنتهى البعثات الجيولوچية من عملها فى بر مصر ، تعود لتكتب تقاريرها ، الأجهزة الحساسة تحتاج إلى تكييف هواء ، أقترح وضعها فى نفق داخل جبل مطل على البحر الأحمر جهة ادفو ، الأنفاق داخل الجبل كانت باردة ، بعد شهرين عاد مع الچيولوچيين فوجدوا عجبًا ، اتضح أن الجبل نشط جدًا زلزاليًا ، ويوميًا يقع داخله

من ٦٠ إلى ٧٠ زلزلة ، وهكذا أدرك رشدى سعيد وزملاؤه سر تسمية الجبل بأبو دباب ، لأنه يسمع منه دبدبة ، يقول « هكذا نسينا البحث عن مجارى النيل القديمة وبدأنا العمل فى رصد البؤر الزلزالية ، اتضح أن جبل أبو دباب هذا منطقة نشطة جدًا» ، نعم . . فى مصر مناطق نشطة زلزاليًا ، ولكن الزلزلات الكبرى لا تقع إلا مرة كل قرن ، أو قرن ونصف . .

أفاض رشدى سعيد فى الحديث عن البترول وإمكانياته فى مصر ، عن تجربته فى صحارينا ، عن علاقته بالسياسة ، عن وضع الأقباط فى المهجر ، والحديث طويل ذو شجون ، ولكن ما أريد التوقف عنده ، كيف نهمل وجود هذا العالم العظيم بيننا ؟ إنه فى مصر منذ أكثر من شهرين ، ولم أسمع بجامعة استضافته أو برنامج تليفزيونى استضافه أو إذاعى ، لم توجه إليه الدعوة إلا من مركز ابن خلدون فقط فى حدود ما أعلم ، وإذا كانت الچيولوچيا تذكر بالچيولوچيا ، فإننى أحترم عالمنا الكبير فاروق الباز ، وقد سمعته فى أكثر من محاضرة ، وشاهدته فى أكثر من برنامج تليفزيونى مهم ، ولكن . . لماذا نتجاهل عالمًا كبيرًا مثل رشدى سعيد ، ومرة أخرى أقول إننى لست فى مجال المقارنة ، أو المفاضلة ، ولكننى أذكر فقط بعالم أصيل ، وأكرر أن رشدى سعيد الذى يبلغ من العمر ستة وسبعين سنة ، والمقيم حاليًا فى الولايات المتحدة ، يعد باعتراف الجميع . . وبالواقع نفسه ، الأب الروحى وأستاذ كل الچيولوچيين العرب . . وليس المصريين فقط . .

وصل.. يصل.. وصولاً

. . قابلنى صاحبى فى ميدان الحسين ، منذ فترة لم ألتق به ، متخصص هو فى تطعيم الخشب بالصدف ، تبادلنا الود ، ثم سألته عن زميل له كان يعمل بمصنع صغير لصناعة العلب المطعمة ، ابتسم قائلاً :

« دا خلاص وصل يا عم . . » .

ثم أتبع قوله : «ربنا فتح عليه واستأجر ورشة فى حارة الصالحية . . »

الحارة قريبة ، قررت المرور عليه للتهنئة ، كان يبدو مسرورًا ، سعيدًا ، راضيًا عن الدنيا ، أصرّ على جلوسى أمام الدكان الصغير الذى لا تزيد مساحته عن مترين مربعين ، ودعوتى إلى شاى ، راح يشير إلى محتوياته القليلة ، ويحدثنى عن المشوار الطويل الذى قطعه منذ أن ألحقه والده بورشة المعلم صالح بربع السلحدار ليتعلم أصول الصنعة ، وكيف أمضى سنوات لا يتقاضى أجرًا ، ثم بدأ يتقاضى قروشًا قليلة راحت تتزايد مع الزمن ، ثم تنقله من ورشة إلى أخرى ، وادخاره مبلغًا من المال ، دفعه خلوًا لهذا الركن الضئيل المستقر تحت بيت قديم وفد إلى زماننا من القرن الماضى ، قديم ، متهالك ، لكن آمال صاحبى تورق تحته ، لقد حقق استقلالية ، وبعد أن كان يعمل بالأجرة أصبح سيد نفسه ، وعنده صبى صغير لابد أنه يتطلع يومًا للوصول ، إلى أن يكون له ورشته الخاصة .

فارقت صاحبى وأنا أستعيد لقائى بأحد زملاء الدراسة ، ما أن رآنى حتى صاح متهللاً . .

« مبروك يا عم . . والله وصلت . . » .

« وصلت إلى أين ؟ » .

« رأيتك فى التليفزيون . . »

ابتسمت شاكرًا ، متسائلاً بيني وبين نفسي ، هل يعتبر مجرد ظهورى فى التليفزيون خلال برنامج عابر وصولاً ؟ ، وصول إلى أى نقطة بالضبط؟ ، صحيح أن التليفزيون يلعب دورًا هائلاً فى الحياة المعاصرة ، اجتماعية كانت أم ثقافية ، وبالأخص . . السياسية ، وهناك زعماء أشعلوا حروبًا ، وقاموا بأعمال أحدثت فرقعة كبرى ، وفى رأيى أن أحد ما حركهم هو الظهور فى التليفزيون ، خاصة إذا كان تليفزيونًا عالميًا ، مثل **C N N** أو غيره وهذه الدوافع المستجدة ربما يوليها المؤرخون عناية فى المستقبل ، لكن . . هل ظهورى لدقائق فى التليفزيون يعد وصولاً ؟ ، إذن . . ماذا يمثل الأمر بالنسبة لقارئ النشرة أو مقدمة البرامج حيث الظهور يومى ومستمر؟

منذ سنوات قابلت أحد أصدقاء المقهى ، فرك يديه بسعادة ، قال إنه يحمد الله ، إذ وصل أخيرًا ، تساءلت حتى أقدم التهنئة ، قال أنه اليوم . . واليوم فقط حصل على جهاز هاتف فى المصلحة ، خط مباشر ، يمكنه من طلب أى رقم فورًا دون اللجوء إلى التحويلة ، طلب منى أن أكتب الرقم ، وأملاه علىّ بعناية ، ثم تأكد من صحته ، وقال أنه سوف يطبع بطاقات جديدة عليها اسمه ورقم هاتفه فى المكتب ، قال أن ذلك مؤشر هام لحصوله على المنصب الجديد ، هنأته وتمنيت له اليوم

الذى يحصل فيه على هاتف السيارة ، حيث يجلس فى المقعد الخلفى متجهمًا بسبب ثقل المسئولية ، ويتحدث فى الهاتف غير مبال بالمارة والمنتظرين عند المحطات ، رفع يده ، قال إنه مكتف بذلك . .

فى سهرة جمعتنى بعدد من الأصدقاء ، قال صاحبنا الذى يعمل فى مجال الإعلانات . .

« ماذا أريد أكثر من ذلك ؟ عندى شقة فى القاهرة ، وأخرى فى مراقيا . . الحمد لله . . وصلت إلى ما أريده . . »

شقة هنا وأخرى هناك . . هذا نوع آخر من الوصول ، تذكرت العبارة الدالة التى ترد على ألسنة بعضنا عند الإشارة إلى بعضهم . .

« أصله واصل يا عم »

بهذا الإيقاع تعنى أن الشخص المقصود تمكن من الاقتراب من أحد مراكز السلطة ، أو شخصية هامة ، أو أحد مراكز اتخاذ القرار ، وقد يكون هذا الوصول نتيجة الكفاءة ، أو الانتهازية ، وهنا نلاحظ فقط «الوصولية» المشتق من « وصل » أو « وصول » .

وقد يقال . . « ربنا يفتح عليه . . دا وصل خلاص . . »

تشير الجملة بتركيبها هذا إلى الطريق الصوفى ، إلى الوصول الذى يعقب المراحل المتعددة التى يجب قطعها من مجاهدة وكشف وتجل وأحوال شتى ومقامات عديدة ، وهذا الوصول لا يبلغه إلا القلة المجاهدة ، الصابرة ، غير أننى انتنى إلى المعنى الشائع بين أبناء شعبنا المصرى ، وهو معنى اجتماعى ذو بعد سياسى ، لا يخلو من

نقد مبطن ، أو سخرية مكتومة ، وأحيانًا إعجاب ممتزج بحسد ، أو رضا إذا كان التعبير بضمير المتكلم !

أما الوصول نفسه فنسبى ، ربما يكون امتلاك ثروة ، أو الظهور فى التليفزيون ، أو السكنى فى شقة متسعة ، أو امتلاك دكان ، أو الحصول على الدكتوراه وبلوغ الأستاذية التى تقتضى درجة من الرصانة ، وتغيير الملامح ، والحديث على مهل . . الوصول نسبى إذن .

لكن ماذا عن اللغة العربية نفسها ؟

فى « لسان العرب » لابن منظور ، نجد أن الوصل ضد الهجران ، وصل الشىء إلى الشىء وصولاً وتوصل إليه انتهى إليه وبلغه ، أما الواصلة من النساء فهى التى تصل شعرها بشعر غيرها – أى تتخذ الشعر المستعار – ووصله وَصْلاً وَصِلة وواصله مُواصله ووصالاً ، كلاهما يكون فى عفاف الحب ودعارته ، وكذلك وصل حبله وصلاً ، وصله ، قال أبو ذؤيب :

فإن وصلت حبل الصفا فدم لها   وإن صرمته فأنصرف عن تجامل

ويُقال ، وصل فلان رحمه ، وتوصل إليه ، وفى الحديث النبوى « من أراد أن يطول عمره فليصل رحمه » ، كناية عن الإحسان للأقربين .

ويقال ، هذا رجل وصيل هذا ، أى مثله .

ويقال أرضى وصيلة أى الأرض الواسعة البعيدة كأنها وصلت بأخرى .

أما ليلة الوصل فهى آخر ليلة من الشهر لاتصالها بالشهر الآخر .

ومن أسماء الرجال ، واصل وموصول . .

غير أن ما لم يتضمنه لسان العرب تلك الصياغة التى ترد دائمًا على لسان المصريين ، وتعبر عن رؤيتهم للحياة ، وفلسفتهم العميقة ، الطويلة لإدراك الواقع وتفسيره . .

« أصله واصل . . »

« مبروك يا عم . . أديك وصلت . . »

أما الوصول نفسه فيظل نسبيًا كما ذكرت ، يتوقف على نوعية الطموح ، والأمنيات .

لكن . . ماذا يعنى بالنسبة لى ؟

إننى أصغى بدهشة إلى من يحدثنى برضى عن وصوله .

الوصول بالنسبة لى يعنى الفناء ، يعنى العدم ، فإذا استقر فى وعى المرء أنه قد وصل ، سواء كان ذلك يعنى هدفًا ماديًا أو معنويًا ، فإن ذلك يعنى انتهاء الطموح ، انتهاء السعى . . أى الموت ، ربما كانت الحالة الوحيدة التى أشعر فيها بالرضى لحظة الفراغ من عمل أدبى استغرق منى وقتًا وجهدًا ، غير أن هذا الرضا لا يدوم ، إذ سرعان ما يتجدد الطموح والرغبة فى التجاوز ، وإذا استقر فى وعى المبدع أنه « وصل » ، إلى أسلوب ، إلى شكل فنى ، إلى مستوى معين . . فهذا مساو للموت ، للصمت التام . .

أما عن الوصول بالمعنى الذى يتداوله شعبنا الساخر ، المتهكم ، فاحمد الله أنه لا يشغلنى . . لا من قريب أو بعيد .

كتاب النيل..

فى اليوميات السابقة تحدثت عن لقاء جرى بالعالم الكبير رشدى سعيد ، الچيولوچى المصرى الذى يعرفه العالم كله الآن ، وبعد أيام صدر كتابه عن « النيل » ، الذى خرج من مطابع دار الهلال مع المعرض ، ولا أبالغ إذا قلت أن هذا الكتاب الهام سوف يحتل مكانة جليلة فى المكتبة العربية ، ولى وقفة أطول معه ، لقد تساءلت فى نهاية اليوميات عن أسباب عدم الاهتمام بعالمنا الكبير الذى جاء إلى مصر فى زيارة للإشراف على صدور كتابه .

وسرعان ما تحرك الإذاعى اللامع عمر بطيشة ، وسجل حلقتين من برنامجه « شاهد على العصر » ، أذيعتا على مدى الأسبوعين الماضيين ، وتعدان بحق وثيقة هامة ، حيث يتميز هذا البرنامج بموضوعية شديدة ، وصراحة تامة تمس الموضوعات السياسية والاجتماعية ، ولا تخضع لمفاهيم الرقابة التقليدية .

عدة رسائل وصلتنى من القراء تدور حول تقدير الكثيرين لرشدى سعيد ، أختار بعضًا مما ورد فى رسالة الدكتور فيليب رفله ، دكتوراه فى الجغرافية ، ومدرس أول بمدرسة التوفيقية سابقًا ، يقول :

« فإنه يسرنى إدلاء بعض ما درسته على أستاذى دكتور رشدى ، وكان منتدبًا من كلية العلوم إلي معهد الدراسات السودانية ليُلقى محاضرات عن چيولوچية مصر فى العام الدراسى ٥٥ / ١٩٥٦ (بمعهد يسمى الآن معهد الدراسات الإفريقية) . . »

ثم يورد معلومات قيمة عن الأنهار عامة وعن النيل خاصة ، إلى أن يقول فى نهاية خطابه :

« أما قولكم كيف نهمل وجود عالم كهذا ، فإنه كان من الممكن أن يظل هنا دائمًا لولا أنه وجد نفسه محاطًا بمضايقات أثناء إشرافه على عمليات الفوسفات فى الصحراء الغربية فآثر السلامة شأنه شأن الدكتور مجدى يعقوب وغيرهما كثيرون ينطبق عليهما وأمثالهما قول الإمام الشافعى : ما فى المقام لذى عقل وذى أدب . . من راحة فدع الأوطان واغترب ، إنى رأيت وقوف الماء يفسده إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب ، سافر . . تجد عوضًا عمن تفارقه ، وانصب (أى اجتهد واتعب) فإن لذيذ العيش فى النصب ، والتبر كالترب ملقى فى أماكنه ، والعود فى أرضه نوع من الحطب . . »

الطريف . . أننى ما إن فرغت من قراءة خطاب الدكتور فيليب حتى رن جرس الهاتف ، قال محدثى - لا أذكر اسمه - أنه معيد فى كلية العلوم ، وأنه قرأ ما كتبته عن د . رشدى سعيد وأن له رأيًا فيما كتبت ، ثم فوجئت به ينهال بسباب مقذع وشتائم شتى ، قلت له بهدوء أن هذا لا يليق بالعلماء ، وإذا كان له نقد على نظريات الدكتور رشدى سعيد فليكتبها ، و . .

إلا أنه واصل سبابه ، فأصغيت صامتًا ، وعندى أسى . . إذ وقفت مباشرة على أحد الأسباب القوية التى تملأ واقعنا ، وتجعل نوابغنا يهجرون الوطن !

فى ١ المسافرخانة

الأحد..

درب الطبلاوى
شارع قصر الشوق
مقهى البنان

مسجد سيدى مرزوق الأحمدى ، وإلى جواره منزل المشيخة ، هذه المساحة من القاهرة القديمة تعد الركن المتين ، الآمن فى بنيانى ، ولو أننى شرعت فى تفسير ذلك لاحتجت إلى صفحات توازى عدد نجوم المجرة !

هذا المنحنى عند بداية شارع قصر الشوق ، حيث مدخل حارة درب الطبلاوى بالنسبة لى هو المركز ، منه أنطلق وإليه أنثنى ، وعنده أركن ، مفتشًا عما مضى منى ، ومستجيرًا بما قد يفاجأنى من كرب ، وآملاً فى الآتى .

فى هذه الحارة أودعت طفولتى وفتوتى ، زمنى الأول ، أحفظ أحجار بيوتها ، ومداخلها ، وأستنفر ذاكرتى لأستعيد ملامح البشر الذين مروا بها ، الذين غابوا ، والذين غيرت السنوات من ملامحهم .

تشبه الحارة خريطة مصر ، تمتد من المدخل فى خط شبه مستقيم ، تتخلله انحناءات لا تلحظ ، ثم تتفرع إلى قسمين ، ما يشبه الدلتا ، إلى اليمين تستمر الحارة حتى عطفة باجنيد ، وهنا عشت ، تنقلنا ما بين منزلين ، أما الفرع الأيسر فينتهى بقصر

كبير تردد اسمه فى مسمعى منذ الطفولة ، « السفر خانة » أو «المسافر خانة » ، إليها أمضى اليوم .

أيام الآحاد هادئة لعطلة عدد كبير من المتاجر ، أما النهارات الرمضانية فتضفى مسحة من الأبدية ، بما لا يمكن للأبصار أن تدركه .

أخطو فى الحارة التى عرفت تحولات الضوء والظل على جدرانها وأرضها فى كل لحظة من لحظات الليل أو النهار ، أمضى إلى لقاء صديق عزيز وفنان كبير ، أجد نفسى فى كثير مما يبدعه من لوحات ، كما أنه أحد أبناء جيلنا المجيد ، جيل الطموحات العظمى ، والإحباطات الأعظم ، جيل الستينات ، فى إحدى غرف القصر القديم يستقر مرسم عدلى رزق الله ، غير أننى مع الخطى أستعيد داخلى المسافر خانة . .

كنا ونحن أطفال ، نلعب فى الفرع الأيمن من الحارة ، وكان حدود عالمى كله أقل بكثير من ستين مترًا ، من عطفة باجنيد وحتى فرن الحاج ناصيف الذى قام فوق أنقاض بيت كبير ولد فيه الفنان عبد الوارث عسر فى القرن الماضى ، كان اجتياز الفرن يعنى أمرين ، أولهما الاقتراب من المخرج ، من شارع قصر الشوق حيث عربات الكارو ، وعربات نقل الرمال ذات العجلات الخشبية واسعة القطر ، وهذا خطر ، إضافة إلى الغرباء ، العابرين ، كان ظهور سيارة فى هذه المنطقة نادرًا ، للأسف تزدحم هذه الحوارى وشوارع الجمالية الآن بكل أنواع

المركبات ، بما فيها النقل ، ويعنى هذا تهديد المنطقة ومبانيها الأثرية ، وزمنها ، ليت المحافظ النشط عمر عبد الآخر يصدر قرارًا باعتبار هذه المنطقة ، بما فيها شارع المعز مغلقة تمامًا على السيارات بأنواعها ، أعود إلى محاذير الطفولة .

كان الفرع الأيسر غامضًا ، فهناك المسافر خانة ، قصر قديم مهجور ، غير مسكون ، تحيط به الأساطير ، ليس بين الأطفال ، ولكن عند الكبار أيضًا ، فثمة من يقول أن داخله غرف بعدد أيام السنة ، وفى الزمن الآفل كان صاحبه يمتلك ثلاثمائة وخمس وستين جارية جميلة ، كل منهم تنتظره يومًا واحدًا فى السنة ، وآخر يقول أن الغولة تستقر داخلها وأنها تتربص بالأطفال الصغار تخطفهم وتمزق عظامهم ، كنت أرى المسافرخانة من فوق المنزل الأول رقم واحد ، عطفة باجنيد ، أذكر من تلك الزاوية ملقف الهواء المائل ، وهذا الملقف يحدد الشكل العام من ناحية درب المسمط أيضًا ولكن من أسفل ، وليس من أعلى .

كانت المسافرخانة تعنى بالنسبة لى الغموض وربما كانت من النقاط التى فجرت خيالى فى الطفولة ، ولم أدخلها إلا بعد عام تسعة وستين وتسعمائة وألف ، عندما أقدم الدكتور ثروت عكاشة فى زمنه الذهبى للثقافة المصرية ، على الاحتفال بألفية القاهرة ، وتم ترميم عدد كبير من الآثار القاهرية ، من بينها المسافرخانة ، ثم قرر تخصيص غرفها كمراسم للفنانين الحائزين على منح تفرغ ،

وتلى ذلك تعاقب وجوه غريبة على الحارة ، أفندية ، بعضهم يدخل متجهمًا ، أو مصحوبًا بأجانب ، قيل فى الحارة الكثير ، لكن . . ظل هناك حاجز قوى بين الفنانين الذين سكنوا المسافرخانة ، وأهالى الحارة ، والمنطقة ، لم يكسر هذا الحاجز إلا اثنان ، الفنان عز الدين نجيب عندما أقام فترة فى المكان ، والفنان عدلى رزق الله الذى أصبح من معالم المكان ، سواء بسعيه الدائم فى الحارة ، أو جلوسه بمقهى البنان ، ولهذا المقهى فى حياتى شأن عظيم أيضًا سوف أتحدث عنه يومًا ، يعرف الأهالى عدلى الآن بمظهره الخاص ، لحيته ، وعويناته ، مظهره شبه الأوروبى ، وشخصه الذى يمت إلى ابن بلد حقيقى ، منقوع فى المكان والزمان ، ولعدلى فى مسيرتى منزلة خاصة . .

بدايات لا تنسى..

فى عام ثمانية وستين بدأت أفكر مع صديق العمر يوسف القعيد فى ضرورة طبع كتاب لكل منا ، كنا بدأنا النشر فى أوائل الستينات ، خاصة فى الملحق الأدبى للمساء الذى أشرف عليه الفنان عبد الفتاح الجمل ، وقدم من خلاله جيلنا كله .

كان مدخرى فى ذلك الوقت خمسة وعشرين جنيهًا وكان ما يدخره يوسف ثلاثين جنيهًا .

تعرفنا بندوة الأستاذ نجيب محفوظ إلى الأديب سمير ندا الذى أجهل مكانه الآن بعد اختفائه من الحياة الأدبية ، كان متحمسًا ، جريئًا ، حدثنا عن مشروعه لإصدار سلسلة كتب بعنوان «كتاب

الطليعة» ، بدا ذلك مبهرًا ، قدمنا له ما نملك من جنيهات قليلة ، واتفقنا على إصدار مجموعتى القصصية الأولى « أوراق شاب عاش منذ ألف عام » ، آثر يوسف أن نبدأ بها المشروع ، ومضى سمير إلى مطبعة بدائية فى الترعة البولاقية ، كانت التكلفة تتجاوز المائة جنيه ، دفعنا ما لدينا ، أما المتبقى فتعهدنا بسداده بعد طبع الكتاب الأول ، لكن . . ماذا عن الغلاف ؟

هناك أصدقاء يمكننى تحديد اللقاء الأول بهم ، وهناك من يمتزجون بلحظاتنا فيصعب التمييز ، ومن هؤلاء عدلى رزق الله ، لكننى بالتأكيد كنت على صلة وثيقة به عندما ذهبنا إليه فى مكتبة بدار الهلال ، وطلبنا منه أن يصمم غلافين ، الأول لكتابى ، والثانى لرواية يوسف الأولى « الحداد » .

المشروع ، تطلع إلينا من تحت عويناته التى ازدادت سمكًا مع الأيام ، طلب أن أمر عليه بعد عدة أيام ، فى اللقاء التالى ، قدم إلىّ الغلاف ، وبتأن راح يشرح كيفية تنفيذه ، ثم قال إنه يهدى إلينا هذا الغلاف دعمًا للمشروع ، شكرناه بامتنان وخجل ، وخرجت أحمل أول غلاف لأول كتاب ، ولا أبالغ إذا قلت أنه من أجمل الأغلفة التى صممت لكتبى ، لقد طبع « أوراق شاب عاش منذ ألف عام » حتى الآن أحد عشر طبعة ، لا يمثل فى ذهنى إلا لوحة عدلى رزق الله الأولى ، ليس لأنه الكتاب الأول والأعز ، ولكن لأن اللوحة تعكس مضمون الكتاب تمامًا ، نفذ إلى جوهر ما كتبت ، وهذا إحساس نادرًا ما قابلنى فيما تلا ذلك من سنوات ، ومع صدور العديد من الكتب .

بعد صدور أوراق شاب حملنا نسخه ، درنا على الأصدقاء والأقارب ، نبيع النسخة بعشرة قروش ، وحمل الوالد ما يقرب من مائة نسخة ليبيعها لزملائه وأقاربنا وأبناء جهينة ، ومن حصيلة البيع ، سددنا المتبقى ، وبدأنا طباعة رواية « الحداد » ، و التى صدرت بغلاف للفنان عدلى رزق الله أيضًا ، وتوقف بعدها مشروع كتاب الطليعة الذى بدأه زميلنا المغامر الطيب سمير ندا ، مرت السنوات وتبدلت الأمور ، سافر من سافر ، وبقى من بقى ، واستقر عدلى فى فرنسا لمدة ثمانية أعوام ، أصبح فنانًا مرموقًا ، تقام معارضه فى أوروبا ، ويكتب عنها كبار النقاد ، ثم أصبح أستاذًا فى كلية الفنون ، ولعله العربى الوحيد الذى بلغ هذه المرتبة حتى الآن ، برغم هذا كله . . قرر العودة إلى مصر ، لم يستجب إلى مغريات العالمية التى أودت بمواهب كبيرة فى الأدب والفن ، ربما أدرك أنهم فى الغرب يسعون إلى ما يريدون هم ، بينما نقبل نحن برغبة حقيقية فى التكامل الثقافى ، فى الحوار ، أقول ربما لأننى لم أخض معه فى الحديث حول هذه الفترة ، وبقدر هذا الصفاء المدهش فى ألوانه المائية حتى ليخيل إلىّ أحيانًا أنه يرسم بالضوء ، بقدر هذه الشفافية أجد فى حديثه أحيانًا حدة تعكس صراعات داخلية هائلة أقف فى مواجهتها صامتًا .

لم يعد عدلى فقط إلى مصر ، وإنما قرر أن يعيش من فنه ، من لوحاته ، وأن يهجر الصحافة التى عمل فيها سنوات طويلة ، وكانت تدر عليه دخلاً لا بأس به ، خاصة أنه صاحب تجربة

طويلة فى الرسم للأطفال ، وأعترف أننى أنتمى إلى الجانب المقابل الذى يمثل الطبيعة السائدة فى المجتمع المصرى ، النهرى ، القديم ، ربما تتاح فرص عمل يمكن جنى ربح مال وفير مناه ، لكن المصرى لا يميل إلى المجهول ، إلى المغامرة ، المهم أن يكون هناك مرتب ما ، فى نهاية الشهر ، أو دخل ما له موعد محدد ، بعد جنى المحصول وبيعه ، والميرى طبعًا هو الأضمن ، ألا يقول المثل الشعبى « إن سابك الميرى اتمرغ فى ترابه » لأن له طبيعة الثبات ، الضمان ، وخلال تقلبى فى أعمال مختلفة كنت ألاحظ ذلك القلق الذى يبدو دائمًا على العاملين بمكافآت دائمًا يتساءلون : « إمتى نتثبت ؟ »

والدرجات التى يرقى إليها الموظفون أدق تعبير عن هذا التأخير ، أو توفر الضمان ، من الممكن أن يدر علىّ نشاطى أضعاف المرتب الثابت ، ولكن مهم جدًا هذا المبلغ المضمون الذى يأتى فى موعد معين ، تمامًا مثل فيضان النيل السنوى ، صحيح أن هذه المقاييس اهتزت فى السنوات الأخيرة ، فالمرتبات مهما ارتفع شأن العمل لا تفى بالضروريات مع التضخم وسائر كوارث الاقتصاد ، لكن المهم أن هذا المرتب الشهرى يضمن تسديد الثوابت ، من إيجار بيت ، واستهلاك كهرباء وبعض الشئون الصغيرة ، قد تكون جنيهات قليلة ، لكن المهم أن تأتى ، والأهم . . ذلك الموعد الثابت ، صحيح أن معظم الموظفين أصبحوا يعتبرون هذا المرتب الشهرى مثل

الإعانة ، بعد انتهاء يوم العمل يسارعون إلى عمل إضافى أو نشاط آخر يدر ما يساعد على مواجهة أعباء الحياة ، أما العامل الذى لا يتقاضى أجرًا ثابتًا ، ويخصم منه اليوم إذا تغيب فيطلق عليه « ظهورات » ، ولا أدرى أصل التسمية ، أما إذا كان بلا عمل ، ويلقط رزقه يومًا بيوم فيسمى « أرزقيًا » من السعى وراء الرزق .

نعم . . الفن أرقى أنواع النشاط الإنسانى ، وعباقرة الفن عرفوا أنواعًا شتى من شظف العيش ، بعضهم ماتوا جوعًا ، والآن تباع لوحاتهم بعشرات الملايين ، لكن هؤلاء لم يهجروا مهنة عملوا بها طويلاً كما قرر عدلى عندما تقاعد بقرار منه .

فى فراغ مرسمه المطل على فناء المسافرخانة حيث الهدوء قادم من الزمن العتيق ، حدثنى عن تجربته ، عن السنوات الأولى الصعبة ، عن تفهم أسرته الصغيرة لقراره ، عن وقفة زوجته إلى جواره .

طلبت منه أن يكتبها إضافة إلى ما كتبه عن تجربته فى فرنسا ، لنشرها بالإصدار الجديد لدار أخبار اليوم « أخبار الأدب » ، فالتجربة غنية ومثيرة ، يعيش عدلى الآن من فنه ، الحمد لله مستورة ، لقد نجح إصداره ، وأثمرت قوة إرادته ، ولكن الفضل من قبل ومن بعد لموهبته الفريدة ، وعالمه الذى يتجسد فى العديد من اللوحات الرائعة ، كل منها كون متكامل ، فيه رؤية فريدة للواقع ، للمرأة ، لتضافر عناصر الوجود ، يحقق ما اسميته

«التصوف باللون » ، النفاذ إلى الجوهر ، إلى حقائق الوجود من خلال خامة صعبة جدًا ، هى الألوان المائية ، ألوان مضيئة ، مشعة ، مراوغة كالشوارد الواردة على القلب .

من هنا كنت أصغى أحيانًا إليه ، وأتطلع إلى الفراغ الخارجى من خلال فرجات المشربية ، محاولاً تفادى النظر إلى الفناء الذى تطل عليه جدران الجزء القبلى من المسافرخانة بما تحمله من شروخ بارزة وحالة صعبة بعد الزلزال ، كنت أحاول الاستعانة بألوانه التى وجدت فيها جوهر الشعر ، ورقة ما لا يمكننى البوح به ، كى أرحل إلى زمنى فى حارة درب الطبلاوى ، زمنى الأول الذى تقف فيه المسافرخانة ركنًا وبنيانًا ورمزًا غامضًا مثيرًا للخيال ، ومع وعيى الأتم أن هذا الزمن لن يعود أبدًا ، لكننى أجاهد دائمًا ، وبالكتابة كى أقتنص بعضًا من ملامحه ، وإذا حلت لحظة أكف فيها ، فإن ذلك يعنى صمتى الأبدى ، واختفائى الشاحب ، الغارب ، تمامًا كأحد هذه الألوان التى يصعب علىّ إدراكها فى إحدى لوحات هذا الفنان الكبير .

كلمه .. يكلمه .. تكليماً!

طلعت فى دماغه !

عندما اقترب الأتوبيس القادم من المعادى متجهًا إلى العباسية عن طريق الأزهر ، عندما اقترب من المنحنى المتجه إلى الأزهر مضى مباشرة مواصلاً سيره فى شارع الخليج أو بورسعيد كما يسمى الآن .

قمت من مقعدى فجأة مما جعل عدد من الواقفين يتطلعون أثناء تدافعهم للجلوس ، تجاوزت الزحام إلى السائق متسائلاً عن السبب الذى جعله لا يدخل إلى الأزهر ؟

نظر إلىّ ثم إلى الطريق الخاص بالعربات والباعة الجائلين والمارة ، هذا الزحام الذى يتزايد قبل الإفطار الرمضانى ، قال بلا مبالاة . .

« لن أدخل الأزهر . . طلعت فى دماغى أمشى من هنا . . »

لم أجادله ، وإنتظرت حتى بلوغه ميدان باب الشعرية وتوقفه بعيدًا عن أى محطة ، بدا مستهينًا ، ساعيًا إلى الشجار ، لم أتظاهر بعد نزولى بتدوين رقم السيارة كما يفعل بعض الأفندية الذين يتظاهرون بالأهمية وافتعال مظهر السلطة بأى درجة من درجاتها ، لم يعد لتلك رهبة ، وإذا كان الأفندى مهمًا حقًا فلماذا لم يركب عربة أجرة ، وإذا كان مهمًا حقًا وصاحب جاه فأين عربته الخاصة ؟

كل ما فعلته أننى عدت أقرأ اللافتة المعلقة على الأتوبيس ، لم أخطئ « المعادى - الحسين - العباسية » ، فكرت فى آخرين ينتظرون عند محطات الأزهر والدراسة ، لكن الأتوبيس لن يصل لسبب بسيط هو أن السائق طلعت فى دماغه ؟

إتجهت إلى شارع أمير الجيوش مهونًا طول المسافة التى يجب أن أقطعها حتى ميدان الحسين بمرورى فى شارع المعز ، والذى يتدثر بظلال عميقة ، وتهب عبره نسمات الماضى البعيد قبل الغروب ، لعلى آتى من زمنى المنقضى بلحظة بهجة أفلتت ، لكننى لابد أن أسرع فثمة أصدقاء ينتظرون وأنا المسئول عن الحجز فى مطعم الدهان الشهير . رحت أستعيد لهجة التحدى والاستهانة ، وملامح السائق المرهقة وملابسه البالية ، لم يعد لسائقى النقل العام أو المحصلين أزياء خاصة بهم ، أو حقائب جلدية معلقة يجمعون فيها الإيراد ، رحت أسأل نفسى : ماذا طلع فى دماغه بالضبط ؟

لقد حاد عن خط السير المحدد له وسلك طرقًا أخرى ولم يعبأ باحتجاج بعض الركاب أو نظرات الضيق فى عيون بعضهم ، إنه يجلس وراء المقود عدة ساعات يوميًا ويسلك نفس الطريق ، ومهنة السائق هى الوحيدة التى لا يمكن معها الكسل أو التزويغ أو القول الشهير « فوت علينا بكرة . . » ، هذه مركبة ، سواء كانت عربة أو ترام أو قطار تقوم من مكان وتصل إلى مكان آخر ولا بديل ، ناهيك عن زحام المدينة الذى يجعل بعض أصحاب العربات الخاصة يضجون من القيادة لساعة أو بعض الوقت ، ما البال بمن هو مزروع على كرسى القيادة لمدة سبع أو ثمان ساعات ، هل أراد السائق أن يخرج عن المسار المحدد له مرة ؟ هل هو نوع من التمرد الخفى ؟ هل هى فكرة مفاجئة واتته ، ألا يدخل شارع الأزهر ويمضى من شارع آخر ؟ ، لقد كان محددًا ، واضحًا وهو يقول لى « طلعت فى دماغى . . »

لكنه إذا أراد التحدى فأين من يتحداه ؟ ، زمان كان المفتش يصعد إلى تلك المركبات وكان ظهوره ذا هيبة ، عند الركاب وعند المحصل والسائق ، نادرًا ما أرى الآن أحدهم ، وإذا ظهر فإنه يبدو رث الهيئة ، متعب الملامح ، لا يتسق مظهره مع كلمة «مفتش» ، زمان . . كانت الحلة الصفراء وغطاء الرأس يعطيه هيبة ما ، إذن . . من يتحدى هذا السائق ؟

الركاب ؟

معظمهم بسطاء ، لا رغبة عند أحدهم فى الشجار أو إثارة المشاكل خاصة فى هذه الساعة التى تسبق الإفطار وكل منهم حريص على الوصول فى وقت مناسب قبل الغروب ، أما الواقفون على المحطات التى لن يصلها الأتوبيس فمن يسمع شكواهم إذا رفعوا الصوت .

من يصغى الآن ، ومن يسمع من ؟

بل . . من يحاسب من ؟

هل يعى السائق ذلك حقًا ؟ هل يعى أن بعض الكبار يخطئون ونسمع عما اقترفوه لكننا لا نسمع عن حساب جرى أو عقابًا تم ، وماذا يعنى الأمر بالنسبة لما تردده الإشاعات المفزعة إذا ما قورن الأمر بمجرد خروج مركبة عامة عن الخط .

لا . . لم أقتنع ، يبدو أننى أتلمس للسائق عذرًا بتأثير تعاطف رومانسى قديم مع الطبقة العاملة ، وماذا عن الآخرين المنتظرين بلا جدوى عند محطات لن يمر الأتوبيس عليها ؟ وجدت نفسى مدفوعًا إلى المقارنة ، فى العواصم الأوروبية التى زرتها كنت أقرأ

مواعيد الأتوبيسات مدونة على لوحات مثبتة إلى المحطات ، توضح الساعة والدقيقة ، بل وأحيانًا الثوانى ، وكثيرًا ما كنت أتطلع إلى الساعة متحديًا ولكن . . فى الوقت المحدد تمامًا يصل السائق الأنيق الذى يبدو هادئًا ، واثقًا وهو يقود المركبة ويقوم بدور المحصل أيضًا ، وقبل بلوغه المحطة يعلن فى مكبر الصوت عن اسم المحطة التى ستصل إليها المركبة .

عند بلوغى قبة قلاوون ابتسمت ، لمت نفسى ، هل سأفعل مثل البعض ؟

تذكرت أحد المعارف ، بعد سفره لأول مرة إلى الولايات المتحدة أصيب بالمقارنة ، فإذا رآنى صدفة بدا ساخطًا ثم يدفع الحديث بمناسبة وبدون مناسبة إلى المقارنة . .

« هل رأيت الزبالة فى الشارع ؟ . . هذا لا يمكن أن تراه أبدًا فى أمريكا . . »

« هل ذقت طعم الزبادى الذى يعلنون عنه . . هل شعرت بمرارته . . مثل هذا لا يمكن أن تجده فى أمريكا . . »

لا . . بالتأكيد لن أصاب بداء المقارنة هذا ، وإنما سأحاول أن أفهم فى ضوء ظروفنا ، عدت إلى السؤال المحير ، ماذا طلع فى دماغ السائق ؟

أستبعدت كل ما دار بخاطرى عن الحرية الداخلية والاجتماعية ، لا داعى لتضخيم الموضوع أكثر من اللازم وإعطائه أبعادًا فلسفية ، إذن . . ماذا ولماذا طلع فى دماغه ؟

هل تساعدنى اللغة ؟

رحت أستعيد ما أعرفه عن كلمة « طلع » ، المقصود بطلع ، طلعت الشمس والقمر والفجر والنجوم ، والمطلع : الموضع الذى تطلع عليه الشمس ، ويُقال : نسيمُ الصبا من حيث يُطَّلَعُ الفَجْرُ .

وطلع فلان علينا من بعيد ، وطلعته تعنى رؤيته ، يُقال : حيا الله طلعتك ، وطلع عليهم : أتاهم ، وطلع عليهم تعنى غاب أيضًا ، وطلعة الرجل تعنى شخصه وما طلع منه ، وأطلع رأسه إذا أشرف على شىء ، وأطلعه على الأمر : أعلمه به .

المعانى عديدة يضيق عنها المجال ، لكن ما دُون فى القواميس القديمة ، لابن منظور وابن سيده والفيروز أبادى لم يقدم إلىّ أى مساعدة فى تحديد المعنى الذى أراده السائق ، خاصة أن الطلوع تم فى دماغه وفجأة . مرة أخرى أستعدت ملامحه ، وعلى البعد أكتشفت فيها تحديًا من نوع آخر ومغامرة ، بل . . واستهانة .

التحدى لنظم مستقرة أو مدونة ، يجسدها الخط الذى يسلكه الأتوبيس والمعلن عنه من خلال العديد من اللافتات ، سواء بالمحطات أو على الأتوبيس نفسه ، وهذا الخط جزء من خطة وضعتها الهيئة لتغطية القاهرة بشبكة مواصلات .

إذن . . فالتحدى موجه إلى هذا النسق ، إلى تلك الخطة ، وعندما نقول أن فلان « طلعت فى دماغه » فإن ذلك يعنى الخروج عن الخطة ، عن الإطار ، وهنا لن نجد السائق بمفرده ، بل كثيرون وعلى مختلف المستويات ، بدءاً من القيادات العليا فى تاريخنا العربى القديم والحديث سنجد أنها بشكل أو آخر «طلعت فى دماغ أحدهم» ، أثناء خلوة أحدهم أو عزلته أو اجتيازه المجال الجوى لبلد ما . يتساءل أحيانًا بعض القراء فى

بريد الصحف عن سبب التغيير المفاجئ فى رصف شارع أو تغيير الأسفلت بالحجارة ؟ ، وكثيرًا ما يكون وراء بعض هذه المظاهر والمتغيرات - إذا استبعدنا المصلحة - سببًا أدى إلى طلوع الفكرة فى الدماغ .

وإذا كان الطلوع المفاجئ يعنى الحياد عن النسق ، الخروج عن الخطة ، فإنه يعنى أيضًا الاستهانة ، وعندما يضعف مبدأ المساءلة ، عندما يغيب الردع للخارج عن الأخلاق ، عن المجتمع ، عن القيم ، عندما يختفى الحساب ولا نسمع عن أى جزاء تم توقيعه على المخطئ ، عندئذ تتعدد حالات الخروج ، غير أن الطلوع المفاجئ فى الدماغ أمر مستحب فى الإبداع ، وما من فكرة فنية أو مشروع إبداعى إلا وعرف صاحبه هذه اللحظات المباغتة التى تبدد كالبرق الخاطف ، وخلالها تتبلور فكرة ، أو يكتمل حل . غير أن الطلوع إذا تم فى شأن يخص المجتمع أو الناس ومصالحهم فإنه يصبح مربكًا ، محيرًا . . تمامًا كحيرتى إزاء السائق الذى قال بكل بساطة واستهانة ممزوجة بتحدى غامض . .

« طلعت فى دماغى أمشى من هنا . . »

حمانا الله من أضرار الطلوع المفاجئ فى الدماغ .

فيلم!

جرى الحوار بين صديقتين ، وأصغيت إلى بعضه صدفة ثم انصرفت إلى أفكارى الخاصة .

كانت الأولى وهى شابة تشكو لصاحبتها ما جرى من زوجها ، إنه يعمل فى أحد البلاد العربية وبعد غيبة تقارب العام عاد ، وعندما رآها فى انتظاره باسمة ، وقد اتخذت كامل زينتها صاح غاضبًا . .

« إيه ده . . إنت حتعملى فيها فيلم ؟ »

كانت نبرتها شاكية فهى لم تسع إلى إغضابه .

تذكرت حمالاً عجوزًا فى سوق الحمزاوى ، وقف شاب يجادله ، أعرفه بائعًا للعطر ، احتد كل منهما على الآخر ، فجأة صاح الشاب :

« نهارك مش فايت . . ما دمت ناوى تعمل لى فيها فيلم . . »

* فى عربة ميكروباس راح أحد الركاب فى النوم ، ارتفع شخيره ، كان شابًا يقترب عمره من الثلاثين ، بدا مرهقًا ، عند اقتراب السيارة من مستشفى المعادى أمسك جاره بذراعه ، بدأ يصيح . .

« اصح يا أخ . . مش قلت إنك عاوز تنزل المستشفى . . »

بدا الشاب قادمًا من نوم عميق ، كان يمر بهذه اللحظات الفاصلة بين اليقظة والنوم حيث تتماهى الموجودات وتختلط المرئيات وخلالها ربما يفقد الإنسان وعيه بالزمان والمكان ، غير أن الشاب صاح متحسرًا ، متأسفًا . .

« ليه بس كده . . دا الفيلم كان بالألوان وآخر حلاوة ، قطعتوا الفيلم الحلو ورجعتونى للقرف تانى . . »

ثم تلفت حوله بسرعة وطلب من السائق التوقف وغادر العربة مهرولاً إلى مكان وقصد ما .

* فى ميدان السيدة نفيسة قرب منتصف الليل ، حيث لا تنقطع الحركة ويأتنس المريدون بالمقام الطاهر ، يجلسون جماعات حول المناضد الصغيرة يحتسون الشاى والقهوة ، قرب مدخل

المسجد جلس رجل فى منتصف العمر ، كان يتحدث إلى سبعة أو ثمانية أشخاص ، بدا واضحًا إنه بمثابة شيخهم ، وإنه سالك فى طريق الصوفية ، كان يتحدث عن المراحل والسلوك وآدب الطريق ثم يكرر . .

« أما الدنيا وما يجرى فيها فيلزم لها قول آخر . . هذا فيلم لا علاقة لنا به »

ويقول فى موضع آخر . . « . . وبعد ذلك دعونا من هذا الفيلم . . »

كان لفظ الفيلم يعنى عنده الأمور الدنيوية وما يجرى فيها ، ولكن اللفظ يكتسب دلالة مختلفة طبقًا لظروف الحوار والمكان والحديث ، وفى جميع الأحوال لا يعنى الأمر المعنى المباشر للكلمة ، إنما يخرج بها إلى دلالات أخرى يمكن تحديد بعضها أحيانًا ويصعب ذلك فى مرات أخرى .

يقول الصديق المخرج توفيق صالح إن كلمة « فيلم » حلت مكان لفظ « حدوتة » فى الزمن القديم ، لأن الفيلم أصبح حدوتة العصر الحديث ، ويبدو هذا التفسير معقولاً إذا تذكرنا العبارات التى تقول :

« إنت حتعمل لى حدوتة ؟ »

أو « سيبنا من الحدوتة دى . . »

نعم ، الفيلم هو حدوتة العصر ، هو بديل الحكاية ، وهكذا تستجيب اللغة العامية بحساسية عالية للمتغيرات ، وظروف الواقع ، ربما يبدو هذا التفسير معقولاً ، إلا إذا كان هناك تفسيرات أخرى ، فربما بلغت بعض أمور حياتنا حدًا لا يصدق من

اللامعقولية فرأى فيها القوم أمورًا تستعصى على التصديق والاستيعاب فقطعوا أن الموضوع كله عبارة عن « فيلم » ، لكن .. إذا صح هذا التفسير فإن منطوق اللفظ لم يحدد مدته ، ولا نوعه !!

رمتنى بدائها:

قال سَلْمٌ الخاسِر : صار إلىّ أبو العتاهية فقال : جئتُك زائرًا . فقلت : مقبولٌ منك ومشكورٌ أنت عليه ، فأقِمْ ، فقال : إن هذا مما يشتد علىّ . قلت : ولِمَ يشتد عليك ما يَسهُل على أهل الأدب ؟ فقال : لمعرفتى بضيق صدرك . فقلت له وأنا أضحك وأعجب من مُكابرته « رمتنى بدائها وانسلَّتْ » . فقال : دعنى من هذا واسمع مني أبياتًا ، فقلت : هاتِ ، فأنشدنى :

نَغَص الموتُ كلَّ لذّة عيش ... يا لَقومى للمَوْت ما أوحَاهُ
عجبًا أنّه إذا مات مَيْتٌ ... صَدّ عنه حبيبهُ وجَفاهُ
حيثُما وُجِّه امرؤٌ ليفوتَ الـ ... ـموتَ فالموتُ واقفٌ بحذَاهُ
إنّما الشَّيْبُ لابن آدمَ ناعٍ ... قام فى عارِضَيْهِ ثم نَعَاهُ
منْ تَمَنّى المُنى فأغرق فيها ... مات من قبلِ أن ينال مُناهُ
ما أذلّ الْمقِلّ فى أَعْيُنِ النّا ... س لا قلاله وما أَقْمَاهُ
إنما تنظر العيونُ من النا ... س إلى مَنْ تَرْجوه أو تَخْشَاهُ

ثم قال لى : كيف رأيتَها ؟ فقلت له : لقد جَوَّدتها لو لم تكن ألفاظُها سوقِيّة .

فقال : والله ما يُرَغّبنى فيها إلا الذى زهّدك فيها .

المحطة الدولية

الطريق المحاذى لترعة الإبراهيمية ، السيارة تتجه جنوبًا إلى عمق الصعيد ، النخيل ، الخضرة ، الجبل يبدو على الضفة الأخرى من خلال الزراعات الأبدية . ألمح لافتة خشبية ، خضراء اللون ، عليها كتابة بحروف بيضاء

« المقهى السياحى الدولى »

إدارة الحاج أحمد عوض وأولاده

طلبت من سائق سيارتنا التى تحمل علامة واسم دارنا . . أخبار اليوم أن يتوقف ، تراجع قليلاً ، توقف أمام المقهى السياحى الدولى ، تطلع إلىّ متسائلاً :

« هنا ؟ »

كانت لهجة استنكارية ، تعنى . . هل سنجلس هنا ؟ ، أشرت إلى اللافتة ، قلت :

« ألم تقرأ . . إنه سياحى ودولى . . »

كان المقهى عبارة عن ركن بسيط مطل على الترعة خضراء الظلال ، تحده جدران من البوص ، داخله ثلاثة مقاعد عتيقة ، ودكتين من الخشب ، وكانت رائحة الشاى القوية ودخان المعسل الذى يقدم فى ثلاث نرجيلات فقط متواضعة ، موقد قديم ، أكواب قليلة ، كان الحاج أحمد هو الذى يعد الشاى ، ويوقد الجمرات اللازمة للمعسل ، ويغسل الأكواب ، لم أر شخصًا غيره فى المكان ، رحت أتأمل ملامحه المجهدة ، أسئلة عديدة راحت تتداعى فى ذهنى ، لماذا أطلق الحاج أحمد (بعد حوارى معه علمت أن الحج عنده ما زال أمنية لم تتحقق بعد) هذه الأوصاف

التى تعكس مبالغة لا شك فيها ، فالمقهى لا هو سياحى ولا دولى ، لكنه قال فى اختصار وبكلمات قليلة أن بعض السائحين الأجانب الذين يجوبون البلاد مشيًا أو يستخدمون وسائل المواصلات الرخيصة ومعظمهم من الطلاب أو الشباب الذين يحملون أمتعتهم وزادهم معهم على ظهورهم يجيئون إلى المقهى أحيانًا ليحتسوا أكواب الشاى الثقيل ، ثم يمضون ، فكرت . . ألا يبدو هذا مبررًا لإطلاق صفة الدولية والسياحية على المكان ؟

تذكرت أديبًا من أصحابنا لا أراه إلا مصحوبًا ببعض طلاب أو طالبات أقسام الأدب العربى فى الجامعات الأجنبية ، يترجمون له قصصًا أو بعض نصوص كجزء من دراستهم وقد تنشر فى مجلات أو دور نشر محدودة ، لكنه فى حديثه يبدو مهتمًا دائمًا بهذا العدد المحدود من القراء الأجانب ويتحدث عن وصول أدبنا إلى «العالمية» .

« العالمية » أليس حلمًا يراود الكثيرين ، سواء كان أديبًا أو فنانًا تشكيليًا أو ممثلاً أو طبيبًا ، لكم قابلت البعض وهو يحمل باعتزاز قصاصات صغيرة من صحف أجنبية ذكر فيها اسمهم ، ويعتبرونها دليلاً على « العالمية » ، ألا يوازى ذلك « الدولية » و « السياحية » ، تذكرت عازف قانون كنت أجلس إليه فى مقهى التجارة بشارع محمد على ، كان يحتفظ بمجلد ضخم ، داخله ورق أبيض ، وعلى ورقة واحدة لصق خبرًا صغيرًا نشر فى الثلاثينات عنه بمجلة « الاثنين » ، عدت أتأمل الحاج أحمد ، لقد حقق وجوده الخاص من خلال تلك الكلمات « الحاج » « الدولية » « السياحية » « إدارة » . . بل إن وصف المكان بأنه مقهى فيه مبالغة ليس لافتقاده ملامح المقهى ، بل لأنه لا يقدم المشروب الذى يستمد المكان منه اسمه ، أقصد القهوة .

لم أجادله طويلاً ، فالرجل بدا قانعًا بعالمه الخاص وغير قابل لأسئلة لا يفهم بواعثها ، كما أننى خشيت ظنه أننى والعياذ بالله أسخر منه ، فليس ذلك من طبيعتى مع قومى البسطاء ، الساعين إلى الرزق .

أليس إحضار « المونة » من شاى وسكر وغير ذلك وحساب الزبائن نوع من الإدارة ؟ ، لكننى لم أعرف أين أولاده المشار إليهم فى اللافتة .

بالتأكيد الرجل لا يقصد الخداع ، الحال واضح جدًا والأمر بين ، مجرد مقاعد وأكواب ومساحة مفتوحة ، فمن يصدق أنه سياحى ودولى فالمسئولية تقع على الزبون لأن كل شىء مكشوف هنا ، بعكس أماكن أخرى ومنشآت ، بل ومؤسسات ، تختفى وراء الجدران ، بينما تعلن اللافتات أو الإعلانات سواء كانت مقروءة أو مسموعة أو مرئية عن أشياء لا علاقة لها بالحقيقة ، الظاهر شىء والباطن شىء آخر .

دائمًا عندما أقف أمام ظواهر عديدة فى حياتنا تبدو فيها المبالغة بالقياس إلى الواقع الفعلى أتذكر الحاج أحمد وأولاده ، ومقهاه السياحي الدولى . وفى الأسبوع الماضى تذكرته مرات عديدة ، خاصة عندما كنت فى الطريق إلى الغردقة .

المحطة الدولية:

رغم أن عدة سنوات مضت على لقائى بمقهى الحاج أحمد عوض وأولاده إلا أننى استعدته بقوة وأنا أقف صباح الثلاثاء الماضى مستعدًا لركوب السيارة المتجهة إلى الغردقة .

إنها المحطة الدولية . .

تقع فى شارع الجلاء قرب فندق هيلتون ، اللافتات تشير إلى عدة شركات قطاع عام تعمل من هنا ، لكل منها كشك خشبى لقطع وحجز التذاكر ، وفوق الرصيف صفوف من المقاعد المصنوعة من البلاستيك ، حافلات ضخمة من أحدث طراز مجهزة للرحلات الطويلة ، بعضها داخل مصر ، ورحلات خارجها ، إلى الخليج ، إلى الأردن ، إلى سوريا . . إلى استانبول .

حقًا . . هذا رائع أن تبدأ من القاهرة هذه الخطوط الدولية ، ومن الطبيعى أن تكون نقطة الانطلاق تلك المحطة التى هى بالطبع وبحكم الوظيفة والمضمون دولية ، سياحية .

ولكن المكان لا علاقة له بالدولية أو السياحة أو النظافة أو المظهر الحسن ، حتى فى الحد الأدنى . مساحة الأرصفة ضيّقة ، والمقاعد متسخة ، ورغم وجود ما يشبه المظلات إلا أن الهواء المندفع عبر السور الذى يفصل الرصيف « الدولى » الضيق عن الطريق الخلفى ، ينفذ مباشرة إلى الأجساد ، ترى . . كيف تكون الأحوال فى الأيام شديدة البرد ؟

توجد دورة مياه واحدة ، كتب فوقها بخط ردئ . . « للعاملين فقط » .

حقًا . . لماذا العاملون فقط ؟ ، والركاب . . ألا يقضون حاجتهم مثل العاملين ؟ وماذا يمكن أن يحدث إذا ضغطت الحاجة على راكب ، طفل كان أو رجلاً أو امرأة ؟

أثناء انتظارى الحافلة درت حول الرصيف الدولى ، طبعًا . . اكتشفت أن الركاب يقضون حوائجهم خلف الجدار ، ولكن

الأغرب أن دورة المياه المخصصة للعاملين فقط تصب مباشرة فى حفرة بالطريق الخلفى ، ولنا أن نتخيل الخلفية الدولية التى يستخدمها الآلاف يوميًا منطلقين إلى داخل مصر وخارجها .

تذكرت تدهور مستوى الخدمة فى القطارات خلال السنوات الأخيرة ، وأجهزة التليفونات التى بدأت الأعطال تظهر فيها مرة أخرى بعد تحسن ملحوظ ، قلت لنفسى وأنا أقف فوق رصيف المحطة الدولية الذى لا يزيد عرضه عن مترين بينما تتزاحم الحافلات الضخمة مثل الديناصورات فى المكان الضيق ، قلت لنفسى : وماذا ننتظر من مرفق المواصلات سواء كانت برية أو هاتفية أو بحرية ، محلية أو دولية إذا كان المسئول الأول عن هذا المرفق قد أمضى فى موقعه أكثر من خمسة عشر عامًا ، ماذا يمكن أن يعطيه الإنسان إذا أمضى هذه المدة كلها فى موقع واحد ، الإدارة إذا لم تتجدد ، إذا لم تعرف تغيير الدماء التى تجرى فى الشرايين فإنها تتيبس وتركد ، وهذا ما يجعل التغيير ضرورة حتمية ، ربما قال البعض إن تغيير السياسات أهم من تغيير الأشخاص .

أقول عن خبرة ودراية بتاريخ مصر ، وطبيعة الإدارة فيها ، أن الشخص هو الأساس ، الإدارة هى المجرى الثابت للنهر منذ العصور القديمة ، والبشر هم الذين ينظمون هذا النهر وجريانه ، فإذا وهنوا أو تقاعسوا أفلت التيار ، واندفع هادرًا ، معربدًا ، عندئذ لا يمكن لنا أن نصفه لا بالدولى ولا بالسياحى ولا نعرف من الذى يدير بالضبط ، الحاج أحمد أم أولاده أو . . العاملين فقط ؟

مش عارف أنا مين ؟

أحمر . .

أخضر . . وتأهبت لعبور شارع الجلاء المزدحم ، المرتبك ، والذى يحار الإنسان - خاصة الغريب عنه - فى فهم مسارات المرور فيه ، دائمًا أعبره بحذر ، حتى مع إضاءة الأخضر لأننى أعرف عدم إحترام الكثيرين للإشارة ، رغم وقوف مساعد شرطة (صول) ينظم المرور بحسم وكبرياء ، وكثيرًا ما أرغب ملاحظته فى الصباح وهو يؤدى واجبه بمثالية رائعة .

فجأة . . انطلقت عربة ملاكى بسرعة كبيرة متجاوزة السيارات التى توقفت ومهددة المشاة الذين بدا على بعضهم رعب حقيقى ، أطلق الصول صفارته ، وفى حركات منضبطة أشرع قلمه وكتب رقم السيارة .

بالتأكيد . . لمح سائقها كتابة النمرة ، تصاعد صوت الفرملة المفاجئة ، توقفت فى مفترق الطرق ، نزل منها رجل فى منتصف العمر ، قوامه « انفتاحى » ، غليظ الرقبة ، منتفخ الصدر ، هذه البدانة التى تنمو فجأة ، يمسك بسلسلة مفاتيح ذهبية ، لم يهتم بإغلاق باب العربة حديثة الطراز . . اتجه مباشرة إلى الصول . .

« بتاخد النمرة ليه ؟ »

تطلع إليه الصول بقامة عسكرية مشدودة ، فى هذه اللحظة انتبهت إلى ملابسه البيضاء ، رغم قدمها وظهور محاولات مد عمرها من رفى وإعادة خياطة إلا أنها كانت نظيفة ، مكوية ،

بعكس معظم جنود الشرطة الذين تبدو ملابسهم الميرى رثة ، بل وفى بعض الأحيان ممزقة تثير الشفقة !

« واضح إن سيادتك كسرت الإشارة . . »

صاح الرجل الممتلئ بلهجة آمرة توحى بالنفوذ والمكانة . .

« بص . . شوف بتكلم مين . . »

لم يفقد الصول أعصابه ، أشار إلى السيارة المتروكة فى عرض الطريق .

« ودى مخالفة كمان . . »

هنا ازداد الزعيق ، حقًا . . حنجرة غليظة ، ممتلئة . .

« اسمك إيه . . ورينى نمرتك . . »

بنفس الهدوء أجاب الصول

« أنت تعطل المرور بعد مخالفته . . »

« اتكلم عدل . . »

استدار الصول لينفخ فى الصفارة آذنًا للسيارات أن تنطلق ، غير أن معظمهم كان يتابع الحوار ، بينما توقف بعض المارة الذين أبدوا تعاطفًا مثلى مع الصول القديم الذى يعرفه كثيرون من أصحاب السيارات وسائقى عربات الأجرة والنقل العام ويبادلونه التحية والمودة فى الصباح .

صاح الرجل الممتلئ

« أنت مش عارف أنا مين ؟! »

الصفارة ترددت ثلاث مرات ، بدأت حركة السيارات ، اتجه الرجل نحو عربته زاعقًا . .

« أنا حوريك . . حتشوف لما تعرف أنا مين ؟ »

استمر الصول فى أداء واجبه بهدوء ، وكبرياء ، بينما ارتفع صوت احتكاك العجلات قبل انطلاق السيارة المخالفة ، وعندما التقت عيناى بعينى الصول المجهدتين ، ابتسمت متعاطفًا

« ولا يهمك . . »

قال بهدوء مشيرًا فى اتجاهه . .

« عندى أولاد قده . . »

عبرت الطريق متمهلاً وعندى حال ، لم أشأ أن اتجه مباشرة إلى المكتب ، إنما أويت إلى مقهى يقع فى مواجهة مبنى أخبار اليوم ، رحت أستعيد التفاصيل .

« مش عارف أنا مين ؟ »

تتردد هذه العبارة كثيرًا فى الحياة اليومية ، خاصة فى الطريق العام ، أو بعض وسائل المواصلات ، وبقدر ما تعكس خللاً فى الحياة الاجتماعية والبنية ، بقدر ما تعكس الفراغ الداخلى للمتفوه بها ، لأن الإنسان الذى يعرف الناس هو « مين » لا يعلن عن نفسه بهذه الصورة الفجة ، والإنسان الذى يعرف هو « مين » ، لا يستعرض نفوذه ولا يميل على الضعيف ، سواء كان هذا

الضعيف أقل مرتبة ، أو موظفًا بسيطًا ، أو عابرًا للسبيل على قدميه ، وفى الغالب الأعم أن الإنسان الذى يصيح متسائلاً ، « مش عارف أنا مين ؟ » ، يكون لا « هو » ولا « مين » ، داخله فارغ ، وظاهره ممتلئ ، تمامًا كالطبل الأجوف .

تذكرت واقعة قرأتها منذ أسابيع عن سيدة شابة اصطدمت سيارتها بسيارة تقودها سيدة أخرى ، وقعت بينهما مشادة ، صاحت الشابة الأولى . .

« أنت مش عارفة أنا مين . . أنا حخلى بابا يوريكى . . »

نفس المنطق ، مع الإحالة هنا إلى « بابى » ، مع أن الإعلان عن ذلك فيه إعلان بالضعف ، لأن القيمة ليست فى الشخص نفسه ولكن في الأب أو الأم أو فى علاقة ما بشخص ما يحتل مركزًا أو موقعًا يمكن أن يلحق به الأذى بآخرين إرضاء لأشخاص هو يعرفهم ، وبالطبع يكون صاحب النفوذ هذا هو الذى لا يقول « مش عارف أنا مين ؟ » لأنه « المين » نفسه ، وإذا كان « مين » هذا يملك القدرة على التدخل والإيذاء فإنه يستطيع أن يتجاوز المجتمع بقوانينه وأعرافه لإرضاء نزواته ، واضطهاد من يقف فى طريقه .

مالكة عمارات شهيرة ذهب إليها أمين شرطة بمحضر مخالفة قوانين البناء ، رفضت استلامه ، وقالت :

« تحب أكلملك مين يا بنى . . »

المشكلة فى « مين ؟ » هذا .

أنت مش عارف أنا مين ؟

تحب أكلملك مين ؟

هكذا تعكس اللغة انفلات المجتمع ، وخلله ، والاستهانة بالقوانين ، والنظم ، أما لهجة الصول فلن أنساها أبدًا ، بل الحق .. إنها أوجعتنى ، آلمتنى بما فيها من احتجاج مكتوم ، وضيق غير معلن ودهشة لما صارت إليه الأحوال .

« عندى أولاد قده .. »

لم أسأله ، ولكنه يحمل ملامح مئات الآلاف من الآباء البسطاء الذين يقفون مثله فى الطل والحر والزمهرير أو يسعون هنا وهناك ، ليكفلوا اللقمة الحلال والظرف المناسب لتعليم الأبناء وصيانتهم ، أو كما قالت لى سيدة كادحة يومًا عن أولادها الذين تخرجوا من الجامعة ..

« أنا أقدم للبلد زرعة نظيفة .. عملت اللى عليا .. المفروض المجتمع يعمل اللى عليه .. »

ربما كان لهذا الصول أبناء فى مواقع هامة ، وصلوا إليها بعرقهم ، وكد والدهم الذى منعته أصالته ، وكبرياؤه ، والتزامه بالقيم الحقيقية أن يرفع صوته فى مواجهة العدوان عليه ، وأن يعلن ..

«هما مين ؟»

فى الأوبرا:

حتى يوم الجمعة الماضى لم أعرف من الأوبرا إلا مسرحها ، سواء كان الكبير أو الصغير ، ولكن ثمة عالم متكامل يقع فى الناحية الأخرى من المبنى ، حيث صالات التدريب وقاعات البروفات ، و .. المركز التعليمى لتنمية المواهب الفنية ، وعن هذا المركز بالتحديد أتحدث وألفت الأنظار ، بدأ المركز رسالته منذ حوالى عام فقط ، يديره الدكتور سيد عوض المؤلف الموسيقى وقائد الأوركسترا ، ويقوم بالتدريس فيه عدد من كبار فنانينا ، فى مقدمتهم عازفة البيانو الشهيرة مارسيل متى ، وفنانة الأوبرا ڤيوليت مقار ، وأساتذة من روسيا . مهمة المركز إعداد عازفى المستقبل من أصحاب المواهب ، نظام الدراسة به لا يتعارض مع برامج الدراسة العادية ، وبصبر وبدأب مصرى أصيل يقوم الأساتذة بتلقين الصغار أسرار الفن وتنمية ملكاتهم وصقلهم وتقديمهم إلى الجمهور ، يدير العمل الفنان سيد عوض الذى اشتعل الرأس منه شيبًا ولكنه ما زال يواصل مهمته فى رعاية المواهب وتقديم الكبار ، تلك هوايته الكبرى إلى جانب التأليف الموسيقى .

يوم الجمعة الماضى أمضيت ساعتين ونصف من المتعة والتذوق والأمل ، المتعة فى الإصغاء إلى مقطوعات موسيقية عالمية ، وإلى

غناء أوبرالى رفيع ، والتذوق للمستوى الرفيع الذى بدا من مجموعة فنانين صغار بلغ عددهم حوالى الثلاثين ، عازفو بيانو وكمان وتشيللو وكونترباص . . لو أنهم واصلوا المسيرة وتخرج من بينهم عازفون كبار فإن ثروة إنسانية وفنية تضاف إلى تراث هذا البلد المعطاء الفنى بالمواهب إلى حد لا يصدق .

فى هذا المركز يتم صقل مواهب نادرة ، ومثل هذا النشاط جدير بالدعم المعنوى والمادى من المجتمع والإعلام وخاصة أجهزة وزارة الثقافة .

حوار بالسرينة ..

مدينة سوهاج . .

ديسمبر الماضى .

نادى الشرطة المطل على النيل ، والنيل الصعيدى هنا مغاير لنيل القاهرة الذى حاصرته العمرات العشوائية ذات النجوم الخمس والنوادى ، والمشاتل غامضة المظهر ، المسورة التى توحى مداخلها بأصحاب النفوذ ، ما زال النيل فى الجنوب أقرب إلى صورته الأصلية ، وإذ يقترب منه الجبل فإن لوحة رائعة تتشكل لا مثيل لها فى العالم ، جمال فريد ، راسخ ، وقور ، موحى وإن بدا صامتًا كنت أتأهب لتناول الغذاء بصحبة عدد من الأصدقاء وخلال الحديث أرسل بصرى الى منحنى النهر والجزيزة التى تتوسطه والأفق الفسيح ، والبيوت المسكونة بالأسرار على الشاطئ الآخر ، كنت أحاول الأصغاء إلى ما فنى وتبدد من أصوات بشر ، ومخلوقات شتى ترددت فى هذا المكان عبر ملايين السنين ، وكان يجمح أحيانا فأتخيل أن هذه الحيوات القديمة المندثرة يمكن أن تكون مستمرة فى مكان ما ، هناك عند الشاطئ ، عند الجبل ، فى مكان ما من الفراغ اللانهائى . .

فجـأة..

أفقت من تأملاتى وسرحاتى بالخيال على صوت حاد ، مزعج، بدا كالعواء الطويل الغامض فى فضاء المدينة الهادئة العبقة بروح الجنوب ، عواء فعلا ، أصوات «السارينات» المركبة فى عربات الحراسة الحكومية ، والدرجات البخارية حديثة الطراز التى يمتطيها جند مدربون ، سألت أحد الأصدقاء .

كنت مفاجئاً بحق ، فالنيل جميل ، وديع ، والفراغ رحب ، والشمس حانية ، واللحظة مهيئة تماما لنسيان العنف السارى والهموم المتراكمة . ومثل هذا العواء لا يتردد فى الشارع المصرى سواء فى العاصمة أو المدن النائية إلا فى حالات استثنائية ، منها مرور مسئول كبير ، جليل القدر والمهابة ، أو خروج عربة إسعاف أو مطافئ الى الطريق المزدحم فى محاولة للوصول إلى موقع حادث أو حريق ، ويكون الغرض هو تنبيه القوم الراكبين والراجلين لإفساح الطريق . ومنذ سنوات كانت «السرينة» تحترم ، ولكننى ألاحظ الآن إستهانة القوم بها ولكم رأيت سيارات إطفاء تصرخ أو عربات إسعاف فى إشارات مزدحمة وطرق مختنقة فلا يفسح سائق طريقًا ، ولا يبدى أحد اهتماما ، مع أن الحريق نيرانه لا تعرف التمهل ، وربما يكون فى داخل عربة الإسعاف من هو على وشك أن يلفظ أنفاسة ، وفى أوروبا تكون العقوبة كبيرة إذا أعاق أحد حالات الطوارئ تلك فى الطريق العام ، وقد رأيت فى باريس شارع ينتفض لأن عربة أسعاف أطلقت (سرينتها) و (السرينة) هناك مختلفة عن (سرينتنا) ، (السرينة) الفرنسية هادئة ، خجولة ، ضعيفة ، ولو لا أن صديقى فسر لى الموقف لظننتها عربة عابرة عادية تلح لأمر ما ، أما (سرينتنا) هنا وفى البلاد العربية التى زرتها فعالية ، مزعجة ، آمره . مثيرة للاكتئاب أحيانا ، إنها طبيعية السلطة هناك وهنا . . ما علينا ، فلنبق فى سوهاج ،

سوهاج مدينة هادئة ، جميلة ، جنوبية القد والملامح ، شوارعها لا تعانى أى أزمة مرورية ، إذن . . لماذا إطلاق (السرنية) بهذه الكثافة ، وتلك الطريقة . .

«ماذا جرى؟ »

قال صاحبى مبتسمًا . .

«إنه الحوار . . »

قلت بدهشة :

«أى حوار ؟ أننى أسأل عن سبب إطلاق السرينة . .»

قال :

«هذا يعنى أنهم وصلوا من نجع حمادى . . »

تساءلت .

«من هؤلاء ؟ »

مال إلى الأمام قليلا قال :

«السيد وزير الأوقاف وفضيلة المفتى . .»

أومأت مدركا ، لقد جاءا من أجل الحوار مع المتطرفين ، لمواجهة الشباب الذى استغلت قوى الإرهاب بطالته وضياعة وانسداد الأمل أمامه ، جاءا للتوعية ، كانت الساعة الثالثة ظهرا ، لاحظت أنه صاحبى يستخدم الألقاب فى الحديث ، إذ أنه موظف رسمى هنا ، ونزول وزير فى مدن الصعيد

الجنوبية ما زال أمرًا جللاً ، وحدثًا خطيرا ، هذا الصعيد المنسى البعيد ما زال أهله ينظرون بحذر الى أى زيارة رسمية ، وفى قراه النائية كان ظهور ضابط شرطة فى إحدى القرى ، خاصة مأمور المركز كارثة على العمدة ، وبالتالى على رءوس الأهالى ، فلابد من تدبير الضيافة ، ومن أراد التوسع عليه بقراءة مذكرات راحلنا الكبير يحيى حقى فى «خليها على الله» ، وما زلت أذكر حادثة لا أدرى مصدرها الآن عن مسئول كبير جدا زار إحدى قرى الصعيد فتقدم منه مواطن يرجوه أن يتوسط له عند الغفير فى حاجة يريد قضائها . نعم . . لحقب زمنية طويلة ، فى قرى عديدة لم تعرف من السلطة الحاكمة إلا الغفير أو العمدة ، ميراث طويل طرفاه القسوة والحذر ، منذ زمن الكشاف والانكشارية والملتزمين وغيرهم .

رصد أستاذنا يحى حقى - رحمه الله - ظاهرة بالغة الأهمية عند ما يتجه أحد القرويين فى ميدان المحطة (باب الحديد) الى أحد الأفندية للسؤال عن عنوان ما ، يصغى جيدا ، ثم يمضى بهدوء مظهرًا الشكر والأقتناع ، ولكن بعد عدة خطوات يتوقف ليسأل أحد عن نفس العنوان !

ما من ثقة بين المدينة والقرية !

حتى عندما تتظاهر المدينة بالتنازل ، والتقرب والحرص على الأطراف ، فإن ذلك يكون حبرا على ورق فى الغالب ، رأيت بنفسى كيف كانت أوامر محافظة أسيوط السابق (وزير الداخلية

الحالى) تتحطم فى مواجهة الفساد والبيروقراطية الغنية ، مع أن المحافظ لدية سلطات رئيس الجمهورية ، ولكن أوامر باتخاذ إجراءات تعالج الإرهاب وتتصدى للفساد المستشرى لم تكن تنفذ ، لماذا ؟!

لأن أمين الحزب الوطنى فى المحافظة مدعوم من بعض الشخصيات الكبيرة من المدينة الأم ، من .. مصر ، أو كما تعرف رسميا القاهرة والمسئول الأمنى وقتئذ كان ينفذ سياسة الوزير التابع له ، والذى أحس بشكل ما أن محافظ أسيوط اللواء الألفى مرشح ليخلفه ، التفاصيل هنا مرعبة ، والأمل أن أكتبها يومًا ، فلأعد إلى سوهاج .

زلع .. زلع !

الغريب ، خاصة إذا كان أفنديا ، معاد إلى أن يثبت العكس هذه قاعدة فى كافة قرى الصعيد ، وربما فى الوجة البحرى الأبيض .

عندما أخرج إلى بر مصر الجنوبى أو الشمالى لتنفيذ بعض حالات المساعدة الإنسانية ، عند وصولنا الى الجسور أو المداخل المؤدية إلى القرى نتوقف لنسأل عن عنوان الشخصية التى نسعى الى تقديم المساعدة لها ، عندئذ يكون الجواب فى صيغة سؤال ..

«أنتم مين ؟ ..»

ثم يجئ آخرون وتتوالى الاستفسارات ، ولا يستجيب القوم إلا بعد التأكد من أننا جئنا فعلا للخير ، عندئذ يتسابقون ، هذا الحذر قديم ، كامن على ضفتى النيل منذ جريانة ، وبدون فهم

دقيق لطبيعة الناس ، وعمل حقيقى لتغيير ظروفهم إلى الأفضل نسبيًا ، فلا فائدة من أى جهد ذى طبيعة إعلامية أو سياحية .

هكذا رحت أفكر وأقلب الظروف . أثناء انطلاق (السراين) فى فضاء المدينة معلنة عن وصول الشخصيتين الكبيرتين للحوار ولشرح الموقف !

كان الناس يصغون إلى أصداء (السراين) ويستدلون منها على الجهة التى توجهوا إليها ، هكذا قال لى الرجل صاحب المقهى القريب من النادى :

«أنهم فى استراحة المحافظة الآن ..»

قال إنهم قدموا من نجع حمادى ، ولابد أن يستريحوا قليلا ، بعد لحظات عاد ليقول ..

«بيتغدوا ..»

لم أسأله ، كيف عرف أنهم يتناولون الغذاء الآن ، إذ لفت نظرى نطقه للكلمة «بيتغدوا ..» ، كانت هناك عدوانية ما ، وغيظ ، وفضول ، تذكرت سيدة فى حارتنا القديمة لم تكن تعرف لفظ «كلوا» ، لم أسمعها تقول إلا «اطفحوا» ، نفس الإيقاع ! كانت المدينة تتابع حركة الضيوف الكبار فى الاستراحة ، فهم الآن « يستريحوا .. » أو « يأكلوا .. » أو «ناموا .. » ، صاح أحد الجالسين بالمقهى :

«أمال يا بوى .. بيأكلوا فروج مشوى ..»

وداربت ابتسامة ، ليس للهجة الساخرة التى نطق بها ولكن لأن أقصى أنواع الطعام الفاخر عنده هو الفروج المشوى ، قلت لنفسى

«والله تقدمنا » ، عندما قامت ثورة يوليو قال البعض فى مجاهل الصعيد : «يا بوى » . . ودخلوا قصر عابدين لقوا فيه العسل الأسود زلع زلع . .»

نصف قرن تقريبا ارتقت فيه المخيلة من العسل الأسود إلى الفروج المشوى . لا بأس .

خرجت من المقهى الى كورنيش المدينة ، التقيت بزملاء صحفيين تخصصوا فى تغطية أخبار وزارة الأوقاف وهيئات أخرى ذات علاقة صافحتهم وتبادلنا الحديث ، قالوا أنهم جاءوا لتغطية الحوار وهناك التليفزيون أيضًا ، قلت لنفسى ، الصحفيون الزملاء والإذاعة والتليفزيون . كل هؤلاء جاءوا من أجل الحوار ، الحرار مع من ؟

طبعا مع الأرهابيين ، لكن . . أين هم الإرهابيون ؟ هل سيظهرون ملثمين ، حاملين رشا شاتهم ، وهل سيسمح لهم بدخول السرادق بمظهرهم هذا ، كيف سيجلسون ؟ ، تخيلتهم فى مزارع القصب الكثيفة ، وفى مخابئهم داخل حصول الذرة ، أو فى مغارات الجبل ، هل سيجيئون من هناك ؟ أم أنهم أدركوا بعض تفاصيل الحوار من (السرينة) التى ارتفعت فى مزارع المدينة .

تخيلت السرادق المعد ، المحاط برجال الشرطة ، وكبار المسئولين فى المحافظة وهم يستقبلون الكبار جدا القادمين من القاهرة ، بينما الشباب المنتقى بعناية ، يجلس فى المقاعد ، يتظاهرون بأنهم مضللون والسادة فوق المنصة يتظاهرون بأنهم يتحاورون وأنهم

يواجهون الإرهاب ، حقا . . كم من الجرائم ترتكب الآن باسم التصدى للإرهاب ، ولا تقل فى خطورتها عن الآثار المدمرة للإرهاب نفسه . تذكرت لسبب ما ، هذا الأستاذ الجامعى الذى وقف فى معرض الكتاب العام الماضى ، يعرض خططه لمواجهة الإرهاب ، ويؤكد أنه سوف يحتفظ ببعض التفاصيل لتقديمها إلى كبار المسئولين ، ثم ظهرت مقالاته فى الصحف ، وخطا خطوة كبيرة عندما ظهر فى البرنامج الذى يقدمه أحمد سمير بعد نشرة الأخبار والمخصص للشخصيات المرموقة أو تلك التى يجرى (تلميعها) ، أجهزة الدولة بدأت تجمع المعلومات عن هذا الأستاذ المشتاق ، وإذا بالمفاجأة تقع ، فسيادته فصل من إحدى جامعات الدول العربية لأسباب أخلاقية ، وبناء عليه فصل من جامعة الأزهر التى كان يدرس بها أصلا .

لابد أننى سوف أرى الحوار فى التليفزيون غداً أو بعد غد ، السيد وزير الأوقاف بابتسامته الشهيرة ، وهيئته الممتلئة الموحية بالتجشؤ الناتج عن آكله دسمة .

سألت زميلى المسئول عن برنامج الزوار الكبار منذ وصولهم مدينة سوهاج ، لم أجد فرقا كبيرا بين الخطوات التى أتبعها الزوار وتلك التى تخيلها أهالى المدينة . فجأة . . ارتفعت (السراين) تطلع زميلى إلى ساعته بينما كانت (السرايين) تملأ المدينة بعواء أشد وأقوى ، قال معتذرًا عن مواصلة الحديث :

«لا مؤاخذة . . الحوار بدأ . .»

تـلـك الأنـامـل ..

أحيانا أقرأ جملة أو عبارة أو بيتًا شعريًا يثير عندى مشاعر وأفكارًا وتأملات شتى ، هذا ما جرى لى أثناء قراءة كتاب نادر من مصادر التاريخ المصرى فى العصر العثمانى ، إنه تاريخ الإسحاقى المنوفى المعروف بأخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ، طبع منذ أكثر من مائة عام فى القاهرة وأصبحت نسخة أنفس من المخطوطات . وهو تاريخ عجيب ، يتدفق بالحيوية يقضى التاريخ من وجهة نظر الذاكرة الشعبية ، غير أننى توقفت فيه عند حادثة يرويها المؤلف ، شاهدها بنفسه . يقول الإسحاقى : «وقد شاهدت فى سنة ست وتسعين وتسعمائة (هجرية) أعجوبة لا بأس بذكرها إن كانت خارجة عن المقصود وهو أن شخصا يدعى الأمير سليمان بن أحمد بن أزدمر المشهور بالأضرس الجركسى الأصل وهو من أعيان عشر مصر حضر إلى محكمة منف ، وأبرز من يده حبة أبرز مكتوبًا عليها ما قرأته وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

كتبه محمد سنة ٩٩٤ . وشاهد ذلك قضاة المحكمة المذكورة وشهودها وما من شخص منهم إلا وقرأ ذلك مرة أو مرتين .

ثم يقول الإسحاقى أنه شاهد حبة الأرز بنفسه وقرأ ما عليها أكثر من ثلاث مرات ، وتأمل حروفها تأملاً شافياً وشاهد جرة كل بسملة ، والشافات المبسوطة ، واسم هذا الخطاط العبقرى الذى إلا نعرف الا اسمه الأول «محمد» . . ثم يقول المؤرخ ما نصه :

«فرحم الله كاتبها وعفا عنه بمنه وكرمه ، فانظر يا أخى كيف يلم التراب مثل هذه الأنامل . .»

تلك هى الجملة التى استوقفتنى و الطريقة التى قيلت بها ، «فأنظر يا أخى كيف يلم التراب مثل هذه الأنامل . . » ، لقد حاولت أن أتخيل آلاف الأنامل التى أبدعت مثل هذا الخط الجميل أو تلك التى عزفت على الأوتار فاستخرجت الأنغام الرقاق ، أو مزجت الألوان فى لوحة أو منمنمة ، أو خطت سطورًا من قصيدة أو رواية ، أو حملت حجرًا لتضعه فى صرح كبير ، مسجد أو بيت ، كل هذه الأنامل - يا أخى كما قال الإسحاقى المنوفى - كيف يلمها التراب ! ، وفى مثل تلك العبارة يمكننى أن

أضع كتابًا من آلاف الصفحات ، رحم الله الإسحاقى المؤرخ ، فقد احتوى التراب أنامله أيضًا وسبحان الباقى دائمًا .

مئذنة الأزهر..

لا أمر بشارع الأزهر وتقع عيناى على مئذنة الغورى ذات الرأسين إلا ويدمى قلبى . فى أكتوبر الماضى نال الزلزال منها وأسقط جوسقيها ، وكنت أظن أن الأيدى سوف تمتد بسرعة وتعيد الأهلة المعدنية إلى أماكنها فيكتمل مشهد المئذنة السابقة ، ولكن . . حتى يومنا هذا تطالعنى المئذنة برأس مقطوشة ، وهيئة ناقصة تعبر عن أقوى إدانة لهؤلاء المسئولين عن هيئة الآثار الآن . لقد قامت الدنيا وتوالت التصريحات عن عمليات الترميم التى ستجرى للآثار التى نال منها الزلزال ، ولو فتحت الحديث الآن فلن ينتهى عن أعظم مساجدنا التى قد تسقط بين لحظة وأخرى ، ولكننى أكتفى بالإشارة إلى مئذنة الغورى ، أحد أهم المعالم المعمارية للأزهر .

مجرد وضع الأهلة المعدنية التى أسقطها الزلزال .

هل هذه العملية البسيطة تحتاج إلى تأجيل ؟ ، هل تقتضى استيراد أجانب ؟ ، منذ أسبوعين أشار الأستاذ عبد العزيز صادق فى مجلة أكتوبر إلى سقوط الأهلة ، وكأنه يؤذن في البرية ، ومع كل كارثة تحل أو توشك بآثارنا الإسلامية لا أجد على شفتى إلا عبارات الرحمة على الشهيد أحمد قدرى رئيس الهيئة الأسبق ، رحمه الله .

ثلاثون سنة

علامتان . .

نقطتان متميزتان فى مسيرة عمرى ، دائمًا ألتفت إليهما ، أستعيدهما ، شأن من قطع رحلة استغرقت حتى الآن حوالى نصف قرن ، عندئذ يستعيد الإنسان ما كان أكثر من التطلع إلى ما سيكون .

الأولى . . تقع فى أحد أيام سنة تسعة وخمسين وتسعمائة وألف ، عندما شعرت بدافع غامض يحركنى للكتابة ، حقًا . . ما أغرب قوانين الذاكرة الإنسانية ، أذكر كافة التفاصيل فى حجرة مسكننا وقتئذ بحارة درب الطبلاوى بالجمالية ، ودرجة الضوء ، بل إرى إنحنائى وأصابع يدىّ متشابكتان ، تمامًا . . كمن يرى نفسه فى الحلم ، لكننى لا أستطيع تحديد اليوم ، جمعة أو سبت ؟ ، لا يمكننى تحديد الفصل ، خريف أم ربيع ؟

فى هذه اللحظة شرعت ، وبدأت ، ولم أتوقف حتى الآن ، ولمدة أربع سنوات حاولت أن أنشر ما أكتب ، وجدت من مدّ لى يد العون ، وقد أفضت فى الحديث عن ذلك من خلال شهادتى المنشورة فى مجلة فصول ، حتى حانت اللحظة التى أنتظرتها وسعيت من أجلها ، فى أول يوليو سنة ثلاثة وستين وتسعمائة وألف ، فى مجلة « الأديب » اللبنانية ، نشرت لى قصة «زيارة» وفى نفس اليوم نشر لى مقال عن كتاب قرأته مبكرًا وأثر فىَّ تأثيرًا كبيرًا هو « القصة السيكولوجية » تأليف « ليون ايدل » ، ظهر المقال فى مجلة الأدب التى كان يصدرها الراحل العزيز الأستاذ أمين الخولى وفيما بعد نشر لى عددًا من القصص .

هذا الأسبوع ينقضى ثلاثون عامًا على نشر أول قصة وأول مقال ، قلت فلأستعد بعضًا مما كان ، فالرحلة طويلة ، والطريق وعر ، ولا أدرى متى أحط الرحال .

● عرفت مجلة (الأديب) من رصيف الأزهر ، عندما اشتريت مجموعة كاملة منها تضم حوالى عشر سنوات بخمسين قرشًا فقط وكان ذلك فى بداية الستينات ، كان يصدرها المرحوم ألبير أديب ، غلافها لم يتغير تصميمه منذ الأربعينات ، واكتشفت أنها تصدر بانتظام وتصل إلى القاهرة فى الأسبوع الأول من كل شهر ، أرسلت عبر البريد قصتى القصيرة « زيارة » ، لا أذكر بالضبط المدة الفاصلة بين إرسالى للنص ، ونشره ، ولكننى أثق أن ذلك لم يستغرق وقتًا طويلاً ، بالتأكيد كانت لحظات متأججة بالانفعال والإحساس بالمسئولية ، فلحظة رؤية القصة أو القصيدة منشورة هى آخر مرحلة فى العلاقة بين الكاتب وإبداعه ، فى بداية ميلاد الفكرة يكون الأمر شبيهًا بالمراحل التى يتكون فيها الجنين ، مجرد بذرة لا يمكن رؤيتها إلا بالمجهر ، لكنها تحوى الخصائص كلها ، والأزمنة بأبعادها ، يبدأ تجسد الفكرة بمجرد تدوين خاطرة حولها ، ثم يكتمل التكوين شيئًا فشيئًا ، من كتابة أولى ، إلى ثانية إلى الصورة النهائية التى يشعر فيها الكاتب بالاطمئنان والرضى ، حتى إذا نسخت القصة أو القصيدة على الماكينة الطابعة ، فإن أول درجة من الإنفصال تقع هنا ، عند هذه المرحلة تكتمل مسافة يمكن لى أن أرى بعض الأخطاء التى لم يمسك بها وعيى أو بصرى من قبل ، حتى إذا وجدت القصة طريقها إلى النشر يتم الانفصال والإتصال معًا ، فالجنين الذى كان فكرة أصبح له وجود مستقل ، اكتمل وأصبح يتعامل مع الآخرين ، إنه فى مجلة أو كتاب ، موزع فوق الأرصفة ، وفى أكشاك الصحف ، والمكتبات ، هناك قارئ مجهول للمؤلف ، فى قرية قاصية بالصعيد ، أو مدينة عربية

أو أوروبية نائية . وإذا ترجم العمل الأدبى فإن درجة أكبر من الإنفصال تتحقق ، تمامًا مثل الابن الذى سافر إلى بلد بعيد وتزوج فأنجب أحفادًا لا يعرفون العربية ، مشاعر غريبة ، غامضة ، تستعصى على الوصف أو التفسير عندما أتأمل رواية لى مترجمة إلى لغة لا أعرف حتى حروفها أو أبجديتها ، لقد أصبح العمل الأدبى الذى كتبته يومًا ما فى القاهرة ، باللغة العربية ، جزء من أدب آخر وثقافة أخرى ، عندئذ قد يتساءل الكاتب إذ يرى روايته بالصينية أو الأسبانية أو الأوزبكية «هل يمت إلىّ هذا العمل حقًا؟»

كثيرًا ما أتأمل ذلك الهدوء العميق الذى يتلقى به أديبنا الكبير نجيب محفوظ أنباء ترجمة مؤلفاته إلي العديد من لغات العالم ، يبدو الأمر وكأنه يخص شخصًا آخر ، أبناء سافروا واغتربوا وابتعدوا ، هل يملك الإنسان عندئذ إلا الشعور بالحنين ، وإستعادة ما مضى ، عندما كان الليل يمضى قلقًا ، وعرًا بسبب وهن أصاب أحد هؤلاء الأبناء ، لا يعرف عذابات الإبداع الأدبى أو الفنى إلا من كابدها ، خاصة فى اللحظات الصعبة التى تبرز خلالها المشاكل والعثرات .

ماذا يتبقى من هذا كله بعد مضى السنوات الطوال ورؤية العمل مطبوعًا أكثر من مرة وفى لغات شتى ؟ ، لو قدر للإنسان أن يرى عاشر أحفاده مثلاً فربما يكون ذلك الشعور مشابهًا ، يتأمله ، يتفحصه ، لكن هذا من عصر وذاك من زمن آخر ، إنه من صلبه ، ولكن . . ماذا يجمعهما إلا الحنين الغامض والمشاعر المستعصية على الفهم ؟

* * *

حملت قصتى الأولى عبر رحلتى اليومية من الجمالية إلى الدقى حيث كنت أعمل وقتئذ ، كنت أعبر كوبرى قصر النيل يوميًا ماشيًا على قدمى ، لأسباب عدة أهمها لقاء الأستاذ نجيب محفوظ الذى كان يجئ ماشيًا من الجهة المقابلة ، من بيته فى العجوزة وحتى مبنى التليفزيون فى ماسبيرو ، كان يعمل وقتئذ مستشارًا لمؤسسة السينما ، حرصت دائمًا على أن ألقاه أمام البوابة الرئيسية للمعرض ناحية تمثال سعد زغلول ثم أصحبه عائدًا حتى نهاية الجسر حيث أودعه ، كان ذلك المشوار اليومى نقلة هامة فى علاقتى به التى بدأت فى كازينو الأوبرا ، لكننى هناك كنت ألقاه فى جمع ، وهنا فوق الكوبرى أتحدث إليه منفردًا ، فى يوليو ١٩٦٣ ، كانت الندوة قد توقفت بعد تدخل الأمن وقتئذ .

كان نجيب محفوظ وقتئذ فى الثانية والخمسين ، أى فى عمر يقارب عمرى الآن ، كان فى ذروة فتوته ، عملاقًا ، يماثل حجمه ثلاثة أضعاف الآن ، خطاه فسيحة ، سريعة ، يحمل دائمًا أوراقًا ، فى هذا الصباح كان يرتدى حلة بنية اللون غامقة ، قدمت إليه نسخة من مجلة (الأديب) ، قلت له إنها قصتى الأولى التى أنشرها ، توقف ، تناولها بحنو ، قرأ العنوان ، أومأ شاكرًا ، فى صباح اليوم التالى بدا متهللاً وهو يبادرنى قائلاً : إنه قرأ القصة وأعجبته كثيرًا ، قالها بنفس الطريقة التى أعرفها الآن جيدًا ، ألفاظه قليلة ولكن دالة ، معبرة ، عندما يعجبه عمل أدبى ويعبر عن إعجابه هذا ، له طريقته الخاصة ، الموجزة ، الدالة ، كثير من التفاصيل نسيتها تتعلق بأول قصة نشرت لى ، ولكن من أبرز ما يمثل فى ذهنى الآن ، ملامح نجيب محفوظ ، وعباراته ، ونهر

النيل الذى كان يتدفق هادئًا ، قديمًا ، غامضًا تحت الجسر ، ذلك الصباح من يوليو سنة ثلاثة وستين وتسعمائة وألف .

* * *

عرفت طريقى إلى ندوة « الأمناء » من خلال الأديب حسن محسب شفاه الله ، صحبنى إليها فى عام ستين ، ومنذ ترددى على تلك الحجرة المتواضعة فى شارع الجمهورية لم أنقطع حتى رحيل الشيخ رحمه الله فى منتصف الستينات ، كانت الندوة تقام مساء الأحد ، حجرة فسيحة ، قديمة الجدران والأثاث ، يتصدرها مكتب ، تحيط به مقاعد عدة .

كنت أحرص على الوصول قبل الشيخ ، لذلك ما زلت أذكر وقع خطواته فوق ألواح الخشب العتيقة التى تغطى الصالة ، وكثيرًا ما كنت أنفرد به وقتًا قبل وصول تلاميذه فكنت أنزوى فى مواجهته ، أشعر برهبة ، ولكن تلك المهابة لم تمنعنى من الجدل معه ، أو الاستفسار منه عن كتب وقضايا ومشاغل عديدة فى رأسى وقتئذ .

دائمًا أقول أنه لحسن حظى تعرفى على الشيخ أمين الخولى ، فمن خلاله تعرفت على أئمة الأزهر العظام ، والكوفة ، والبصرة ، وجامع صنعاء الكبير ، وزيتونة تونس وقيروانها وقزويين المغرب ، بدءاً من عصور الإسلام الأولى وحتى أئمة التنوير الحقيقيين في القرن الماضى ، رفاعة الطهطاوى والشيخ محمد عبده ، بل إن حياة الشيخ فيها عناصر شبه بحياة هؤلاء ، فى القرن التاسع عشر سافر الشيخ رفاعة إلى باريز ليؤم أفراد البعثة أثناء الصلاة ، وكان أن أصبح هو أهم عضو فى البعثة بتأثيره الممتد حتى الآن ، كذلك

سافر الشيخ أمين الخولى إلى إيطاليا فى بداية هذا القرن ليكون إمامًا لأفراد البعثة المصرية ، وعاد ليكون أنبغهم ، لا أعرف إنسانًا اجتمع فيه هذا التوازن الرائع بين الأصالة والمعاصرة مثل أمين الخولى ، لا أعرف إنسانًا اجتمع عنده ذلك القدر الفسيح من فهم الفكر الإنسانى ، بكل فروعه ، والانفتاح عليه ، والنهل منه ، بما لا يخل أو يؤثر فى تكوينه العربى الإسلامى الأصيل ، كان من حظى حقًا أن أواظب على حضور هذه الندوة والاقتراب من الشيخ الجليل وأحد الأئمة العظام الذين خلا زماننا من أمثالهم ، فلا نرى الآن إلا أئمة التليفزيون ، أحدهم يجاهر بصلاته لله شكرًا عند هزيمة وطنه ، والآخر يقنن إهدار دم المخالفين فى الرأى علنًا فى المحكمة ويمر ما قاله فى صمت .

ما زلت أذكر الكثير من مناقشات الأمناء ، ملامح تلاميذ الشيخ ، يقولون إنه لم يترك مؤلفات كثيرة ، لكنه ترك رجالاً لا حصر لهم أحسن تكوينهم ، ومنهم رموز كبيرة في حياتنا الثقافية ، وبشكل ما إذا جاز لى الانتساب إلى من غرس فيهم حب الثقافة والعلم ، واتساع الأفق وعمق الفهم الإنسانى والاستنارة ، فبلا شك إنما أنا واحد منهم وإن كنت أقف فى نهاية الطابور الطويل !

فى مجلة «الأدب» ظهر مقالي عن كتاب « ليون ايدل » الذى حلل فيه أعمال جويس وهنرى چيمس وفرچينيا وولف وسائر الروائيين الذين استخدموا تيار الوعى وحاولوا الغوص فى أعماق النفس البشرية .

فى الشهر التالى نشرت قصة « الشعب » فى مجلة الأدب ، وتتابع نشر القصص وروايتى فى جريدة المحرر اللبنانية التي كان يصدرها الشهيد غسان كنفانى ، ومجلة « الجمهور الجديد » ، هذه

القصص والروايات فقدت معظمها عام ستة وستين ، ولكن الصديق صبرى حافظ أستاذ الأدب العربى بجامعة لندن ذكرها فى دراسة أعدها عن القصة القصيرة فى الستينات ونشرت فى المجلة زمن الكريم الكبير يحيى حقى ، قصص عديدة ظهرت فى مطبوعات كثيرة تحمل اسمى ، وسيظل لجريدة المساء منزلة خاصة فمن صالة تحريرها الفسيحة ، ومن ركنها الأقصى حيث مكتب عبد الفتاح الجمل تخرج جيل بأكمله ، وسيظل لعبد الفتاح موقع خاص عندى وعند أبناء جيلنا ، لذلك كان حرصى ومطاردتى له فى عزلته التى فرضها على نفسه لكى يكتب لقراء «أخبار الأدب» التى ستصدر خلال ساعات ، ولعبد الفتاح أسلوب خاص ، فريد ، ورؤية نادرة ، ما بين يوليو عام ثلاثة وستين ، ومارس عام تسعة وستين ، نشرت أكثر من خمسين قصة وروايتين ، لكننى عندما جمعت قروشى القليلة وما أدخره صديق العمر يوسف القعيد لنطبع أول كتاب لنا ، لم أضمنه إلا خمس قصص قصيرة كتبت كلها بعد هزيمة يونيو ، كثير من هذه القصص الآن طبع مرات عديدة ، وترجم إلى لغات شتى لا أعرف حروفها أو منطوقها .

مشوار طويل ، أودعته مواثيق الضنى ، والأمل ، ويشاء القدر أن أقف هذه الأيام عند بداية مرحلة جديدة ، ليس فى مشوارى الخاص ، ولكن فى مسيرة الثقافة المصرية ، العربية ، كثيرة هى الخواطر التى تتوارد علىّ ، أحدها يلح علىّ مرارًا ، أن تقدم « أخبار الأدب » العديد من المواهب الجديدة التى يحفل بها بلدنا الخصب الغنى ، المعطاء ، وأن تجنبهم الجريدة الجديدة مشقة الطريق ، وبعض من وعرات السفر ، فما أكثر المخاطر التى تحدق بالمواهب الحقيقية .

ودارت الماكينة ..

الثانية بعد منتصف الليل . .

الطابق الأول فى المبنى الجديد لدار أخبار اليوم حيث المطبعة الصحفية الجبارة .

كائن حديدى مطلى باللون الأخضر ، إذا نظرت إليه من الممر المحاذى فى الطابق الأول بعد الأرضى أراه يشبه سفينة تبحر ولكن . . فى البر ، فى الزمن ، عند عبورى الممر إذا بدأت الدوران ، فإننى أستدعى إلى الذهن تلك اللحظات التى تبدأ فيها الطائرات العملاقة الاندفاع ثم . .

مفارقة أمنا الأرض إلى الأعالى .

كائن حديدى معقد بالنسبة لمن هو مثلى لا يفقه شيئًا فى الأمور الهندسية الطباعية ، باختصار . . يتم إدخال لفات الورق « البكر » الضخمة ، تثبت فى أماكنها المخصصة ، يضغط زر ، تدور التروس ، وتسرى الطاقة فى صمامات وموتورات وخلايا ، فى طابق علوي المرحلة الأخيرة من الماكينة ، تخرج نسخ الصحيفة ، ليست مطبوعة فقط ولكن مطبقة ، مضمومة ، أى فى الصورة التى تصل بها إلى القراء .

ها هو الورق منبسط ، ممتد ، بين أقسام الماكينة مثل قماش النسيج الأبيض المشدود إلى ماكينة الطباعة فى انتظار النقوش ، ولكن الورق هنا سيحمل الحروف والمعانى والرسوم إلى أزمنة شتى ، وأماكن لا أعرف مواقعها .

ألمح عمالاً يتحركون على مهل ، يتفحصون أجزاء ، ويطمئنون على عدادات ، وأسلاك ، فى موضع ما تستقر الألواح المعدنية

للجريدة الجديدة « أخبار الأدب » ، ساعات عمل طويلة فيها المتعة والمعاناة ، لو تتبعنا رحلة الحرف منذ تشكله كمعنى فى ذهن الكاتب ، ثم خروجه على الورق ، ثم طريقه إلى مبنى الأخبار ، إلى ماكينات الجمع التصويرى ، إلى الأقسام الفنية ، كم أيدى عالجته ، واعتنت به ، يصعب الحصر ، وأخيرًا تستقر المقالات والقصص والأشعار والرسائل والآمال والآلام فى أحشاء هذه الماكينة الضامتة أمامى فى انتظار الانطلاق الهادر .

أتابع حركة العمال والفنيين ، كأنهم يعالجون وحشًا هائلاً موثقًا قبل أن يفكوا أغلاله لانطلاقة جموحة إلى نهاية المدى ، الوجوه أعرفها ، زملاء أعزاء ، غير أننى أستعيد ملامح طابور طويل من الزملاء الذين اقتربت منهم إنسانيًا ، وتبادلنا الحوار ، والدعابات ، زمن الحرب وفى الأحوال الصعبة ، وكل يوم ثلاثاء عندما أقف في القسم الفنى لمراجعة صفحة «أخبار الأدب» ، لقاءات سريعة ، وأحاديث موجزة ، لكنها تفيض بالمشاعر العميقة ، أستدعى إلى ذهنى ملامح وجوه تطل علىّ من عالم الغيب والحضور ، بعضهم رحل ، وبعضهم أحيل إلى التقاعد ، لكن . . لابد أن أنفاسهم وبصماتهم ونظراتهم وخفق قلوبهم له صدى فى موضع ما ، فى مكان ما من الصعب على الأجهزة العلمية اكتشافه ، هنا . . داخل هذه الماكينة ، لابد أنها أخذت منهم بقدر ما أخذوا منها . .

تتزايد الحركة ، ويبدو من وضع البعض أن اللحظة الحاسمة تقترب .

* * *

خلال تلك اللحظة أستعيد لحظات مولية ، فانية ، كثيرة تلك اللحيظات المؤدية إلى الآن ، لكنني أتوقف عند بعضها ، عندما كنت أزور رجلاً طيباً فى الجمالية ، صديقى عدلى باعيسى الشاعر ، المعلم ، الذى وهب عمره لمساعدة أبناء المنطقة عسرى الأحوال ، يتخذ من سبيل أوده باشا الأثرى الذى ما زال يضم مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم مقرًا ، سبيل جميل ، ينضح التاريخ من واجهته ، وتفاصيله ، في مواجهته تقع خانقاه سعيد السعداء التى يضم ثراها رفات عدد من أعظم الصوفية ، وإلى الشمال ، تقع مدرسة الجمالية الابتدائية التى أمضيت بها مرحلة دراستى الأولى ، وخانقاه الظاهر بيبرس أحد أجمل التكوينات المعمارية فى العالم ، ولكم أغادر هموم الدنيا عندما أجلس فى صمت الظهيرة عند حافة فنائها الفسيح ، المجلل بالمهابة ، أتأمل أسراب الحمام الآمنة التى تلتقط الحب المنثور فوق الأرضية ، وتشرب الأوعية من الأوانى الفخارية ، هكذا ينص الوقف ، وما زال أبناء الخير يوفرون الزاد لليمام ، وما من شيء يحدث فى أعماقى زلزلة كونية مثل هديل يمامة وحيدة عند انتصاف النهار ، أما إذا كان الوقت عصرًا ، فإن حزنًا شفافًا ، مقطرًا ، يطوى قلبى طيًا . .

كنت فى سبيل أوده باشا مع صديقين عزيزين ، الكاتب العمانى سيف الرحبى ، وأحمد الفلاحى مساعد المستشار الثقافى بالقاهرة ، ولا أذكر السبب الذى حدانى إلى الإتصال بالأستاذ سعيد سنبل لكننى فوجئت به يسألنى :

« هل قرأت العدد الأول من أخبار النجوم ؟ »

قلت إنه فى حقيبتى ، لكننى سأقرأه مع الصحف الأخرى بتأن فى نهاية النهار ، قال لى :

« لقد أشار الأستاذ إبراهيم سعدة إلى الإصدار التالى . . أخبار الأدب . . وأنه اختارك لتكون مسئولاً عنها . . »

تلقيت التهانى الطيبة من الأصدقاء الثلاثة ، قال سيف الرحبى وهو شاعر عمانى كبير ، إن صدور « أخبار الأدب » حدث سوف يكون له شأن . .

أسمع صوتًا خافتًا ، صادر عن الماكينة ، ألمح بكرة ورق تدور ، حركة بطيئة ، لكنها ذات دلالة . . وتقفز إلى ذاكرتى لحظة أخرى . .

* * *

صباح أربعاء

جاءنى أحد الزملاء بمظروف أزرق ، من مكتب رئيس مجلس الإدارة ، رحت أتطلع إليه متسائلاً عما يمكن أن يحويه ، ما زلت مثل أبناء قومى يتوجسون من رنين الهاتف أو وصول برقية حتى ولو كانت للتهنئة ، أو خطاب بالبريد السريع ، فتحت المظروف ، قرأت الخطاب الذى صاغه الأستاذ إبراهيم سعدة ، كان يحوى تكليفًا بإصدار الجريدة ، جريدة متخصصة فى الأدب ، تكون منبرًا قويًا للثقافة فى مصر والعالم العربى ، غير منغلقة على اتجاه بعينه ، ولكنها معبرة عن كل ما هو أصيل وجميل ، جريدة تصل الثقافة العربية

بالعالم ، شرقه وغربه ، وأولاً وأخيرًا تكون منبرًا للشباب ، للمواهب الجديدة التى تضمر فى ظل الإهمال وتراجع قيمة الثقافة ، كانت المبادئ التى حددها الأستاذ إبراهيم تتفق مع رؤيتى تمامًا ، وتعبر عن الحاجات الملحة للواقع الثقافى ، عكفت لمدة يومين أكتب تصورًا مفصلاً ، وافق عليه الأستاذ إبراهيم بالكامل ، أعطانا إشارة البدء .

كان ذلك فى أكتوبر الماضى . .

الآن . . فى إحدى ليالى النصف الثانى من يوليو ، وما كان حلمًا يتجسد أمامنا ، كامن فى رحم الماكينة التى عادت لتتوقف أسطواناتها الضخمة . .

وتتوالى اللحظات .

* * *

فى موعدنا الأسبوعى المنتظم مع الأستاذ نجيب محفوظ ، جلست صامتًا ، فكالعادة يبدأ صديق العمر يوسف القعيد بسرد أهم أخبار الأسبوع سياسيًا وثقافيًا ونميمة ، وللقعيد طريقة طريفة فى قص الأخبار ، والأستاذ نجيب يسميه « رويتر » لغزارة الأخبار التى يأتي بها خاصة فى الأسابيع التى يمارس فيها عمله كمدير لتحرير المصور ، نصغى ، توفيق صالح الفنان الكبير ، والمهندس عماد العبودى أحدث الحرافيش ، والعبد لله . . ثم يجئ علىّ الدور لأحكى ما جرى خلال الأسبوع ، منذ أسابيع سافر القعيد إلى لندن بدعوة من هيئة الإذاعة البريطانية ليجيب على أسئلة

المستمعين العرب على الهواء ، التقينا بدونه ، وحاولت القيام بدور رويتر قدر الإمكان ، ثم قال نجيب محفوظ فى إحدى قفشاته الجميلة . .

« اسمع يا چيمى . . تعال يوم الخميس وقت إذاعة البرنامج نطلب يوسف على الهواء فى لندن ونسأله . . إيه الأخبار ؟ »

المهم . . بعد أن انتهى يوسف فى تلك الجلسة من أخباره وحكاياته التفت الأستاذ نجيب ليسألنى . .

« إيه الأخبار ؟ »

قلت . .

«سنصدر عن أخبار اليوم جريدة أسبوعية أدبية فى العام القادم . .»

صاح منفعلاً . .

« وقاعد ساكت من الصبح ؟؟ »

أشرت إلى يوسف . .

« لم يعطنى فرصة . . »

ضحك توفيق صالح وعماد العبودى ، راح نجيب محفوظ يردد طوال قعدتنا فى الركب الجميل المشدود إلى شاطئ النيل . .

« دا من أهم وأجمل الأخبار اللى سمعتها فى حياتى . . »

وطوال مجالسنا المحفوظية (سأنشر حواراتنا فيها على صفحات أخبار الأدب مستقبلاً) فى الأسابيع التالية ، كانت (أخبار الأدب)

موضع حوارنا ، وحديثنا ، حتى ليمكنني القول بحق أن عميدنا وأستاذنا شارك فى إصدارها والتخطيط لها . .

أعود للنظر إلى الماكينة ، وصل إلى جوارى الفنان سعيد إسماعيل ، وزميلى عزت القمحاوى ، وسيد عبد الخالق ومحمود الوردانى ، وسهير سعيد ، كنا واصلنا الليل بالنهار لنشهد هذه اللحظة . . لحظة دوران الماكينة ، وتسرع اللحظات فى ذهنى . .

* * *

الماكينة . .

هذا الكائن الآلى الضخم ، شاهدت بداية المكان ، وتركيبها جزءاً جزءاً ، لكم ترددت على الأصدقاء والزملاء وهم يشرفون على تركيبها ، ترسًا ، ترسًا ، وعجلة ، عجلة . . كم مرة سمعت هذا التعبير . . « الماكينة دارت » يعنى ذلك أن طبع الجريدة بدأ وأن مرحلة انتهت ومرحلة أخرى تبدأ ، لحظة دوران الماكينة لحظة يومية هامة جدًا فى حياة العاملين ، وحياة المبنى . . وبالنسبة للماكينة نفسها .

لحظة انتهائنا من العدد التجريبى فى يناير الماضى ، عندما خرج من المطبعة فى ساعة متأخرة ، ومضيت مع بعض الزملاء من الفنيين والعمال إلى مقهى مجاور لمبنى (أخبار اليوم) ، فى احتفال بسيط وخاص .

لحظات عديدة ، متتابعة ، عرفت فيها من الإرهاق درجات لم أظن يومًا أننى قادر على احتمالها .

صوت معدنى وثاب . .

دارت الأسطوانات المعدنية ولفات البكر الضخمة ، اللمبات الحمراء الصغيرة .

حركة بدأت متمهلة ، تسرع شيئًا فشيئًا ، الورق يمر من جزء إلى جزء ، من قسم إلى قسم فى الماكينة ، كنا نقف بمحاذاة السير المعدني الذى يحمل النسخ الجاهزة إلى خارج المبنى ، لم يمض أقل من دقيقة إلا وكانت النسخة الأولى من (أخبار الأدب) تعبر أمامنا متمهلة حتى أمكننا قراءة العناوين ، نسخة تحتضن نسخة ، نسخة فى أثر أخرى ، ترى من سيمسك بها ، ومن سيقرأها ، وإلى أى مكان ستمضى ؟ وأى نسخة ستعرض فى متحف يومًا آتيًا من المستقبل باعتبارها تحفة ثمينة وعلامة على زمن مضى ، ودليل على جهد إنسانى رفيع ، انحاز إلى جانب الخير والجمال ، وما يدفع الإنسانية إلى الأمام . .

أى نسخة ستتجه شرقًا ؟

أى نسخة ستصل غربًا ؟

أى نسخة ستنقلنا من زمننا إلى زمن آخر ، عندما نكون نحن فى عالم الغيب . . يتبادل زملائى التهانى ، « مبروك » الكلمة التى يتبادلها الجميع ، بينما يلفني شعور رقيق يدفع بى إلي حافة الدمع ، حقًا . .

لماذا يفاجئنى الحزن فى ذروة فرحى ؟

لماذا فى اللحظات التى يجب أن أنتشى فيها تترقرق عيناى بالدموع ؟

لكننى . . لماذا أتساءل ، وأنا المصرى الصميم ، أليس قومى هم الذين يقولون إذا استغرقوا فى الضحك والسعادة « اللهم اجعله خيرًا . . »

انتبهت إلى زميلى الأديب عزت القمحاوى يميل مبتسمًا ، متفحصًا ملامحى ، عندئذ صحت مداعبًا . .

« وبعدين . . أنت حتشتغل لى روائى ؟؟ »

* * *

ودارت الماكينة

استقرت سرعتها على الإيقاع الذى أعرفه جيدًا ، تمامًا كالطائرة أو السفينة عندما تتخذ وضعها الأمثل ، كانت الأسطوانات تدور بسرعة هائلة ، تطوى الورق ، وأعمارنا أيضًا .

وجوه قاهرية

عدلى باعيسى :

لا أذكر متى عرفته ، غير أنه ممتد فى ذاكرتى إلى نقطة موغلة فى القدم لا يمكننى تحديدها ، إذا ما استدعيت إلى ذهنى هذه المنطقة من الجمالية فلابد أن أراه مقترنًا بها ، بالتحديد عند نهاية شارع حبس الرحبة والمدرسة الجمالية ، وكالة بازرعه ، خانقاه سعيد السعداء ، مدخل حارة المبيضة ، الواقف أمامها يمكنه رؤية مئذنة وقبة خانقاه الأمير بيبرس الجاشنكير المهيبة ذات الجمال والجلال القديم ، على ناصية الحارة يقع سبيل أوده باشا ، سبيل انحدر إلى زمننا من العصر العثمانى ، زمان . . كان يقدم الماء إلى عابرى السبيل ، ومثل كل هذه المنشآت التى تقدم الماء كان يتكون من ثلاث مستويات ، الأول تحت الأرض ويضم الصهريج المخصص لحفظ الماء ، والثانى بمستوى الطريق لتقديم الماء إلى المارة ، أما الثالث فمدرسة لتحفيظ القرآن الكريم . بعد أن امتدت أنابيب المياه إلى أنحاء القاهرة فى نهاية القرن الماضى فقدت الأسبلة وظيفتها ، ناءت تحت وطأة الزمن والإهمال ، وبعد أن كانت عدة الآف تناقص عددها ، ومنذ سنوات تعقبت ما بقى منها ، أحصيته ، وصفته ، ولم يتجاوز العدد مائة وستين ، ورغم الإهمال الذى أحاط معظمها ، حتى تحولت إلى مقالب للقمامة ، إلا أن سبيل أوده باشا ظل عامرًا ، نظيفًا ، والفضل يرجع بالدرجة الأولى إلى العم عدلى با عيسى . اتخذ من الطابق الثانى مقرًا لجمعية فقراء الجمالية التى أسسها ويديرها ، هو

مدرس ، أمضى حياته فى مدارس الجمالية يعلم أطفالها اللغة العربية ، وحيد ، لم يتزوج ، لكنه أعطى حياته كلها للناس البسطاء ، يكتب الشعر العامى والزجل ، هو . . متوسط القامة ، برأسه صلع ، وفى ملامحه تستقر وداعة ، ورغبة فى إلقاء السلام والتواصل مع الآخرين ، لذلك لم أره إلا مبتسمًا ، يرتدى صباحًا القميص والبنطلون ، وبعد الظهر الجلباب الأبيض الناصع ، المهندم ، ألمحه أحيانًا يسعى ما بين أوده باشا ومسجد مولانا وسيدنا وحبيبنا الحسين ﷺ فأدرك أنه ماضى إلى الصلاة أو آيب منها .

يسرى هادئًا ، وادعًا ، فى كينونته العامة ما اصطلحنا على تسميته بتلك الكلمة المصرية الموجزة ذات الدلالات المتعددة « طيب » . . إنه رجل طيب .

من خلال جمعية فقراء الجمالية يقدم المساعدات إلى أسر شتى ، وربنا أمر بالستر ، وفى رمضان يقيم إفطارًا يوميًا لغير القادرين وأبناء السبيل ، تلك عادته منذ سنوات طويلة قبل ظهور موائد الرحمن التى انتشرت خلال السنوات الأخيرة .

فى الصيف ينظم دروسًا لمحو الأمية ، وفى أيام الدراسة مجموعات تقوية بالمجان ، وعلى نفقته أعد وسائل مختلفة لتعليم الأطفال حروف الكلام ، وأسرار اللغة والحساب بعض القادرين في المنطقة يعلمون ما يقوم به ، يقدمون إلى الجمعية دعمًا محدودًا ، لكن يظل جهد عدلى با عيسى هو المحور ، فى سبيل

أوده باشا يحتفل بالأعياد الوطنية مع الأطفال الذين يعلمهم الأبجدية أو الذين يقدم المساعدات إلى أسرهم .

لا يعرف فى دور الصحف كلها إلا شيخنا وعمنا عبد الوارث الدسوقى ، يقدم إليه بين الحين والآخر زجلاً للنشر فى صفحة الرأى للشعب بالأخبار .

عندما أجد باب السبيل مفتوحًا ، لا أتردد ، ألجه صاعدًا السلم القديم ، يقابلنى متهللاً ، مرحبًا فى أى وقت أحل ضيفًا عليه .

أحيانًا أراه يعبر ميدان سيدنا الحسين ، إنه يمشى وحيدًا ، أرقبه من بعيد ، يحلو لى تأمل سعيه ، لكننى أشعر أنه موزع ، مفرق على جميع البشر ، يفرق الخير ، ويشع بالمحبة من هذا الركن المنسى القديم . . أطال الله عمره .

الشيخ تهامى

لولاه ما عرفت القراءة ومصادر الأدب .

كان ذلك فى منتصف الخمسينات عندما عبرت ميدان مولانا الحسين ، وتجاوزته إلى شارع الأزهر ، مسافة لا تعنى شيئًا بالنسبة لى الآن إذ أقطعها ، لكن فى هذا الزمن القديم كانت خطوة هائلة نحو الاكتشاف ، ماذا تعادل الآن ؟

لا أبالغ إذا قلت أنها توازى قطعى المسافة من القاهرة إلى مضيق بيرنج الواصل بين المحيطين الأطلنطى والباسفيكى ، أما عن المقارنة بالجانب المعنوى فيستحيل ذلك .

فوق رصيف الأزهر ، إلى جوار الباب الذى عُرف تاريخيًا بباب المزينين ، كان الشيخ تهامى يفترش الأرض عارضًا كتبه نهارًا ، حتى إذا ما نزل الليل جمعها وربطها بحبل غليظ ، وتمدد إلى جوارها .

كان يبيع الكتب المستخدمة ، كتب الفقه والتراث القديمة اللازمة لطلبة الأزهر ، والروايات ودواوين الشعر والكتب الأدبية ، كان عدد كبير من أبناء المنطقة القريبة يتعاملون مع تلك الكتب ، خاصة الفتيات اللواتى لم يكملن تعليمهن ، وبقين فى بيوتهن ينتظرن العدل ! أذكر إحداهن ، كانت هيفاء ، باسقة ، تجئ ميادة فى الملاءة اللف السوداء ، تحمل حقيبة من قماش ممتلئة بالكتب ، تبدلها ، وكنت أتطلع إليها خلسة راجيًا أن تبقى ، أن تطيل مدة مكثها وفى الروح أحاسيس غامضة ، والغريب . . أنه لا تذكر كلمة « القاهرة » إلا وتستدعى مقابلها عندى ، وجه تلك الفتاة التى لا أدرى مرساها ، وأى نقطة انتهت إليها عبر الزمن . .

كان الشيخ تهامى قد خصص دكة خشبية صغيرة قصيرة القوائم ، تتسع لثلاثة أو أربعة أطفال ، يدفع كل منهم خمسة مليمات ، ويقرأ ، كان أقرانى يطلعون على مجلدات السندباد ، وكنت أقرأ روايات الجيب القديمة التى كانت تصدر فى الثلاثينات ، محررها عمر عبد العزيز أمين هذا الرجل الذى أدين له بالكثير ، فى روايات عالمية كنت أقرأ قصص الثورة الفرنسية ، ودستوفيسكى ، وتولستوى ، وأرسين لوبين اللص الشريف ،

كانت الأعداد القديمة من روايات الهلال فوق الرصيف أيضًا ، كان الشيخ تهامى الأسوانى الأصل ، الذى لم يتم تعليمه الأزهرى ، يتطلع إلىّ بدهشة في البداية ، قال لى : إن هذه الكتب أكبر من سنك ، لكنه مع الزمن بدأ ينتقى لى ، ويحجز بعض الكتب التى بدأ يدرك اهتمامى بها .

مع تقدم الزمن تعمقت علاقتنا ، وصار الشيخ مصدرى الأول فى إقتناء أقدم كتب التراث ، والنادر من المخطوطات ، لقد تعرض الشيخ تهامى وزملاؤه لأزمات عديدة ، أهمها مطاردات الشرطة ، وإدارة الأزهر ، والمحافظة ، فى عام تسعة وستين وتسعمائة وألف ، بعد عملى فى الصحافة ناشدت محافظة القاهرة تخصيص قتارين خشبية ثابتة لباعة الكتب ، وبعد النشر علي صفحات الأخبار وقعت الإستجابة ، وهكذا ظهر سوق الكتب المجاور لإدارة الأزهر ، وكانت الكتب عنصر جمالى فى الطريق ، ولكن لم يستمر وضعها ، مرت السوق بأطوار عديدة حتى أزيل مؤخرًا وانتقل إلى منطقة ميتة تمامًا خلف مستشفى الحسين ، حيث توارت الكتب بين تلال الدراسة ، ومنطقة موبوءة ، سيئة السمعة ، ليس مكتبات الأزهر فقط وإنما مكتبات سور الأزبكية أيضًا .

لم يشهد الشيخ تهامى هذه المرحلة ، فمنذ سنوات انتقل للإقامة فى غرفة بالدويقة ، زرته هناك فوجدته هجر تجارة الكتب ، كان يعرض بعض الخلال ، فقط .. لاكتساب القوت ، ثم أصبح خطيبًا لمسجد صغير هناك ، لزم مكانه ،

خانته قدماه ، ومع عجزه أحاطه أبناء الحلال برعايتهم ، حتى فى أفقر أماكن القاهرة ، يجد الإنسان من يعاضد ، ويساند ، بل إن الإحساس بالمشاركة يكون أعمق ، كان صعبًا علىّ أن أرى الرجل الذى صبر علىّ وقدم إلىّ العون فى بداية طريقى الشاقة وهو لا يستطيع الحركة ، وسوف يظل وجهه الطيب ماثلاً دومًا فى ذهنى ، هذا الوجه المرادف للأزهر ، لمآذنه ، فكم من أناس مجهولين أدوا دورهم فى صمت على أرصفة مدينتنا أو فى دروبها وحواريها ، لم يشعلوا المصابيح ليرى العابرون مواطئ أقدامهم ، إنما أضاءوا العقول والمستقبل أمام الكثرة ، وما شخصى إلا بعض من هذا الغرس .

أخيرًا .. حلت اللحظة التى كنت أرصدها وأجهل موعد حلولها ، عندما مضيت مؤخرًا لزيارة الرجل ، وعدت من الدويقة مطرقًا ، متجهمًا ، مضطرًا إلى الجلوس بمقهى صغير فى شارع أم الغلام وحيدًا تمامًا إلا من ذكرى الطيبين الذين ساعدونى ، رحم الله من رحل منهم ، وأطال عمر من بقى .

إعلان:

تأثرت جدًا بالإعلان المنشور فى الصحف المصرية على صفحة كاملة موقعًا من أصحاب الشركات المصرية يناشدون الناس شراء منتجات مصانعهم حرصًا على الصناعة الوطنية ومستقبل مئات الألوف من العاملين فى هذه المصانع ، يجئ هذا الإعلان الذى يحمل العديد من الدلالات بعدما تردد عن

فتح السوق المصرية أمام المنتجات الأجنبية ، ويبدو أننا نعود من حيث بدأنا ، أقصد العشرينات والثلاثينات ، أذكر أننى قرأت افتتاحية مجلة الرسالة فى الثلاثينات للمرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات ، وكانت عن بنك مصر الذى اشترى سفينتين للعمل على خطوط الملاحة بين الإسكندرية وأوروبا ، وكان الأستاذ الزيات يحض المصريين فى مجلة ثقافية على التعامل مع هاتين السفينتين حرصًا على الاقتصاد الوطنى ، وفى نفس الوقت كانت الدعوات إلى شراء المنتجات المصرية ذات طابع سياسى ، هل نحن فى حاجة إلى دعوة عامة مثل تلك الآن ؟

بالتأكيد . . وهذا دور الأحزاب والقوى السياسية ، فالدفاع عن المنتجات المصرية مسألة غاية فى الأهمية ولا أبالغ إذا قلت أنها مرتبطة بمستقبل الوطن ، غير أننى أردد فى أسى ، ما أشبه الليلة بالبارحة .

هذا الوزير .. النبيل

أسى واكتئاب . أسى تمدد وحزن أوغل ، حتى أصبحت لا أرى ضوء النهار الصيفى الساطع رماديًا ، أما الأفق القاهرى الفسيح فتلملم وكدت أصغى إلى همسه الخفى : ماذا يُراد بوطننا الحبيب الطيب ؟

ثم تتردد ملامحه بقوة على مخيلتى ، قسماته الطيبة ، ويمتزج ألمى على ما جرى له بجزعى لما يخطط ويدبر من قوى مجهولة لا يعلم إلا الله إلى أين تنتهى الخيوط التى تحركها .

عرفته لدقائق قليلة وشغلنى أمره زمنًا حتى استقر فى موقعه الحالى وزيرًا للداخلية ، لم ألتق به قط فى منصبه الجديد ، وكنت أقرأ أخبار حربه ضد الإرهاب هو الذى عاش عمره يحارب الفساد فى كل موقع ، وكاد يروح ضحيته أثناء توليه المسئولية فى أسيوط ، فيها قابلته خلال ديسمبر الماضى .

ديسمبر الماضى

مضيت إلى بر مصر الجنوبى ، حيث مسقط رأسى ، وأصل موطنى ، فى أسيوط التى توقفت بها لمدة ليلتين بدأت أتابع ما يجرى ، من صراع بين الدولة والعصابات المتطرفة ، وذلك الصراع الذى كان مكتومًا بين المحافظ الشريف ، النقى ، وبين بعض مراكز الفساد فى الحزب الوطنى الديموقراطى والتى لا تزال فى مواقعها للأسف ، لم أكن منحازًا إلى أى طرف فى المدينة كنت مجرد عابر ، بدأت أصغى إلى التفاصيل من شفاه الناس ، الصراع بين الفساد

والطهارة ، بين رجل نذر نفسه لخدمة وطنه ولمطاردة اللصوص والمفسدين ، وبين أولئك المتمرسين فى مواقعهم يغطون أنفسهم بصلات فى القاهرة ، وشخصيات عامة هنا أو هناك ، كانوا يحكمون حصارهم حول اللواء حسن الألفى ، يساندهم بعض أصحاب النفوذ ، خاصة من توقع أن يحل مكانه ، وتلك بعض سمات البيروقراطية في مصر ، أن يبحث المسئول عن الشخص الذي يمكن أن يحل مكانه ثم يبدأ تشويهه أو محاولة حصاره وتعْزيمه وضربه .

كان الموقف غريبًا فى أسيوط ، البقعة التى يشتد فيها التطرف تعانى فيها الدولة من خلل خطير ، أما السياسة الأمنية المتبعة وقتئذ فكانت تنفر الناس وتضيق على أرزاقهم ، شهور طويلة مضت ومدن بأكملها تحت الحصار ، منع التجول ، من يذكر الآن قرار اللواء حسن الألفى برفع الحصار عن ديروط ، عن أبو تيج بمجرد توليه وزارة الداخلية ، ثم سلسلة القرارات الإنسانية التي كانت تستهدف خدمة جموع الناس ، والتى أدت - فى تقديرى - إلى هذا التعاطف الشعبى الواسع مع قوى الأمن وتحول هذا التعاطف إلى إجراء عملى ترجم فى زينهم إلى ما يمكن اعتباره أول واقعة إعدام علنى على أيدى الشعب لأحد العناصر الإرهابية .

أعود إلى ديسمبر . . كانت الصورة فى أسيوط مخيفة ، محيرة ، لذلك لم أتردد عندما علمت بذهاب الصديق صلاح شريدة مدير الثقافة الجماهيرية فى جنوب الصعيد إلى المحافظ ليلاً ، طلبت مصاحبته ، كنت أريد أن أراه ، أن أتعرف على هذا المسئول الكبير

الذى لم ألتق بإنسان فى أسيوط أو سوهاج إلا وأشاد به وذكره بالخير ، لقد أمضى مدة قصيرة فى سوهاج لكنه خلف وراءه عطرًا فى زمن يندر فيه ذلك !

اللقاء الوحيد

ما بعد التاسعة ليلاً ، فى مكتبه ، وجدت نفسى فى مواجهة رجل مديد القامة ، له حضور جندى ، وملامح أب طيب القلب ، نقى السريرة ، حقًا . . إن داخل الإنسان لينعكس على هيئته ، كان صوته هادئًا ، تسرى فيه سكينة صوفية نادرة ، أصغيت إلى كلماته القليلة ، ولفظه المقتصد ، الدال ، حدثنى بصراحة عن الوضع الذى أقلقنى ، وبدا متأثرًا نتيجة بعض التصرفات الصغيرة التى تستهدفه شخصيًا من مواقع الفساد ، الوجه المقابل للإرهاب ، قال لى اللواء حسن الألفى بلهجة لن أنساها قط . .

« إننى فى انتظار رصاصة هنا ربما تأتى فى أى لحظة » .

لم يكن سهلاً على مسمعى أن أصغى إلى مثل ذلك ، فارقت الرجل متأثرًا ، وما زلت أذكر ملامحه عندما ودعنى حتى مدخل المكتب ، ما رسخ داخلى عنه ، طيبته ، هناك كلمة مصرية نصف بها الإنسان الجيد ، أشمل من معانى عديدة أو فلنقل أنها تجمعها كلها ، كلمة « طيب » ، الأهم من حروفها نطقنا لها ، إنها اختزال لمعانى عديدة لا يمكن الإلمام بها ، أو شرحها .

كان اللواء الألفى رجلاً « طيبًا » لكنه ذو تاريخ طويل مشرف فى مكافحة الفساد ، وله في خدمته بمباحث الأموال العامة ماضى

عظيم ، وسجل نظيف ، وفى رأيى أن مصر لا تزال تسعى وتنمو بأمثال هذا الرجل الورع فى مواقع عديدة نجد مثله ، وإذا كانت نماذج الفساد المروعة طاغية وقاتمة فإن أمثال اللواء الألفى فى كل موقع ما زال جوهر الوطن وأعماق الناس سليمة .

عدت إلى القاهرة ، وكتبت فى هذا المكان يوميات بعنوان « فى بر مصر الجنوبى » صرحت أحيانًا وألمحت أحيانًا ، ولكننى قلت بوضوح قاطع أنه لابد من فض الاشتباك بين المحافظ وقوى الفساد فى أكثر محافظات الصعيد حساسية بالنسبة لقضية التطرف ، وطالبت بمراعاة الطبيعة الخاصة لأهالى الجنوب عند التعامل معهم .

لم تمض أيام وافتتح معرض القاهرة الدولى للكتاب ، وفى اللقاء السنوى مع الرئيس مبارك كتبت سؤالاً أرسلته إلى الدكتور سمير سرحان الذى كان يدير اللقاء ، وكان يسلم الأسئلة إلى الرئيس الذى يقلبها ويختار منها ، كانت المرة الأولى التى أطلب فيها الحديث ، فى مثل هذه اللقاءات اعتدت الإصغاء والمتابعة ، ذلك أننى أجيد الكتابة ولا أجيد الحديث الشفهى ، كنت قد كتبت إلى الرئيس سطورًا عن خطورة الوضع فى أسيوط ، وما يتعرض له اللواء الألفى ، وأرجوه أن يتدخل شخصيًا . .

فوجئت بالرئيس يدعونى إلى الحديث ، وتكلمت بما يسمح به مقتضى الحال على مرئى ومسمع من أجهزة الإعلام وبعد انتهاء قولى ، أومأ الرئيس مبارك شاكرًا بتواضعه ورقته ، بدأ رده علىّ بقوله :

« . . فلنجنب الحديث عما يجرى فى أسيوط الآن ، ولنتحدث عن التطرف فى مصر . . »

لم أكن أدرى وقتئذ أنه كان قد اتخذ قراره بالفعل بتعيين اللواء حسن الألفى وزيرًا للداخلية ، أما توقيت إعلانه فخضع لمقاييس ومتطلبات لا أعلم عنها شيئًا !

الأربعاء ليلاً

هذا العنف ، تلك الأشلاء ، هذه الدماء ، الشظايا ، هل هذا هو الإسلام ؟

ديننا الحنيف ، الرحيم ، أي صلة لتلك الجماعات التى تحركها مخابرات دول عظمى وقوى صهيونية تجد الآن فى الإسلام التحدى الأكبر لها ، تلك هى الصورة التى يريدون تقديم الإسلام بها فى الغرب ، وبقية أنحاء العالم ، العنف ، الدماء ، القتل ، وما أداء هذه الجماعات المتطرفة إلا استكمالاً لعناصر تلك الصورة التى يريد الغرب تجسيدها للإسلام ، أما بالنسبة لمصر فهناك هدف أبعد ، إنه تمزيق هذا الوطن ، الدفع به إلي صراعات دموية تنهى وحدته الأبدية ، استقرار مصر فى المنطقة غير مطلوب فيما يبدو من النظام العالمى الجديد ، استقرار مصر وعبورها لمشاكلها فيه تحد لكل ما يراد للعالم العربى وللإسلام ، فمصر هي النواة الصلبة ، ومجرد تماسكها واستقرارها فيه تحد لما يراد للعرب وللمسلمين . إذن دفعها إلى دوامة العنف ومحاولة تقطيع أوصالها .

كنت أصغى إلى الراديو متتبعًا الأخبار والتعليقات ، هذا شأنى بعد الحوادث الفظيعة ، أصغيت إلى صراع التنظيمات الإرهابية على إعلان مسئوليتها عن محاولة الاغتيال الفاشلة ، والصراع كله يبدأ من أفغانستان حيث يتمركزون الآن ، ثلاث

أو أربع تنظيمات تتنافس فيما بينها ، ألا يذكرنا ذلك بظاهرة لبنانية خلال الحرب الأهلية .

هل الصراع على إعلان المسئولية مرتبط بإثبات الولاء أمام الجهة الممولة ؟ هذه الجهة التى ربما تتمركز فى إحدى طوابق البنتاجون ، أو أحد مقار الوكالة المركزية فى صحراء نيفادا ، أو مكان ما من القارة الأوروبية .

تصوروا معى لو أن هذه الجماعات تمكنت من الوطن ، أى صراعات رهيبة ستدور فيما بينها ، أى خراب ستدفع إليه مصر دفعًا ، أى دماء ذكية سوف تنهمر ؟ ، لننظر إلى الدمار الذى لحق ويلحق بأفغانستان نفسها وهذا التناحر بين حكمتيار وربانى ، هل يراد لمصر مصيرًا كهذا ؟

أتابع تصريحات الرجل الطيب ، الذى أكد على ضرورة معاملة الناس بإنسانية فى أقسام الشرطة ، صاحب الماضى الطويل فى مقاومة الفساد ، الرجل الطاهر ، ذو السمعة الحسنة ، كانت كلماته تفيض بإيمان قوى ، حقيقى ، نابع من القلب ، إيمان المسلم الحقيقى ، المصرى الكاره للعنف ، والدماء والشظايا ، وأوراق الصحف التى تغطى الأشلاء .

هذا جديد على حياتنا ، على أهل مصر الطيبين ، هذا شر يجب أن نتحد جميعًا لمواجهته ، لمقاومته ، إن هذا الوطن فى أشد الحاجة إلى تماسكه ، إلى وحدته الآن ، فالريح الصفراء القادمة مليئة بالسموم التى تستهدف جذر حياتنا وديننا نفسه . .

حمى الله هذا الوطن الجميل ، وشفى ذلك الإنسان الطيب ورده سالمًا إلى بلاده التى لم يشأ لها إلا الخير .

زمالة وأصالة :

فى نهاية الستينات عملت فى قسم التحقيقات الصحفية ، وفى الاجتماع اليومى الصباحى كان الزميل سيد أبو المجد يجئ مبكرًا ، وفى يده قصاصات من صحف اليوم ألصقها بعناية إلى ورق أبيض ، وكتب تحت كل قصاصة تعليقًا ، كان نبعًا للأفكار الجديدة والمقترحات ، ثم توالت الأيام ، تفرغت لعملى كمحرر عسكرى ، وتوالت السنون ، ولم أعد أرى الزميل النشيط ، المتوقد ذهنًا ، ثم عرفت أنه وقع فريسة للمرض ، مرض قاسى ألزمه الفراش سنوات .

بعد صدور « أخبار الأدب » فوجئت بمظروف أبيض منتفخ بالأوراق ، كان يحوى خطابًا رقيقًا مكتوب بعناية على الآلة الكاتبة ، يتضمن تهنئة حارة ، من الصديق والزميل القديم الذى أقعده المرض أحد عشر عامًا على كرسى متحرك ، لكنه لم ينل قط من ذهنه الذكى الحاد ، كانت الأوراق المرفقة تحوى اقتراحات عديدة « لأخبار الأدب » ، اقتراحات لامعة وذكية تصدر عن متابع دقيق للحياة الثقافية وليس عن مريض ناء المرض عليه بككه ، واستعدت على الفور ملامح الزميل العزيز ، متأثرًا بذلك الذهم الذى يصارع المرض ، فما زال الصحفى والمحارب القديم يقهر العجز ويفيض حيوية فوق المقعد المتحرك . . شفاه الله .

عبور الموت ليلاً

الواحدة ما بعد منتصف الليل .

تخترق السيارة التى يقودها صديقى الدكتور سعد الدين إبراهيم شوارع المعادى المسكونة بالصمت والوجود الخفى للأجانب وكثافة الأشجار .

حوار بيننا حول الأدب فى القاهرة والأقاليم . .

نقترب من مزلقان الخط الحديدى القديم المفرد الذى يربط حلوان بالعباسية ولا أدرى إلى أين يمضى بعد ذلك ، مزلقان ڤيكتوريا كما يُعرف فى المعادى ، تحت كشكًا يبيع الحلوى والسجائر والمشروبات الغازية يسهر عادة إلى ساعة متأخرة ، جندى مرور يقف متعبًا كما بدت وقفته المتراخية عند الطرف الأيسر للمزلقان .

الطريق خال إلا من الليل ، والحضور البشرى المتوارى عن النظر ، واندفاع العربة ، كانت ملامح الدكتور سعد مجهدة ، يقود بحركات آلية تمامًا ، يكتفى بالإصغاء ، ارتجت السيارة قليلاً بتأثير القضبان . .

صفير قوى رهيب

إلى اليمين التفت

مقدمة قاطرة كالقدر ، كالنذير ، كتلة من القمة الحديدية ، يتوسط أعلاها مصباح قوى الضوء غمر السيارة .

المسافة الفاصلة بالضبط حوالي ستة أو سبعة أمتار ، وبمقياس آخر ، اندفعت السيارة مقدار لفتين اثنتين للعجلات ، هما ما

جعلا فاصلاً بيننا وبين القطار الذى يجر خلفه عددًا كبيرًا من عربات البضاعة ، لحظة رؤيتى للقاطرة ، لحظة سماع صفيرها ، هل رآنا السائق المجهول لنا ، المجهولون نحن له ؟

لا أدرى . .

كانت المسافة الفاصلة قصيرة جدًا حتى أن خلخلة الهواء خلالها هزت السيارة التى لم تتوقف واستمرت مندفعة .

شفت ؟

أومأ الدكتور سعد برأسه ، كان هادئًا ، لم تتغير ملامحه ، إلا أن حالة انفعالية بدأت تنمو داخلى . .

* * *

مرات بلا حصر واجهت خلالها الموت ، حفرت التفاصيل فى ذاكرتى لحظات يمكن أن تتوارى وتندثر مع غيرها ، منذ سقوطى فى طفولتى من ترام رقم ١٩ الذى كان يربط الأزهر بميدان العتبة ونجاتى بأعجوبة ، ومرات مروق سيارات على مسافة قريبة جدًا أثناء عبورى شوارع القاهرة شارد الفكر ، إلا أن فترة عملى فى جبهة القتال كمراسل حربى للأخبار ، شهدت مواقف عديدة ، واجهت خلالها الموت ورأيته بأم عينى ، بل إن الصدفة لعبت دورًا فى بقائى حيًا أسعى ، فلو أننى بدلت مكان سيرى أثناء ذلك القصف الذي تعرضنا له فى منطقة الكاب لمضيت بدلاً من مقاتل الصاعقة الذى أصابته شظية ضالة ، ولو أن عربة الجيب التى كنت أركبها بصحبة رفيق دربى فى الجبهة المصور الشجاع مكرم جاد الكريم ، والأستاذ

محمد عودة ، لو أنها تأخرت في السرعة قليلاً لطالتنا قنبلة الطائرة سكاى هوك زنة الألف رطل التى انفجرت قرب جسر حديدى أقامه خبراء سلاح المهندسين ومات فوقه ستة خبراء روس ، لو أننا تأخرنا قليلاً عند نقطة المثلث مدخل مدينة السويس ، كانوا يوقفون العربات عندها للتحقق من تصاريح المرور ، فى ذلك اليوم الحار من أغسطس سنة سبعين وتسعمائة وألف هاجمت الطائرات المنطقة بعد اجتيازنا لها بدقيقتين .

مرات عديدة بلا حصر ، والغريب أننى لحظة الخطر كنت أعيش اللحظة وكأننى أرقب شخصًا آخر يفصلنى عنه مدى ، وبهدوء ، حتى إذا انقضت لحظات الخطر بدأت أستعيد ما كان ، وينتابنى الخوف أو الحيرة وأشكر الله كثيرًا على أننى ما زلت حيًا وأن أجلى المقدر لم ينته بعد ، والغريب أننى كنت أشعر بعد انقضاء الخطر أننى أعيش وقتًا إضافيًا ممتدًا ، وقت ضائع مثل تلك الدقائق التى تضاف إلى مباريات كرة القدم ، وبدلاً من تضاعف الحرص ، أو الخوف ، كنت أزداد جرأة فى لحظات الخطر التالية ، ولذلك عرفت أن مواجهة الخطر أثناء القتال تشجع على مواجهته مرات أخرى ، وهذا ما يسميه العسكريون « تطعيم المعركة » .

ولكننى خلال الحرب الطويلة التى خاضتها مصر بعد هزيمة ١٩٦٧ وحتى أكتوبر ١٩٧٣ كنت ممتلئًا بالحماس والروح الوطنية المتأججة ، كانت هناك قضية كبرى يتضاءل إلى جانبها كل شىء ، حتى الموت . .

لكن . . هذا الموت المجانى الناتج عن الإهمال ، عن التسيب ، الذى أودى بطالبة فى مقتبل الشباب العام الماضى عند المزلقان المجاور ، فوق هذا الخط عينه ، هذا الإهمال الذى أودى بطفلة كالزهرة الأسبوع الماضى عندما سقطت فى حفرة عميقة وعجزت أجهزة الدفاع المدنى والإنقاذ عن استخراج جثتها ، ونجحت شركة مقاولات وشركة بترول ولكن . . بعد ثلاثة أيام ، بعد فوات الأوان خرجت بعدها الصغيرة ويداها فوق رأسها فى وضع غريب وكأنه صرخة احتجاج بريئة ، صامتة ضد التسيب الذى أصبح سمة من سمات حياتنا . .

لا . .

لنرجع

إذا كان الله قد أنقذنا ، وعبرنا مباشرة أمام الموت ، فماذا سيحدث غدًا أو بعد غد مع آخرين لا نعرفهم ، لابد أن أتحرى الحقيقة . .

لماذا لم يحذرنا جندى المرور ؟

لماذا لم تدق الإشارات الحمراء عند المزلقان ؟

لماذا لا يوجد حاجز يمنع مرور العربات عند مرور هذا الوحش الليلى والذى يحتاج إلى مسافة كبيرة حتى يمكنه الوقوف ، مسافة كنا سنختلط خلالها بالعجلات ، والقضبان ، هذا كله بعد تلقى اللطمة ، الصدمة الهائلة والمسددة إلى جهة اليمين حيث كنت أجلس . .

فعلاً . . لابد من وقفة . .

واستدار الدكتور سعد صامتًا .

* * *

توقفنا أمام المزلقان الذى عبره الموت منذ لحيظات ، لمحت جندى المرور ، لم يكن هناك غيره ، ترجلت ، اتجهت إليه ، كان شابًا ريفيًا ، مجندًا ، مجهد الملامح ، يرتدى سترة سوداء شتوية ، وغطاء رأس أكبر من دماغه ، لم أكن قادرًا على إبداء القسوة أو اتباع منطق « بص شوف بتكلم مين ؟ » ، سألته بهدوء . . لماذا لم يحذرنا أثناء مرورنا ، لماذا لم يرفع يده ؟

قال بسرعة أن العربات كلها كانت واقفة .

سألته : أى عربات ؟

قال : كانت هنا . .

وأشار إلى المكان الذى عبرنا منه ، لست بحاجة إلي القول أننى متأكد تمامًا أنه لم يكن هناك أى سيارات خلال اجتيازنا المزلقان ، رحت أؤكد له ذلك ، بعد لحيظات قال :

« مش ربنا ستر ونجاكم . . زعلان ليه ؟ »

قلت أن ذلك يمكن أن يحدث فى المرة التالية ، ويروح ضحايا أبرياء ، كانت أسوار كلية النصر على مرأى البصر حيث يدرس مئات الطلبة بينهم ابنى وابنتى . .

« لماذا كان المزلقان مفتوحًا ؟ »

قال بلهجته الريفية المتعبة أن الجنزير الذى يسد المزلقان من مسئولية الخفير .

« هل يوجد خفير ؟ »

أشار إلى كشك متوارى فى العتمة إلى جوار المزلقان ، كان حوارنا يدور الآن بدرجة صوت أعلى ، الحق أننى كنت مستفزًا من إصرار الجندى على خلق واقع آخر لا علاقة له بما رأيته ، رغبة منه في التخلص من المسئولية ، وكنت فى حيرة من أمرى أمام هذا الإنسان شديد الإنسحاق ، الذى جاء من قرية بعيدة ربما ، وأمروه بالوقوف هنا ، فى منطقة ربما لا يعرف شوارعها ، رغم غضبى منه كنت مشفقًا عليه ، إلا أننى شعرت بالسخط الحقيقى عندما رأيت الخفير .

* * *

ربما تجاوز الخمسين ، ملابسه رثة ، قميص وبنطلون ، لحية غير حليقة ، نحيل ، فى عينيه آثار النوم ، بدا غير عابئ بأى شىء ، تساءل بعدوانية :

« إيه . . فيه إيه ؟ »

كررت استفساراتى مرة أخرى ، لماذا لم تكن هناك أى علامة إنذار ، لا ضوء أحمر ، لا رنات جرس ، لا جنزير حديدى . . قال بلا مبالاة . .

« الجنزير بحطه بالنهار بس . . »

كانت إجابته غير منطقية ، واستفزازية أيضًا ، راح جندى المرور يتابع الحوار ، بينما ظهر رجل أشيب يرتدى جلبابًا ، لا أدرى من أين جاء فى هذه الساعة الليلية المتأخرة ؟ ربما كانت له علاقة بالكشك الذى لا يغلق أبوابه . .

« صلوا على النبى وروقوا . . »

فى هذه اللحظة ظهرت سيارة شرطة ، إحدى الدوريات التى ظهرت أخيرًا فى مدينتنا ، توقفت ، نزل منها ضابط مهذب ، راح يصغى إلى ما حدث بعد أن سألنى ، أكدت له أن المزلقان كان مفتوحًا تمامًا ، وما من علامة تحذير تشير إلى القطار المقترب ، كرر جندى المرور . .

« كانت فيه عربات واقفة . . »

هنا صاح الخفير . .

« والجنزير كان محطوط . . »

قال الرجل مرتدى الجلباب . .

« مش لسه أنت بتقول إنك بتحطه بالنهار بس . . »

التفت الضابط إلى جندى المرور ، طلب بطاقته ، هنا قال الدكتور سعد الذى لم يفارق العربة واكتفى بمتابعة الحوار من خلف المقود . .

« الخفير هو الذى يستحق المساءلة . . »

قال الضابط . .

« هناك جهة مسئولة عنه . . مباحث السكك الحديدية . . »

صاح الخفير ملوحًا بيده . .

« أنا من أربعة وعشرين سنة وعارف شغلى كويس . . وبعدين أنتم كويسين أهه زعلانين ليه بقى ؟ »

كررت سؤالى عن وجود الجنزير الذى يمنع مرور العربات ، قال الخفير متطلعًا إلى نقطة فى الفراغ . .

« طبعًا . . كان فيه جنزير . . »

تساءلت بهدوء . .

«امال عدينا إزاى وشفنا القطار على بعد أمتار منا فوق القضيب؟»

لوح بيديه . .

« والله اسأل نفسك إزاى . . وأنا إيش عرفنى ؟ »

راح الرجل ذو الجلباب يكرر . .

« يا بيه حمدًا لله على السلامة . . حصل خير . . »

بدا جندى المرور مضطربًا ، بينما كان الخفير ممعنًا فى الكذب ، كان الواقع الذى يعيد خلقه مناقضًا تمامًا للواقع الذى عشته ومررت به وكدنا نفقد حياتنا خلاله ، كان الليل موغلاً ، والنقاش ينتقل من طور إلى طور ، والخوف بدأ يتضاعف لدى جندى المرور الذى بدا لى أنه سيكون الضحية الوحيدة ، بينما المسئول الرئيسى ينتقل من طور فى الكذب إلى طور آخر ، راح الرجل ذو الجلباب يردد . .

« حمداً لله على سلامتكم .. خلاص بقى يا بيه .. »

داخلنى إشفاق على الجندى ، أعاد الضابط إليه البطاقة ، عدت إلى السيارة ، إلى عبور المزلقان ، قال الدكتور سعد الدين إبراهيم ..

« كنت أعرف أن الموقف سينتهى إلى ما انتهى إليه .. »

لم أرد ، كنت أفكر فى الاحتمالات ، واصطدام القاطرة بالسيارة ، وتداعيات ما كان يمكن أن يحدث ، وكذب الخفير ، ولامبالاته وبؤسه أيضاً ..

استمر الدكتور سعد ، قال :

« على أى حال إذا كان لابد من فائدة فإنه ربما ينتبه إلى أداء واجبه أسبوع آخر .. ثم يعود إلى ما كان عليه .. »

واستمرت العربة تتقدم فى الليل ، مدينة لحركتها ، لوجود راكبيها إلى الصدفة والأجل المقدر !

الفجر الجميل

جاء أبى من أقصى الصعيد يسعى فى العشرينات تقريبًا ، لزم جوار سيدنا وحبيبنا ومولانا الحسين ، تنقل من حارة خوش قدم ، إلى العطوف ، إلى درب الطبلاوى بقصر الشوق ، وإلى درب الطبلاوى جئت ، كلها أماكن قريبة من الضريح القاهرى للإمام الشهيد ، لم يخلف يومًا صلاة الفجر فى مسجده ، من أركان صباى قيامه مبكرًا ، إن فى حر الصيف أو نداوة الخريف أو زمهرير الشتاء ، وعودته مع مطلع النهار حاملاً إفطارنا اليومى ، الخبز الطازج اليومى ، وطبق الفول من بائع مشهور اسمه أبو حجر ، كان يقف جهة حارة أم الغلام ، يزين سطح الفول بفصوص ثوم مهروسة ، وتوابل حريفة ، ما زال مذاقه فى فمى مع أن العهد انقطع به منذ أكثر من خمسة وثلاثين عامًا ، أما لبن المالكى الدسم فما زال عبير بخاره يلفح وجنتاى .

صوت القبقاب الخشبى فى الفجر ، الماء يتدفق من صنبور الوضوء ، تحية الحاج السنى بائع العطور وجارنا إذ يلقى أبى فوق السلم ، ثالث لا أذكر اسمه ، ابتعاد خطواتهم فى سكون الليل ، عبر الفجر الجميل .

عندما بدأت أصحب أبى مضيت باعتزاز وزهو ، ومنذ اجتيازى باب المسجد المعطر بالأمان وضوءه وحضوره وذكرى صاحبه تمثل عناصر أساسية من تكوينى .

رائحة الحصير الذى كان يغطى الأرض ، ثم الأبسطة الحمراء ، الفراغ النورانى ، الموسق بأنغام خفية المصدر ، لا ألج فراغه

الآن ، لا أسند ظهرى إلى أحد الأعمدة الرخامية إلا . . وتمسنى رغبة فى ذرف الدمع على ما مضى وكان .

* * *

كان أبى يعمل فى وزارة الزراعة ، ذلك المقر الراسخ فى الدقى ، أحيانًا يصحبنى معه إلي المتحف الزراعى ، كانت المنطقة المحيطة حتى نهاية الخمسينات مغطاة بالمزارع والحقول ، بساط من الخضرة الريفية المصرية ، كانت كلمة إمبابة بالنسبة لمن يسكن الجمالية توحى بالبعد الشديد ، أما الوراق وبولاق الدكرور فمناطق نائية .

بالقرب من مبنى الوزارة ، بالتحديد ما بين الدقى والنيل شوارع هادئة ، ومباني جميلة ، عمارات فسيحة ، وضوء مختلف ، كنت أسأل أبى : لماذا لا نسكن هنا ؟ فتأتينى إجابته التى أصغيت إليها مرارًا ، بصيغ مختلفة ، وفى ظروف مغايرة . .

« لا يمكن أن أفارق الحسين . . »

وأسكت متعجبًا ، كيف يفضل الحوارى الضيقة على الشوارع الفسيحة؟ مرت الأيام ، والسنون ، وبعدت الشقة بين الطفل الذى كان والرجل الذى أصبح يسعى . ومع الوقت بدأ يتكشف له المعنى ، ويرى ما لم يكن قادرًا على رؤيته ، بدأ الطفل الذى كان يدرك إجابة الوالد ولكن كأمور عديدة فى حياته ، بعد فوات الأوان ، كان قد انتقل مع الأسرة فى بداية السبعينات إلى مدينة نصر ، وعندما كون أسرته الصغيرة ، استقر فى حلوان ، ومع مرور الزمن ، بدأ شعوره يقوى ، وحسه يقوى ، إنه أودع ركنًا ركينًا من كينونته

هناك ، وفى كل حين ، لا يمر أسبوع إلا ويمضى يومًا أو يومين ، يهيم فى الشوارع التى سعى فيها طفلاً ، ثم شهدت أطواره ، وصباباته ، وأحلامه ، ورؤاه ، وحنينه ، مأواه الآن المقاهى ، والمساجد الصغيرة ، وبيوت بعض الأصدقاء القدامى .

* * *

غير أن موضع سكينتى ، ودثار روحى ، فى ذلك المسجد القاهرى ، المضمخ بالحنين ، وكلما حلت ذكرى الوالد الكريم ، التى مرت فى الثامن وعشرين من أكتوبر الماضى ، لا يكتمل إحيائى لها إلا بزيارة مسجد الحسين ، والمكوث فيه ، لعل روحى الهائمة تهجع ، ولعل المزق التى أصابتنى تلتئم ، وإذ أخطو بعد صلاة العصر إلى الضريح ، أكاد أرى خطى أبى فى خطاى ، وسعيه فى سعيى ، وإطراقة رأسه فى إطراقتى ، حتى إيقاع لفظى ، كأنى أصغى إليه ، لقد أدركت معنى الكثير مما قاله لى ، ما كنت أصغى إلى بعضه بدهشة ، أو حيرة ، أو رفض . . لكن . . بعد مرور الوقت ، وسعيه هو فى أكوان لا تدرك ، ولم يعد لى إلا القدرة على حماية الذكرى من الوهن ، وصخب الحياة .

حدائق النغم

فى المؤتمر الثانى للموسيقى العربية والذى عقد فى القاهرة منذ عام بالضبط فى دار الأوبرا ، جاءت فرق موسيقية من بلاد عربية ، وفرقة من أسبانيا تقدم الموسيقى الأندلسية بشكلها القديم بعد أن قاموا بتصنيع آلات موسيقية مستعينين بكتب الموسيقى العربية الأندلسية القديمة .

من الفرق التى تركت أثرًا عميقًا عندى فرقة سورية ، فرقة معهد دمشق يقودها موسيقار عجوز اسمه عدنان ايلوش من المقطوعات الآسرة التى قدمها ، مقطوعة بعنوان « حدائق النغم » تقوم على تآلف المقامات الموسيقية العربية المختلفة فى تناسق شجى رائع ، وعلاقتى بالموسيقى العربية التقليدية وثيقة ، عضوية ، إذ تشكل دائمًا الخلفية التى أعمل فيها ، خاصة أثناء الكتابة ، حقًا . . لم تأت مقامات الصبا ، والنهاوند ، والمحور ، والسيكا ، والحجاز كار ، من فراغ . . إنما نبعت من الطبيعة الخاصة للشرق ، ومن التكوين الروحى لأهله ، وقد ساعدنى الموسيقار عمار الشريعى فى فهم أسرار الجمال فى الموسيقى العربية من خلال برنامجه الجميل ، العميق « غواص فى بحر النغم » والذى أواظب على الإصغاء إليه حتى لو كنت خارج الديار ، دائمًا بعد منتصف ليلة الأحد .

بعد استماعى إلى فرقة عدنان ايلوش تمنيت أن أقتنى تسجيلاً لحدائق النغم ، فلا أحتمل أن تكون الموسيقى مجرد ذكرى ، ودائمًا أحرص على تنمية مكتبتى الخاصة من التسجيلات الموسيقية والتى أفادتنى أسفارى المتعددة فى إثرائها ، وأصدقائى الأحباء الذين يبلغون أراضى لم أطأها ، يسألونى عما أحتاجه ، فأوصيهم بموسيقى الشعوب الأصيلة .

منذ شهور علمت أن دار الأوبرا طبعت عشر شرائط تضم عروض الفرق الموسيقية التى شاركت فى المهرجان ، وهرعت على الفور لأشترى هذا الكنز الثمين ، فوجدت كنزًا آخر . . تسجيلات مؤتمر

الموسيقى العربية الأول ، الذى عقد عام ثلاثة وثلاثين ، أى منذ ستين عامًا .

التسجيلات جيدة ، وتتيح للمرء اقتناء العروض النادرة التى تقدم على دار الأوبرا المصرية ، وأقترح على الصديق الدكتور ناصر الأنصارى التوسع فى إصدارات دار الأوبرا ، بحيث يتم بيع تسجيلات العروض الجميلة للجمهور على شرائط مسموعة وأخرى مرئية ، إن ذلك يمثل موردًا أيضًا لا بأس به ، إضافة إلى إتاحة الفرصة لهواة الفن الرفيع لاقتنائه والاستمتاع به .

ممدوح البلتاجى

تعرفت إلى الدكتور ممدوح البلتاجى فى باريس عام ثمانين ، عند توقيع عقد ترجمة روايتى « الزينى بركات » ، كان يشغل منصب المستشار الإعلامى فى فرنسا التى درس بها وحصل من السوربون على دكتوراه الدولة ، ثم جاء إلى مصر ليتولى مسئولية هيئة الإستعلامات ، ومن خلال جهده تحولت هذه الهيئة التى كانت تبدو غامضة لمعظم المثقفين إلي منارة حقيقية ، ويبدو أداء الهيئة خلال فترة توليه قيادتها ، رائعًا ، حركة على كل الجبهات للإعلام بثقافة مصر وحضارتها ، وعندما صدر قرار بتعيينه أمينًا للحزب الوطنى بالقاهرة ، شعرنا على الفور بأن ثمة دمًا جديدًا يدفق فى شرايين الشارع السياسى ، ومن هنا فإننى أتطلع بتفاؤل كبير إلى قطاع السياحة بعد أن أصبح مسئولاً عنه ، ويعزز هذا التفاؤل معرفتى العميقة بشخصه الواعى جدًا ، النزيه ، الشريف

جدًا ، جدًا ، وإخلاصه العميق لوطنه ، وفهمه ما يجرى فى العالم ، وأسلوب مخاطبة الرأى الغربى ، وبالتأكيد فإن أول ما يواجهه هو التصدى لآثار العمليات الإرهابية التى تحاول بها قوى لا يعلم إلا الله أين تنتهى خيوطها ، والتى تستهدف ضرب السياحة وخنق مقدرات الوطن ، هنا تبرز قيمة خبرته الإعلامية الطويلة ، وعلاقاته الشخصية ، العريضة برجال الأعمال فى عواصم العالم المختلفة ، بالتأكيد . . قطاع السياحة المصرى الآن بين يدى رجل عالم ، مثقف ، شريف ، نزيه . . لا أذكر الدكتور ممدوح البلتاجى ، وإلا يتداعى إلى ذهنى كل هذه المعانى ، وبلا شك إنها مقومات ودعائم نجاح أى عمل ناجح ، أخشى أن نفتقد تلك المطبوعات المتميزة التى كانت تتدفق يوميًا من هيئة الاستعلامات لتضعنا فى قلب العالم وفكره .

عناد

فى أحد الشوارع التى تخترق منطقة البساتين التى تمتزج فيها عمارات الأحياء بقبور الموتى القديمة والحديثة ، توقفت حافلة النقل العام فى مواجهة حافلة أخرى قادمة فى الاتجاه المعاكس ، تمتد الشوارع لتتقاطع فى عشوائية ، ولا يوجد نظام للمرور يمكن لقائد أى سيارة الاتجاه كيفما شاء .

من مقعدى الأمامى رحت أتطلع إلى قائد الحافلة المواجهة ، كان في الأربعينات تقريبًا ، يبدو نحيلاً ، مرهقًا ، محاطًا بعدد من الركاب الذين يحاولون إيجاد موضع قدم فى الزحام ، كانت

الحافلة مكتظة بالركاب ، أكثر زحامًا من تلك التى أركبها ، بدا أن كل منهما يفضل إلتزام الصمت فى البداية ، المنطق المعلق الخفى بينهما . .

« طيب . . وبعدين ؟ »

سائق حافلتنا واثق ، استند إلى المقود وحملق مباشرة فى وجه زميله عبر زجاج الواجهة ، طبعًا . . الحق إلي جانبه فهو يقود فى الاتجاه الصحيح ، والحافلة الأخرى هي المخالفة ، مضى الوقت وكل منهما فى مكانه ، ساد صمت قلق ، تزايد تحديق كل منهما فى الآخر ، لوح سائقنا بيده ، ثم أطفأ المحرك ، وصاح محتدًا . .

« طيب . . أدى قعدة . . »

كل منهما مقيد إلى مكانه عدة ساعات يوميًا ، قيادة السيارات العمل الوحيد الذى لا يمكن الفكاك منه ، أو التزويغ ، أو الإهمال ، والقيادة فى مدينة مثل القاهرة مكلفة جدًا للأعصاب والطاقة ، بدأ الركاب يتململون ، ولكن صمت السائقين وتحديق كل منهما فى الآخر استمر ، هل كانا يتلمسان لحظات من الراحة وآثرا أن تبدو أمام الجميع فى صورة خلاف أو تحد ؟

فجأة . . لوح سائق الحافلة الأخرى المخالفة ، إشارة آمرة غاضبة ، تعنى : إفسح الطريق !

هنا صاح قائد حافلتنا :

« يا عالم اشهدوا . . مين فينا الغلطان ؟ وكمان عايزنى أوسع له . . »

فى مثل هذه المواقف ، ينحاز راكبو الحافلة إلى قائد السيارة التى يستقلونها ، وأثناء ركوبى المواصلات العامة ، والميكروباس ألاحظ أن الركاب يعلقون مهاجمين الآخرين الذين لم يتعلموا القيادة ، أو الشباب الصغير الذى يقود كل منهم سيارة اشترتها له أمه ! ، طبعًا الركاب يجاملون السائق الذى يقودهم نحو اتجاه معين ، وترتبط حياتهم بما قد يتعرض له هو من أخطار ، « كلنا فى الهوا سوا » ، ولكن . . فى حالتنا نحن ، كان الخطأ مسئولية الآخر ، ومع ذلك بدا مصرًا إصرارًا غريبًا .

صاح بعض الركاب مخاطبين السائق المخالف ، لكى يرجع إلى الطريق الصحيح ، فقط ما عليه إلا أن يتراجع مقدار عجلتين ثم يسلك طريقه الأصلى ، الناحية الأخرى ، ولكنه لم يفعل ، ولأن الحق إلى جانب سائقنا فقد أطرق قليلاً برأسه وترك مهمة الاشتباك للركاب الذين تعرضوا لعبارات قاسية من السائق الآخر .

مضى الوقت ، وبدأت عربات أخرى فى إطلاق أبواقها ، واختصر آخرون الأمر فبدأوا يعدلون الوضع للانتقال إلى النهر الآخر من الطريق والسير فى الاتجاه الخاطئ ، بينما استمر وقوف الحافلتين ، الضخمتين ، بدأت أشعر بالقلق ، لا أدرى كيف سينتهى هذا العناد من الآخر .

فجأة . . ظهر رجل قصير ، نحيل ، يرتدى جلبابًا ، يبدو أنه صاحب نصبة الشاى القريبة ، وقف بين الحافلتين ، خاطب السائقين بصوت عاتب . .

« ليه يا رجاله العند ده بس . . لما إنتم تعملوا كده مع بعض . . امال الأغراب يعملوا إيه في بعض . . »

هنا صاح السائق الآخر . .

« أنا اللى ماشى الأول . . »

وصاح سائقنا . .

« هو الغلطان زى ما إنت شايف . . »

كرر الرجل . .

« يا جدعان . . مش إنتوا اللى تعملوا فى بعض كده . . »

هنا صاح سائقنا . .

« والله عشان خاطرك إنت بس . . »

أدار محرك السيارة ، بدأ المناورة للاتجاه إلى الجانب الآخر ، الخاطئ ، مع أن الطريق طريقه والحق حقه ، بينما كنت أفكر فى الرجل النحيل ، ذو الجلباب ، وقوله « عيب تعملوا كده فى بعض . . امال الأغراب يعملوا إيه ؟ » مع أن السائقين لا يعرف أحدهما الآخر كما بدا ذلك واضحًا ، ربما لانتمائهما إلى مهنة واحدة ، وربما إلى هيئة واحدة ، وربما لأنهما كانا في حاجة فقط إلى إنهاء هذا الموقف حتى ولو مضى كل منهما فى الطريق المضاد لطريقه !

كابتن غزالي ..

غــــزالى :

السويس

غزالى

لا أذكر أيًا منهما إلا وأستدعى الآخر على الفور ، كل منهما مرتبط بالآخر ، ليس عندى أو فى مخيلتى ، إنما فى المكان ، والتاريخ أيضًا والمعنى ، لا أدرى متى رأيت الكابتن غزالى أول مرة ، وإذ أنقب وأطيل البحث فى ذاكرتى المثقلة ، المتعبة والتى بدأ كثير من مضمونها يذوى ويصعب علىّ أستدعائه ، إذ أدير البصر إلى ما مضى ، خاصة تلك الحقبة التالية لهزيمة يونيو أكاد أوقن أننى تعرفت إليه فى القاهرة ، ربما فى مقهى ايزائيفتش القديم فى ميدان التحرير ، والذى كان موضعًا يلتقى فيه العديد من المثقفين ، خاصة كتاب الستينات ، هل قابلته مع عبد الرحمن الأبنودى ؟

ربما . . كان الأبنودى قد اتجه إلى الجبهة عقب الهزيمة وبدأ يكتب ملحمته الرائعة « وجوه على الشط » والتى تعد تسجيلاً لجوهر تلك الحقبة ، وتعبيرًا دقيقًا ، رهيفًا عن أجمل وأنبل ما يكمن داخل أولئك المصريين ، الأصلاء ، البسطاء ، الذين أبوا التهجير ، وبقوا على شاطئ القناة فى مرمى الأسلحة الخفيفة للعدو ، وحديثى عن هؤلاء وعن تجربتهم يطول ، لكننى أكتفى الآن بالقول ، بالتلميح والتصريح ، إلى أنه مهما جرت المتغيرات

ومهما تبدلت الأوضاع ، فإن مضمون تلك الأيام أثمن ما فى ذخيرة أمتنا الروحية ، وأعظم ما نعتصم به وقت الشدة ! لا نعرف ما يخبئه لنا الزمن القادم .

غزالى بقامته النحيلة ، المتوسطة ، ودماغه المرفوع دائمًا ، وجهه المنحوت بقوة ، ملابسه البسيطة ذات الطابع العمالى ، بعد الهزيمة كوّن فرقة من أبناء السويس راحت تجوب المواقع العسكرية والمدن المصرية ، والقرى ، تقدم الأناشيد والأشعار التى نظمها غزالى ولحنها مستوحيًا التراث السويسى العريق ، السمسمية تلك الآلة الوترية الشجية ، الباعثة للحنين ، ذات الأصل الفرعونى ، وهذه الأغانى التى يلوح فيها البحر ، وصوارى السفن العابرة ، وغربة البحارة ، والشوق إلى العودة ، والخفة اللازمة لعمل البمبوطى الذى يتنقل بين السفن والقوارب الصغيرة عارضًا بضاعته للبحارة الأغراب !

إذا كان ولابد نموت
لجل بلدنا تدوق الراحة
لجل ما تعرف سكة بلدى
خطوتها المرتاحة
لجل نأكد حق الفقرا
سنين جايين

قررنا خلاص

قررنا نموت واقفين

رغم ثقتى أننى تعرفت عليه فى القاهرة ، إلا أنه ارتبط عندى بالسويس .

المقهى

كعادتنا ، عند الوصول إلى السويس نتجه إلى مقهى رواش ، هذا المقهى الذى ظل مفتوحًا طوال سنوات الحرب ، لم يغلق يومًا واحدًا ، كان موضعًا يلتقى فيه من تبقوا وآثروا العيش تحت القصف اليومى ، والجنود المارين بالمدينة فى طريقهم إلى المواقع القريبة ، أذكر عم خليل الذى تجاوز الثمانين وحركته النشطة ، الدؤوبة ، وسخريته .

بعد عشرين عامًا ، نجلس فى المقهى الذى تغير كثيرًا ، المكان هو بعينه ، لكن الظروف تبدلت تمامًا ، جلسنا فى الصباح الباكر نحتسى الشاى ، أخرج صديقى وزميلى مكرم الصور التى التقطها للمدينة منذ عشرين سنة ، كان يستعد لإجراء مقارنة بالكاميرا ، حيث يقف فى نفس الموضع ويسجل الوضع الآن ، وهذا ما يقوم به فى جريدة أخبار الأدب منذ عددها الأول ، باذلاً جهدًا كبيرًا .

أمام المقهى موقف للسيارات ، تحدثت إلى شاب سويسى يجلس إلى الناحية الأخرى من المنضدة ، سألت عن الكابتن غزالى ، قال إنه لا يجلس الآن بمقهى رواش ، إنه يتردد على

مقهى نيوسوريا القريب ، أما دكانه فعلى مسيرة خمس دقائق ..

- أى دكان ؟

- دكان الخط .. إنه خطاط ورسام ..

فى هذه اللحظة انتابتنى دهشة ، لأول مرة أعرف أن غزالى خطاط ، لم أسأله فى تلك السنوات البعيدة رغم أننا عشنا أيامًا طويلة تحت القصف ، بل واجهنا الموت معًا ، كان بالنسبة لى «الكابتن غزالى » وبس ! ، رجل المقاومة ، قائد فرقة أولاد الأرض ، ابن السويس الذى يجوب أحياءها ليغنى ويقف بالساعات ممسكًا رشاشه كأحد رجال المقاومة ، كنا نسهر إلى ساعة متأخرة من الليل حتى إذا أدركنا التعب ندخل أى بيت من بيوت السويس لننام حتى الصباح ، كيف لم أسأله يومًا عن مهنته ، عن أسرته ؟

هل شغلتنا الهموم الكبرى عن تفاصيل الحياة ؟

قمت مع مكرم باتجاه الدكان ، فى شارع جانبى صغير أشار أحد المارة إلى الدكان ..

« ما دام مفتوحًا فهو موجود .. »

اقتربت ، لمحته ..

الدكان

كأننا لم نفترق إلا منذ لحظات ، مع أن سنوات طويلة لم نلتق خلالها ، منذ دخولى السويس بعد رفع الحصار المعادى ، الزمن

ترك آثاره بصعوبة على ملامحه ، الشعر أبيض ، الفم خال من معظم الأسنان ، لكن الروح هى . . هى ، القدرة على السخرية ، على الضحك ، الحيوية الفائقة ، على الفور استأنفنا الحديث ، قال : إنه عائد أمس من بورسعيد حيث حصلت فرقة أولاد الأرض المسرحية على الجائزة ، راح يحكى موضوع المسرحية ببساطة وتدفق . .

« حدوتة عن الشهداء فى السويس ، مصطفى هاشم ومحمود عواد . . ستة شهداء ، رسيت ذكراهم فى الآخر على نصب تذكارى من الرخام ، بدأ يصبح من معالم المدينة ، بدأ يجتمع عنده العشاق ، والحرامية والغرباء ، ثم اشترى مجموعة من المستثمرين الأرض القريبة ، وبدأوا التخطيط لشيل اللوح الرخامى . . وهنا يطلع الشهداء الستة ، مصطفى هاشم ورفاقه ليحاسبوا من يريدون اقتلاع النصب . . ويستفزوا همة الناس . . »

يكثر غزالى من ترديد كلمة « الناس » ، يلفظها بإيقاعات مختلفة ، يحدثنى عن أحد أولاد الأرض ، شاب لم يكن له أهل ، ما من بطاقة عنده ، أمى لا يقرأ ولا يكتب . .

« كان متربى فى صندوق زبالة . . »

لم يفارق المدينة ، ضمه غزالى إلى أولاد الأرض ، علمه القراءة والكتابة ، بدأ يشعر أن له أسرة ، بدأ يهتم بنفسه عندما رأى اهتمام الآخرين به ، استشهد خلال الحصار

- تذكرنى بعويس بائع الفجل يا كابتن .

كان عويس بائعًا للفجل ، يأتى به من الشط ويبيعه فى السويس ، ضمه الكابتن إلى أولاد الأرض ، ثم . . إلى المقاومة الشعبية ، فى صباح أحد الأيام أعلنت الطوارئ ، كان لابد من التحاق الجميع بالمركز ، بدا عويس مترددًا ، قال له غزالى متسائلاً :

« مالك »

« أصلى اتفقت على سبوبة فجل »

« إما أن تختار بين الوطن . . والسبوبة »

أطرق عويس قليلاً ، قال . .

« طيب يا كابتن . . اخترت الوطن . . »

عشت واقعة عويس تلك زمن حرب الاستنزاف ووصفتها فى قصة بعنوان السبوبة ، رحت أتأمل صور الشهداء على جدران الدكان الضيق ، المتواضع ، المزدحم بالكتب ، تحمل جدرانه مكتبة قيمة بحق ، معظمها فى التراث والشعر ، ينقسم الدكان إلى مستويين ، صعدت السلم الحديدى الضيق حيث مكتب الكابتن ، على الجدار لوحات ، رسمها هو ، صلاح عبد الصبور ، أمل دنقل ، فؤاد حداد ، يحيى الطاهرعبد الله .

ثمة جرادل للألوان ، لم ألمح لافتات ، ولم يكن الكابتن فى حالة عمل عند وصولنا ، خرج معنا تاركًا الدكان مفتوحًا ،

الجيران يجلونه ويحبونه كما يبدو ، اتجهنا معه إلى سوسو الحلوانى ، أصر على دعوتنا إلى طبق بسبوسة ، أصبحت مشهورة فى المدينة باسم (بسبوسة الحصار) ، لم يتوقف مصطفى (سوسو) عن إعداد الحلوى طوال سنوات الحرب وخلال الحصار ، كان الطبق خلال حرب الاستنزاف مع كوب الشاى باللبن بقرش صاغ واحد ، وخلال الحصار كان يوزعها مجانًا على المواطنين والجنود ، كانت الحلوى الوحيدة التى تصنع فى المدينة .

رحنا نستعيد الذكريات ، ونتحدث عن « أبو جاموس » موقع المدفعية المعادى الذى كان يقصف مدينة السويس من عيون موسى بقذائف ١٧٥ ملليمتر ، أما « عنتر » فكان موقع المدفعية المصرى بقلب المدينة .

« كان أبو جاموس يبدأ وبسرعة يرد عليه عنتر من هناك جنب المدرسة . . »

مضينا إلى كشك الصحف ، هنا كان عم حسن السودانى ، شهدت حفلاً غنى فيه أولاد الأرض تحت قصف الطيران المعادى ، كانت ليلة رهيبة لم يتوقف خلالها الغناء وتصفيق الأيدى المصاحب للأنغام السويسية الشهيرة ، كان الاحتفال بمناسبة شفاء عم حسن من عملية جراحية ، كان هناك راقص رائع ، ما زلت أذكر رقصاته الشعبية التعبيرية ، لأول مرة أرى الأداء الأصلى لرقصة البمبوطية الشهيرة ، ترى . . أين عم إبراهيم الذى كان يعمل فى شركة البترول ؟

« تعيش أنت . . »

رحل عم حسن ، ويقف ابنه مكانه الآن ، تأملت المبنى الذى أمضينا فيه هذه الليلة البعيدة ، أما عبد المنعم قناوى المصور ، وأحد أفراد المجموعة الفدائية التى لعبت دورًا هامًا فى صد الهجوم المعادى ضد المدينة فى أكتوبر ١٩٧٣ فيعمل الآن سائقًا على عربة أجرة داخل المدينة ، أما أحمد العطيفى فيعمل الآن فى بلد عربى ، فلة اليونانية لا تزال فى المدينة ، عاشت الأيام الصعبة كلها هنا ، يسميها السوايسة « فلة » ، لقد تجاوزت السبعين الآن ، مضينا إلى زيارة سونجر الهندى وأشقائه ، وحسين العشى مؤرخ السويس ومسجل أحداث الحصار فى كتابه القيم ، الوثائقى « حصار السويس » ، توقفنا أمام عمارات هائلة الحجم ، فاخرة ، بعضها شيده هذا أو ذاك ، يقول كابتن غزالى . .

« أول من هاجروا . . وأول من رجعوا . . وفى سنوات قليلة ارتفعت هذه المبانى . . »

لم أشعر بالمرارة فى حديث غزالى ، وإن كنت رصدت ما يشبه الدهشة الأسيانة ، ربما لتبدل الواقع ، وتغير الناس ، وابتعاد تلك الأيام التى عشناها معًا ، كانت كل خطوة فوق أرض المدينة تثير عندى أحاسيس شتى ، وانفعالات طال كمونها ، حتى أننى عدت إلى القاهرة وفى النية عزم على كتابة ما أذكره ، ما لم أدونه بعد فى السويس بالذات التى أمضيت بها أيام مجيدة وقد شرعت بالفعل فى أخبار الأدب لعلىّ أصون بعضًا مما جرى . أما الكابتن

غزالى فما زال يسعى بين الناس ، يتحدث عنهم ، ويغنى لهم ، ويمجد الشهداء ، وينعش الذاكرة الشعبية ، منشدًا أغانى الزمان الجميل ، المجيد . .

هديل حمام الحما

تراتيل اساميكم

يا نن عين الوطن

قلبوا يناديكم

صلا الحمام وانجلا

صلا الحمام وانجلا

الله يجازيكم !

حقًا . . والله زمان يا كابتن غزالى !

مدخل إلى المدينة ..

لكل مدينة مظهر وجوهر ، أما المظهر فما يقع عليه البصر من مشاهد ، بيوت ونواصى ، ميادين وأسواق ، واجهات وبنايات ، جسور وساحات صغيرة ، أما الجوهر فيدرك بالحس ، يمكن التقاطه منذ اللحظة الأولى للنزول والوصول ، وقد لا يكتشفه الإنسان إلا بعد مدد طويلة أو قصيرة تتفاوت من هذا إلى ذلك ، وهناك من يمكن أن يعبر ويفسر ما يشعر به ، وكثيرون لا يفصحون ، لكن لديهم من الإشارات والعبارات ما يفسر ويشرح ، وبقدر ما يمنح الإنسان المدن طبيعتها ، بقدر ما تضفى عليه المدن من خصوصية ، هكذا نقول : بورسعيدى ، محلاوى ، اسكندرانى . . سويسى ، وكل لفظ من تلك الألفاظ يستدعى جملة صفات ومعان ، وحقائق جغرافية وتاريخية .

وبالنسبة لى إذا سمعت كلمة « السويسى » فإن معان عديدة تتداعى على الفور ، أولها «الجدعنة» ، «البحر» ، «الجبل» ، «الكفاح» ، «القناة» ، «كفر أحمد عبده» ، «الحصار» ، «الحرب» ، «تجاوز المحنة» ، «الشوارع الخالية» ، «البيوت المدمرة» ، «الأصفر لون الرمال» ، «الأزرق لون البحر» ، «الأخضر لون النبات» ، «البنى . . لون الواجهات الخشبية للبيوت العتيقة» ، «المخابئ» ، «القصف» ، «أنغام السمسمية الشجية» . .

هكذا

تطلعت إلى بيوت السويس فى الصباح الباكر والسيارة تمضى محاذية للخليج ، الزهور الهادئة ، والأشجار الخضراء التى تنمو

بشكل طبيعى ، لا يوجعها قصف ، ولا تهتز أغصانها من تفريغ الهواء الناتج عن الإنفجارات ، إنما تميل لهبوب النسيمات والرياح فقط .

المكان هو المكان ، لكن ما أشد الفارق بين ما عاينته منذ عشرين عامًا ، وما أراه الآن .

* * *

لا . . ليس عشرين سنة بالضبط ، إنما أعنى ربع قرن كامل ، هذه العشرين مضت على أكتوبر ، ولكن ترددى بدأ عام ثمانية وستين وتسعمائة وألف ، كان ديسمبر ولكنه مختلف عن أى ديسمبر آخر حل أو سيجئ ، هذا الكورنيش كان يعد خط الدفاع الأمامى ليس عن المدينة فحسب ، ولكن . . عن مصر كلها ، فى الأرض غاصت حفر صغيرة تطل منها خوذات الجنود ، ما زلت أذكر ضابطًا برتبة ملازم ، قوى البنيان ، صخرى الملامح ، كان يتحدث إلينا فى ذلك الصباح الباكر بهدوء ويشير إلى الناحية الأخرى ، إلى الضفة المقابلة ، إلى لسان بور توفيق حيث . . العدو ، ومصادر القصف المدفعى للمدينة ، ما زلت أذكر ملامحه وكأنى أراه أمامى ، حتى نبرات صوته التى شابها حزن نائى لم يستعصى علىّ رصده ، ولكننى لا أعرف اسمه ، ولا أدرى عنه أى شىء ، وبالتأكيد . . مستحيل أن نلتقى مرة أخرى ، فما أكثر البشر الذين نلتقى بهم عند عبورنا للمدن ، ثم يتوهون فى زحام الحياة ، فما البال بمدينة كانت تقع عند أقصى نقطة من الخط الأمامى ، بقى فيها عدد قليل من أهلها خاصة بعد التهجير ، أما الضباط والجنود المنتشرون حولها وفى قلبها فمعظمهم قادم من أنحاء شتى ، من أطراف الوطن ، وقلبه .

دائمًا تبقى البدايات ، اللحظات الأولى للوصول ، الملامح الأولى التى يقع عليها البصر ، كذلك النهايات ، ولكن البدايات تبقى فى الذهن قوية ، ماثلة ، لذلك ما زال وجه هذا الضابط ماثل عندى ، كذلك وقفته الصلبة ، الإنسانية .

* * *

لكل مدينة مدخل ، والمدخل يتصل مباشرة بالجوهر ، بالسر الذى يستعصى على الرصد ، ومدخلى إلى المدن عامة متعدد ، لكن أبرز ما فيه المقاهى ، حتى إذا نزلت لأيام معدودات بمدينة غريبة عنى ، فإننى أبحث حتى أستقر بمقهى معين أستريح إليه ، أعتاده ، منه أتأمل الطرقات والساعين أمامه ، فى السويس لم يكن هناك خيار ، كان هناك مقهى واحد بقى مفتوحًا زمن الحرب ، وللمقهى فى الحياة اليومية المصرية شأن ودور ، وعندما مضيت إلى الجبهة لم أتوقع أن أجد مقهى مفتوحًا يستقبل الزبائن وله رواده ، لقد خلت المدن من أهلها بعد التهجير ، وما من شىء يثير الأسى والحزن مثل مدينة خالية ، مشهد ضد سُنة الحياة وناموس الطبائع الإنسانية ، فالبيوت قامت لتحتوى الحياة ، لا . . لكى تخلو منها ، ولكنه قدر السويس ومدن القناة الصابرة ، المكافحة ، ورغم التهجير وإخلاء الأهالى ، بقى صفوة من الرجال ، أبوا المفارقة ، وعاشوا تحت القصف اليومى ، واستمرت مظاهر الحياة المصرية ، بدءاً من بائع الفول إلى الحلوانى ، إلى . . المقهى .

فى الليلة الأولى لوصولى ، وكان الوقت رمضانيًا ، اهتديت إلى مقهى رواش ، كان مواجهًا لمحطة القطار التى أزيلت الآن ، زجاجه

مغطى باللون الأزرق ، وتمتد فوقه خطوط الورق اللاصق إتقاء للاهتزاز الناتج عن الإنفجارات التى تحدث فى أى لحظة ، إنفجارات مختلفة تعلمت مع الوقت أن أميز أنواعها بالأذن ، قذائف مدفعية متعددة العيارات والأنواع ، قذائف ناتجة عن غارات طيران ، مع معايشة الحرب تستنفر حواس الإنسان ، ويصبح لها قانونها الخاص ، عرفت الإرتماء فوق الأرض قبل إنفجار الدانة ، أو لحظة مرورها عبر الفراغات الفاصلة .

فى زمن الحرب يتقارب البشر بسرعة ، خاصة أبناء الوطن الواحد ، الوقت المتاح محدود ، قصير جدًا ، وقد ينتهى أجل المرء مع الخطوة التالية ، مع الإنفجار القادم ، لذلك فإن ما يستغرق يومًا فى الحياة العادية قد يختزل إلى ثوان ، وفى مواقف أخرى يحدث العكس ، فربما تمضى ثوان خلال موقف شدة تبدو عند استعادتها فى الذاكرة وكأنها دهور ، هذه اللحظات الفاصلة بين الحياة والموت ، التى يتقرر فيها المصير الإنسانى لها صيرورتها الخاصة .

فى مقهى رواش بدأت صلتى بأبناء السويس ، بالكابتن غزالى ، برجال المقاومة الشعبية ، أحمد العطيفى ، عبد المنعم قناوى ، ومحمود عواد ، ومصطفى هاشم ، وغيرهم ، وإننى أذكر الأحياء والشهداء معًا ، فعندما اجتزت هذه اللحظات الفاصلة فى زيارتى الأولى كانوا كلهم يسعون ، ومع مرور السنوات بدأ رحيلهم إما إلى آفاق الإستشهاد أو صوب ضفاف الغربة ، غربة خارج حدود الوطن ، وغربة داخله ، كان مقهى رواش نقطة لقاء وتعارف وتبادل للأخبار ومكان يبدأ منه الحوار أو ينتهى ، كان مقصدًا

للجنود العابرين ، الذين يمرون بالمدينة متجهين إلى مواقعهم ، داخلها أو خارجها ، يأوون إليه التماسًا لكوب شاى ، أو لحظات راحة ، أو بحثًا عن حميمية عميقة .

ما زلت أذكر سعى عم خليل النادل ، كان قد تجاوز الثمانين ولكنه يبدو فى نشاط شاب فى مقتبل العمر ، لا أذكره قاعدًا ، دائمًا يتحرك فى مخيلتى ، إما يحمل صينية فوقها أكواب الشاى والقهوة والماء ، وإما يبادل هذا أو ذاك الحوار ، كان ينام فى المقهى ، ولا أدرى مصيره الآن . . رحمه الله إن كان أوفى الأجل ، وأمد الله فى عمره إن كان حيًا يسعى ، لقد تذكرته مرات عند وصولنا إلى المقهى فى ذلك الصباح الباكر من الأسبوع الماضى .

* * *

كنت أتتبع أخبار مقهى رواش خلال الحصار ، وبعد فتح الطريق فى فبراير عام أربعة وسبعين وتسعمائة وألف اتجهت إليه فى نهاية يوم طويل مفعم بالعواطف والمشاعر ، كان المقهى قد أصيب بقذيفة مدفعية ، ولكن رواده الذين أرتبطوا به أعادوا ترميمه ، وأضافوا إليه بلاطات من « القيشانى » الأزرق ، بعد ربع قرن بدا المقهى مختلفًا ، لكم أمضيت من أوقات فوق هذا الرصيف ، وهنا فى الداخل ، خاصة فى الليل ، عندما كنت أصغى إلى المدينة التى يحاول الطيران المعادى انتهاك أجوائها ، فتنتفض من خلال مواقع دفاعها الجوى لتدفع الشر والأذى عنها ، وفى لحظات عديدة كنت أتخيلها تستدير بأكملها ، ببيوتها ، بناسها ، بتاريخها وتراثها ، وجبلها العتاقى المشرف عليها .

المقهى الآن يموج بالحركة ، حركة من نوع آخر مختلف ، فثمة موقف لعربات الأجرة حوّل المقهى إلى هذا النوع من المقاهى التى تعتمد على « الزبون النقالى » أى العابر ، الذى يمضى وقتًا قصيرًا ينتظر خلاله موعد قطار أو رحيل حافلة أو موعد لقضاء حاجة فى مصلحة حكومية أو . . الذهاب إلى لقاء ما ، مثل هذه المقاهى يبدو الإهمال واضحًا فيما تقدمه من خدمة ، وقد يلحق ذلك المكان نفسه ، فى مقهى رواش سألت شاب جلس بالقرب منى عن كابتن غزالى . . قال أنه يتردد على مقهى آخر قريب « نيوسوريا » ، راح يصف لى ، تلك منطقة القلب من المدينة وكلها متقاربة ، لم يكن صعبًا علىّ أن ألمح وجوهًا سويسية أصيلة ، ولكن معظم الوجوه الأخرى غريبة ، استفسرت عن أسماء أخرى كنت التقى بأصحابها دائمًا هنا فى المقهى ، قال لى الشاب الذى كان فى السنة الأولى الإعدادية زمن حرب أكتوبر . .

« عبد المنعم قناوى . . إنه يعمل سائقًا على الميكروباس . . ولو بقيت دقائق يمكنك أن تراه . . ولكن انتبه . . إذ أنه ربى لحيته وأصبحت كبيرة جدًا . . »

عبد المنعم كان مصورًا من أهالى السويس ، تطوع فى صفوف المقاومة الشعبية ، انتمى إلى مجموعة من الفدائيين قامت القوات المسلحة بتدريبهم ، واستشهد منهم عدد من أنبل الرجال الذين عرفتهم زمن حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر ، كما لعب أفراد هذه المجموعة دورًا هامًا فى المعركة التى دارت أمام قسم الأربعين ، وكانت نقطة تحول فى معركة السويس كلها أثناء محاولة العدو اقتحامها فى الرابع والعشرين من أكتوبر ، ارتبطت بأفراد هذه المجموعة

بعلاقات إنسانية حميمة ، وما من مرة أتردد فيها على السويس إلا وسعيت إلى مقابر الشهداء - المتواضعة جدًا الآن - لزيارة مصطفى أبو هاشم (استشهد فى ٨ فبراير ١٩٧٠) ، وشقيقه الذى كان يكبره سنًا « أحمد أبو هاشم » ، استشهد عند كوبرى البراجيلى برصاص رشاشات الدبابات الإسرائيلية ، و « إبراهيم سليمان» أحد الأساطير التى عرفتها عن قرب ، و « أشرف عبد الدايم » و « محمود عواد » ، استشهدوا جميعًا فى معركة قسم الأربعين .

أسماء عديدة كانت تتردد فى ذاكرتى وأنا أجلس فى نفس الوضع الذى أعتدت الجلوس فيه بمقهى رواش ، ولكن ملامح المكان ، وحضوره ، ونوعية الحركة ، جعلتنى أدرك شيئًا فشيئًا أن الواقع مختلف تمامًا ، وأن هذا المقهى الذى أعتدته ، وأصغيت فيه إلى بطولات شتى ، وتابعت فيه حوارات ساخرة ابتسمت لها كثيرًا تحت القصف ، هذا المقهى مكان آخر مغاير تمامًا ، بالطبع لم يكن هناك عم خليل ، أما عم حسن السودانى بائع الصحف فقد رحل منذ سنوات ، لماذا غير الكابتن غزالى مكان جلوسه ؟

وهل سنراه ؟

كيف أصبح ؟

تذكرت فرقة أولاد الأرض ، وأنغام السمسمية التى كانت تعلو وتغطى بالفعل على أصوات الإنفجارات والقصف ، تذكرت أشعار غزالى البسيطة ، العميقة .

يا رجال السويس يا دشمة وسناكى
يا مجد العروبة .. غنوتنا يوماتى

يا رجال السويس .. يا خطاوى وخنادق
يا قلوب لابسة كاكى .. بتعزف ع البنادق
يا شباب السويس .. يا شراع السفينة
يا بسمة للحبايب .. ونارع اللى يعادينا
يا رجال السويس .. بركان يا منارة
يا مصانع .. مزارع بعرقنا دوّارة
يا رجال السويس يا حب وجسارة
يا زنود ع المدافع بتحمى الحضارة
يا بيوت السويس .. يا شهدا وغناوى
يا موّال مصر الجاية ومدا الخطاوى

* * *

دائمًا تشغلنى علاقة الزمان بالمكان ، وعلاقة الزمان بالبشر ، قمت واقفًا ، لم يطل بى المقام فى المقهى الذى بدا مختلفًا تمامًا ، قلت لزميل أيامى البعيدة مكرم جاد الكريم ..

« نبدو كأهل الكهف .. »

ضحك مكرم ، إنه قليل الحديث ، لكنه إذا نطق عبر ودل ، قال بعد لحظات ..

« هيا نبحث عن غزالى .. عن الزمن الذى عرفناه »

اجتزنا الناصية متجهين إلى دكان غزالى الذى لم أعرف مهنته قط إلا بعد ربع قرن من تعرفى إليه ، لم أهتم فى الماضى بسؤاله عن مهنته ، كان غزالى شاعرًا ومثقفًا ورجل مقاومة ، ألا يكفى ذلك ، واليوم .. أعرف أنه خطاط !

فى الطريق إليه كنت أتأمل الواجهات ، واللافتات ، وملامح البشر ، تتموسق فى داخلى نغيمات شجية ، ويموج عندى صوت محمد حمام الدافئ ، الحزين ، الشجى ، مرددًا كلمات الأبنودى :

يا بيوت السويس
يا بيوت مدينتى
استشهد تحتك
وتعيشى انتِ

* * *

حقًا . .

ما أوسع الفارق بين ما يعيشه الإنسان وما يمر به من تجارب عبر مراحل حياته المختلفة وبين ما يتبقى فى الذاكرة مع التقدم فى الزمن ، بلا حصر . . تلك اللحظات التى تتبدد إلى أفق العدم اللامرئى ، الذى يصعب علينا الإلمام به ، وبلا حد ، تلك الملامح النائية المترامية من أفق الذاكرة المكدودة ، المثقلة ببقايا ما احتوته تلك الأوقات البعيدة .

طوال الأعوام الماضية تعاودنى ملامح تلك الليلة من ليالى الحرب ، أمضيناها مع أبناء السويس ، بعض منهم ، فى شقة عم حسن بائع الصحف ، أراه الآن بعدما يقرب من نصف قرن ، باسم الحضور ، طيب السمرة ، رقيق الملامح ، ولا أستعيده إلا مرتديًا جلبابًا أبيض ، كان الكشك يقع أمام منزله وما زال ، شقة تحتل طابقًا أرضيًا فى منزل يحمل سمات الأربعينات أو

الخمسينات قرب مقهى رواش ، وعلى بعد أمتار من دكان سوسو الحلوانى ، ها أنا ذا أقف فى الصباح الباكر ، بصحبة الكابتن غزالى يقدمنى إلى شاب فى منتصف العمر ، ولو أن غزالى لم يقدمنى إليه ويقول : هذا ابن عم حسن . . لما عرفته ، ولو أنه لم يشر إلى نوافذ الطابق الأول ردًا على استفسارى لما اهتديت أبدًا إلى المسكن الذى أمضينا فيه ليلة كاملة من أجمل وأغرب الليالى التى عرفتها فى الجبهة ، انصهرت فيها عوامل عديدة ، وعناصر غامضة ، ومكونات شتى للشخصية المصرية اجتهدت فى تحليلها وفهمها مراكز بحوث ، وحواسب آلية ، ورسائل علمية .

توقفت متطلعًا إلى النوافذ المغلقة ، مستعيدًا رقصات عم إبراهيم وحضوره المتدفق ، الزاخر ، عم إبراهيم العامل بشركة النصر للبترول ، المتطوع فى المقاومة الشعبية بعد هزيمة يونيو ، أحد أفراد أولاد الأرض ، حافظ التراث الشعبى ، عم إبراهيم الذى رقص بحيوية نادرة فى تلك الليلة البعيدة ، والذى علمت أنه رحل إلى الأبد منذ عدة سنوات .

وقفت أتطلع إلى المكان الذى احتوانا ، وتجمعنا فيه حول الطعام البسيط ، الشهى ، وإذا لم تخننى الذاكرة كان «كشرى» ، ترى . . أى مكوناتى الآن نتاجه ؟ وهل بقى منه أثر يستعصى على بالطبع إدراكه ؟

بمجرد عودتى إلى القاهرة عدت أقلب أوراقى ، ملاحظاتى التى أدونها فى مفكرة صغيرة ، رحت أستعيد بعضًا مما كتبت وقتئذ ، وكنت أفاجأ بتفاصيل غابت عن ذهنى ، فكأنى قارئ غريب

يطالع نصًا لكاتب يجهله شخصيًا ، ما من صلة بينهما ، يحدث هذا لى ولم يمض بعد أكثر من ربع قرن . . فما أغرب ذلك ، وما أعـجب صلة الإنسـان بما يكتبـه من نصـوص ، إن مكتـوبة أو مرسومة أو منحوتة . .

* * *

حقًا . . تحيرنى قوانين الذاكرة الخفية .

أذكر وقع أقدامنا عند مفارقة شقة عم حسن قرب الفجر ، ولا أذكر ملامح نعيم حافظ ، بل إننى أحاول عبثًا ذلك ، ولا أدرى مستقره الآن ، حتى نبوية راحت تمامًا من ذهنى .

فى أفق يسطع وجه مـصطفى أبو هاشم وقـامـتـه التى كـانت تجسيدًا حيًا للتحدى ، خاصة بميله قليلاً إلى الأمام وحديثه عن مظاهر استفزاز المقاتلين فى المدينة ، استشـهد مصطفى فى يوليو ١٩٧٠ ، استشـهد مبكرًا ، ولحقه شـقيقه فى معركـة الدفاع عن المدينة عـام ١٩٧٣ ، من رحلوا إلى الأبد أرى مـلامـحـهم فى أفق وعيى وكـأنهم يمثلون الآن أمـامى ، وبعض من يسـعون فى الحيـاة الدنيا أجهد نفسى لأستدعى أى تفاصيل تتعلق بهم .

ها هو عم حسن يطل من عبر حدود الخلود والعدم ، أستعيد قصيدة طويلة ، شجية للأبنودى عنه سأنشرها قريبًا فى « أخبـار الأدب » ، قصيدة ملحمية لم تنشر من قبل يختتمها عبد الرحمن مودعًا . .

مع السلامة يا عم حسن

مع السلامة يا عم حسن

انطباعات باريسية

نوفمبر ١٩٩٧

الثقافة هى المحور . .

منذ اللحظة الأولى للشروع فى الرحلة تبدأ فرنسا تقديم نفسها من خلال الصحافة ، هكذا رحت أتأمل الإعلانات المصاحبة لبطاقة الطائرة ، كلها عن معارض فنية وأنشطة ثقافية ستقام خلال الشهور القادمة ، ورحلات خاصة تقدم تخفيضات كبيرة للزوار الذين يقصدون باريس لمشاهدة المعارض والعروض .

ألا تبدو الفكرة وجيهة ومثيرة؟

أن تقام معارض خاصة نوعية فى القاهرة ، معرض للملك توت عنخ آمون مثلا ، أو آثار رمسيس الثانى بحيث يضمها برنامج محدد ، وأن تقدم مصر للطيران تخفيضات خاصة للقادمين من أجل تلك المناسبات يقتضى ذلك تنسيقا وتعاونا بين وزارتى الثقافة والسياحة والشركة الوطنية للطيران ، وبالتأكيد . . هذا ممكن .

مجرد فكرة مصدرها المقارنة الدائمة بين ما أراه من أحوال وظروف ، وبين ما هو كائن فى مصر ، ولأن مصر أمة عظمى ثقافيا بتاريخها وإمكانياتها وأبنائها من المبدعين والفنانين ، لهذا تبدو الثقافة مفتاحا أساسيا ليس للدخول إلى مصر فقط ، ولكن . . لحل مشاكلها أيضا .

منذ الوصول إلى المطار الباريسى الحديث ، تتوالى اللافتات عن عروض مسرحية ، وموسيقية ، ومعارض كتب ، فى الممرات الطويلة الكئيبة لأنفاق المترو ، تطالعنى لافتات عن احتفال خاص

بكاتب مغربى يقيم هنا منذ عدة أعوام هو عبداللطيف اللعبى ، وعن مذيع تليفزيون مصرى بدأ يلمع مؤخرا اسمه ناجى ، هو ابن الأستاذ الجامعى وعالم النفس المعروف لطفى فام ، وإعلان عن مطربة مصرية اسمها عائشة رضوان ، رأيتها فى التليفزيون فيما بعد ، لاحظت أن لكنتها ليست مصرية خالصة ، قال لى أحد الأصدقاء إنها ربما قادمة من بلدة عربية أخرى ، وتقدم نفسها على أنها مصرية ، لاسم مصر جلال ومنزلة خاصة هنا فى القلوب ، قال صاحبى بسخرية أن معظمهن بعد بدء شهرتهن يبدأن فى الهجوم على الفن المصرى !

ما يمنح باريس هذا الحضور القوى ذلك الموقع الذى تحتله الثقافة فى هذه الزيارة التقيت بالصديق الكبير كامل زهيرى ، يتردد على المدينة ليجوس فى المكتبات ، أما لتفقد الكتب الجديدة أو فى المكتبات العامة للبحث عن وثائق السان السيمونيين الفرنسيين الذين جاءوا إلى مصر زمن محمد على وأسهموا فى النهضة ، ومنهم سليمان باشا الفرنساوى ، وكلوت بك ، وغيرهما ، فى هذه المرة كان مقصده الاتصال بعدد من المكتبات ، من أجل مكتبة القاهرة الكبرى التى ستفتتح فى مارس القادم ، أخبرنى أن باريس تحتوى على ست وستين مكتبة عامة ، بعضها يتبع وزارة الثقافة أو البلدية ، أو هيئات عامة أو خاصة ، أهمها المكتبة الوطنية العربية والفارسية والتركية ولكن فرنسا لم تكتف بها ، منذ سنوات تبنى الرئيس

ميتران مشروع إنشاء مكتبة أضخم ، إنها مكتبة فرنسا ، تقع جنوب شرق باريس فى المنطقة الثالثة عشرة ، تحتل مساحة شاسعة تحدها أربعة مبانى يرتفع كل منها لأكثر من عشرين طابقا ، صممت على هيئة كتب مفتوحة ، كنت أقيم على مقربة من موقعها ، أمر بها عن قرب يوميا ، وأطل عليها وأحاول أن أتخيل ما ستكون عليه يوما ، الهياكل الخرسانية عارية ، والعمل يجرى ليلا ونهارا ، أحاول أن أتخيل المصائر الآتية التى سوف ترتبط بالمكان ، والعلاقات التى ستنشأ فى أروقته ، ولكن التليفزيون لايترك فسحة للتخيل أو التنبؤ .

يوميا . . تقدم القنوات الرئيسية أكثر من فيلم عن مكتبة فرنسا الجديدة ، تصميم عمارتها ، نظمها الداخلية ، طريقة حفظ الكتب والمحفوظات والميكروفيلم ، وقاعات القراءة ، وعن الاحتفال المهيب الذى سوف تفتتح فيه ويحضره رؤساء الدول .

ومرة أخرى أجرى المقارنة ، فى مصر يجرى العمل فى مشروعين كبيرين منذ فترة ليست بالقصيرة ، مكتبة القاهرة التى ستفتتح فى قصر الأميرة سميحة بالزمالك ، مكتبة متخصصة فى تاريخ القاهرة وحاضرها وذاكرتها ، ومكتبة الجيزة الكبرى التى يرأسها لجنة الإعداد لها السفير عبدالرءوف الريدى ، وتقام بتمويل ألمانى - مصرى ، ومقرها فى قصر المشير عبدالحكيم عامر القديم ، مكتبتان كبيرتان ، ويتم العمل فيهما ليلا ونهارا ، تحت رعاية مباشرة من السيدة سوزان

مبارك ، ومع ذلك لم نر برنامجا تليفزيونيا واحدا يسعى لتعريف الناس بعمل جاد يتم ، وباستثناء ما نشر فى الأخبار ، وأخبار الأدب ، فلايوجد أى اهتمام إعلامى بالموقعين الجديدين ، أما مكتبة الإسكندرية العظمى فلا يعرف أحد ماذا تم بشأنها ، مازال الإنفصال لدينا شبه تام بين الإعلام والثقافة ، وفى رأيى أنه من واجب الإعلام أن يتيح مساحة أوسع بكثير للثقافة ، فلم يعد لدى مصر إلا الثقافة جوهر حضورها وعبقريتها .

الثقافة فى الواجهة

سان جرمان دوبرى . .

أجمل مناطق باريس أقدمها . . وتلك أرقاها أيضا ، وأغلاها ومقر الطبقة الارستقراطية ، ومقر سكنى الأدباء الكبار ، والرئيس ميتران يعيش فى شارع ضيق بتلك المنطقة .

خرجت من نفق المترو لتلفح وجهى رياح باردة قاسية ، لهذه المحطة وتلك المنطقة منزلة خاصة وذكريات عزيزة ، فى سنة ثمانين وتسعمائة وألف كنت فى باريس لمهمة صحفية ، وأثناء زيارتى لمنزل صديقى على الشوباشى الأديب والصحفى بوكالة الأنباء الفرنسية ، طلب منى أن أتصل بالدكتور جمال الدين بن شيخ الجزائرى الأصل ، أستاذ الأدب العربى بالسوربون ، قال إنه كان يستفسر عن عنواني ، عندما سمع صوتى ، سألنى :

«من أى مكان تتكلم؟»

قلت :

«من باريس . .»

قال : إنه سعيد بذلك ، لأنه كان بصدد إرسال خطاب إلىّ لأنه رشح إحدى رواياتى للصدور عن «سوى» . .

سألته بتلقائية :

«سوى . . ما سوى هذه ؟»

هنا صاحت فريدة الشوباشى :

«وافق . . وافق وبعدين أشرح لك . .»

بعد تحديد الموعد ، قالت لى إن دار نشر لوسوى من أكبر دور النشر الفرنسية إن لم تكن أكبرها ، وإنها لم تنشر أى رواية عربية مترجمة ، وصدور عمل عنها مكسب للأدب العربى بلاشك .

فى اليوم التالى مضيت أسعى إلى منزل الدكتور جمال فى الحى السابع عشر ، لم يخبرنى بعنوان الرواية المقترح ترجمتها ، توقعت أنها وقائع حارة الزعفرانى ، لم يخطر ببالى أنها «الزينى بركات» لصعوبة اللغة المكتوبة بها ، أذكر أثناء نشرها مسلسلة أننى التقيت بالصديق منير عامر ، قال :

«إن لغة الرواية خاصة جدا . . . ألا تفكر فى الترجمة يوما . .»

قلت له :

«الترجمة مسئولية المترجم ولكننى أعتبر اللغة جزءا من العمل الأدبى» .

مازلت أذكر المفاجأة عندما أخبرنى الدكتور بن شيخ أن الإختيار وقع على «الزينى بركات» ، ثم قدم إلىّ المترجم ، جان فوركاد الذى ترجم فيما بعد «نجمة أغسطس» لصنع الله إبراهيم ، ثم انتقل للعمل فى السلك الدبلوماسى ، عمل فوركاد فى الزينى بركات لأربع سنوات كاملة ، وذات صباح شديد البرودة من يناير عام خمسة وثمانين خرجت من هذه المحطة بصحبة زوجتى التى تتقن الفرنسية قاصدين دار لوسوى التى تقع فى مبنى قديم جميل بشارع جاكوب العامر بالمكتبات العتيقة ، المتخصصة فى الفنون المختلفة دائما أفضل شراء أول نسخة من أى عمل يصدر لى فى مصر أو فى أى بلد بالعالم إذا تواجدت به ، عندما وقعت عيناى على الزينى بركات بالفرنسية فى ذلك الصباح البعيد أحدث ذلك وقعا ، مازلت أذكر صداه داخلى ، هكذا البدايات دائما لها شأن وموقع فريد ، بعد اللغة الفرنسية صدرت الزينى بركات فى أربع عشرة لغة ، لم تعد رؤية عمل مترجم تثير هذا القدر من الدهشة البريئة ، وبعد ثمان سنوات تصدر روايتى «رسالة البصائر فى المصائر» عن نفس الدار ، فى هذه المرة تلقيت دعوة من وزارة الثقافة الفرنسية بمناسبة صدور الكتاب ، إن وجود المؤلف مع صدور الكتاب يساعد فى التعريف به ، فى دار لوسوى قسم خاص بالإعلام تتولاه سيدة شديدة النشاط ، تقوم بالاتصال بالصحف الكبرى والإذاعات ومحطات التليفزيون المختلفة خصصت لى الدار حجرة خاصة لإجراء المقابلات ، ما من صحفى أجرى معى مقابلة إلا وكان ملما بأدق التفاصيل عن شخصى مستوعبا بدقة العمل

المترجم ، ومن خلال الإنطباعات والأسئلة يتاح لى أن أقف على تجربة المتلقى فى لغة مغايرة ، وأحيانا اكتشاف عناصر لم تكن فى مقدمة وعيى ، مثل ترديدهم أن مدينة القاهرة موجودة بقوة فى الرواية ، بالطبع عندما يكتب الروائى القاهرى ، فإنه يصف بتلقائية الفضاء المكانى الذى يتحرك فيه ، ولكن القارىء الأجنبى له رؤية أخرى .

عندما اتجهت إلى استوديو مخصص لأشهر برنامج ثقافى فى فرنسا «دائرة الليل» ويذاع فى السهرة الرئيسية يوميا ، ويقدمه أستاذ فلسفة جامعى هو ميشيل فيلد ، كنت فى حيرة كيف ستتم عملية الترجمة أثناء التصوير؟ قبل ليلة واحدة رأيت فى البرنامج تونى موريسون الحاصلة على جائزة نوبل ، كانت تتحدث بالإنجليزية ، تبدأ مسموعة ثم يتراجع صوتها ليبدأ صوت المترجمة ، أما أمين المعلوف الحاصل على جائزة جونكور فكان يتكلم الفرنسية تأثرت بحديثه عن الثقافة العربية ، واعتزازه بانتمائه إليها ، قال إن ثقافته الفرنسية جاءت من الكتب ، ولكن تكوينه العربى جاء من الحياة ، من الواقع بدءا من طفولته وحتى سنوات نضجه .

عندما دخلت الاستوديو بدا كل شىء يمضى بدقة ، وعندما اعتذرت عن وضع المكياج أصر المخرج ، قال إن البشرة الإنسانية تبدو صفراء جدا إذا لم يتم وضع مسحوق معين يكسر حدة الضوء ، قبل بدء التسجيل قدموا لى المترجم ، عربى من شمال إفريقيا يتقن عدة لهجات عربية ، وضعت فى أذنى سماعة صغيرة

لاتكاد ترى إلا بصعوبة ، من خلالها كنت أتابع على الفور ما يقوله مقدم البرنامج ، وكان هو يصغى أيضا من خلال سماعة مماثلة ، وهكذا جرى التغلب على صعوبة اللغة .

تقدم البرامج الثقافية فى مواعيد الذروة ، وتقديم الكتب أو التعريف بها لايتوقف طوال ساعات الإرسال ، ومقدمو البرامج الثقافية أشهر المذيعين بين الجمهور الفرنسى ، ولذلك تبدو الثقافة أيضا هى واجهة التليفزيون الفرنسى بجميع قنواته .

الثقافة عنصر رئيسى من عناصر الحياة اليومية حتى فى المقاهى . .

ذاكرة المدينة

فى مواجهة كنيسة سان جرمان يقع مقهى الدوماجو ، واحد من أشهر مقاهى باريس ، يستمد شهرته من رواده الكبار ، عندما دخلت إلى صالته الفسيحة ، الأنيقة لألتقى بالشاعر الكبير أدونيس ، لمحت قطع صغيرة من النحاس مثبتة إلى الجدران ، بنفس مستوى المقاعد ، على كل قطعة اسم الفنان أو الأديب الذى اعتاد الجلوس فى المكان .

جان بول سارتر . . سيمون دو بوفوار . . أبولينير الشاعر . . أرنست همنجواى .

فى مقهى آخر ، قطعة نحاسية أيضا مثبتة فوق منضدة ، نقرأ اسم تولوز لوتريك الرسام العبقرى ، والذى أضع لوحاته على مقربة من عينى دائما لما فى وجوه شخصياته من إنسانية دافقة وأسى . .

فى الشوارع تطالعنا لافتات من الحجر معلقة فوق مداخل البيوت . . هنا عاش الموسيقار ريتشارد فاجنر من سنة كذا إلى سنة كذا . .

هنا توفى فولتير الساعة ، اليوم ، السنة .

عند مداخل المبانى التاريخية الهامة نقرأ عن أهم الأحداث التى جرت فيها ، وشرحا وافيا لمكوناتها ، أما الكتب المطبوعة عن تاريخ المدينة ، والأحداث المرتبطة بها فتطالعنا فوق رفوف المكتبات وعبر واجهاتها ، أخبرنى الاستاذ كامل زهيرى أن مدينة باريس صدر عنها أربعمائة ألف كتاب حتى الآن .

من هذه المحاور كلها تتجمع ذاكرة المدينة وتتكون وتبقى . . والمدن التى لا ذاكرة لها مجرد مبان صماء من الحجر أى رهبة انتابتنى عندما تطلعت إلى المقعد الذى كان يجلس فيه أرنست همنجواى ، أو سارتر ، أو تولوز لوتريك ، إن عالما بأكمله ينتفض أمامى ، عالمهم الخاص والفنى .

هكذا تحتفظ المدن بذاكرتها حية ، ومن هذه الذاكرة تكتسب ذلك البعد غير المرئى ، الذى يضفى العراقة والأصالة ، وتذكرت ما تتعرض له القاهرة من عملية إهدار مستمر ومنتظم لتاريخها وذاكرتها ، لايحميها من الفناء إلا غزارة هذا التاريخ وعمقه وتعدد طبقاته ،لكن إلى متى؟

اغتيال شيماء

فى الشوارع تطالعنا لافتات من الحجر معلقة فوق مداخل البيوت . . هنا عاش الموسيقار ريتشارد فاجنر من سنة كذا إلى سنة كذا . .

هنا توفى فولتير الساعة ، اليوم ، السنة .

عند مداخل المبانى التاريخية الهامة نقرأ عن أهم الأحداث التى جرت فيها ، وشرحا وافيا لمكوناتها ، أما الكتب المطبوعة عن تاريخ المدينة ، والأحداث المرتبطة بها فتطالعنا فوق رفوف المكتبات وعبر واجهاتها ، أخبرنى الاستاذ كامل زهيرى أن مدينة باريس صدر عنها أربعمائة ألف كتاب حتى الآن .

من هذه المحاور كلها تتجمع ذاكرة المدينة وتتكون وتبقى . . والمدن التى لا ذاكرة لها مجرد مبان صماء من الحجر أى رهبة انتابتنى عندما تطلعت إلى المقعد الذى كان يجلس فيه أرنست همنجواى ، أو سارتر ، أو تولوز لوتريك ، إن عالما بأكمله ينتفض أمامى ، عالمهم الخاص والفنى .

هكذا تحتفظ المدن بذاكرتها حية ، ومن هذه الذاكرة تكتسب ذلك البعد غير المرئى ، الذى يضفى العراقة والأصالة ، وتذكرت ما تتعرض له القاهرة من عملية إهدار مستمر ومنتظم لتاريخها وذاكرتها ، لايحميها من الفناء إلا غزارة هذا التاريخ وعمقه وتعدد طبقاته ، لكن إلى متى؟

اغتيال شيماء

فى مكان ما من العالم ، ربما مركز مزود بأجهزة اتصالات حديثة جدا ، وثيق الإرتباط بالفضاءات العُلى عبر الأقمار الصناعية ، ربما فى إحدى المدن الغربية ، أو فى مكان منعزل بالصحراء الأمريكية ، فلايعلم إلا الله أين تبدأ خيوط الإرهاب الذى يستهدف تمزيق بلدنا الطيب ، الآمن ، ربما فى معسكر ما ، فى إحدى غرف الفنادق ، بدأ التخطيط لإغتيال الطفلة المصرية شيماء .

فى جبال أفغانستان ، منطقة ما على حدود باكستان حيث أعلن مؤخرا أحد قادة الإرهاب فى مصر أنه يتم تدبير عمليات جديدة إذا مس أحد الذين اعتقلتهم أجهزة الأمن فى مصر سوء ، مما يقطع أى بادرة شك حول هوياتهم وارتكابهم الجرم ، فى منطقة ما تم التخطيط بعد أيام من التدريب ، والتواطؤ والسفر خفية وعلانية ، وإرسال التعليمات عبر البريد ، والفاكس ، وإتقان الشفرة ، التى عثر رجال الأمن على مفاتيحها فى الوكر ، السلاح = الكتب ومسدس = نوتة ، وذخيرة كلاشن = أقلام جاف وذخيرة مسدس = أقلام رصاص ، وقنابل = علبة حبر ، ومتفجرات = صمغ وديناميت = صمغ سائل ، وصاعق عادى = أساتيك ، وإغتيال = درس خصوصى وهروب = نجح فى الامتحان . . . الخ ، معظم مفردات شفرة القتلة مأخوذة من المفردات اليومية التى تستخدمها شيماء وزميلاتها وزملائها .

سفر ، جوازات مزورة ، وقطع مسافات طويلة ، الوصول إلى مصر عبر اليمن ، تهريب أجهزة التفجير داخل المذياع ، استطلاع المكان حول مدرسة المقريزى حيث تدرس شيماء ، رصد الحراسات ومواكب المسئولين ، شراء سيارة قديمة لتفخيخها ، الأوراق التى دونت عليها التعليمات مكتوب عليها «سرى للغاية» .

بطاريات مختلفة الأحجام ، أسلاك زرقاء وحمراء وصفراء ، صمامات ترانزستور ، أجهزة راديو ، مثاقب كهربائية ، مصابيح يدوية ، أجهزة دقيقة ، كتب فى هندسة السيارات والموتوسيكلات ، خريطة دقيقة لشوارع القاهرة ، طبنجات ، رصاص ، طلقات شتى صف بعضها فى علب صغيرة ، مدافع سريعة الطلقات ، بطاقات شخصية مزورة بإتقان ، أرقام عربات مزورة ، ١٩٣٤٣٢ ملاكى جيزة ـ ١٩٣٤٣١ ملاكى جيزة .

أدوات معقدة مصنعة فى أماكن مختلفة من العالم ، نظريات كهربائية وهندسية تم استيعابها والتدريب عليها ، أجهزة غريبة ، وأخرى مألوفة .

سيد صلاح ، أبوطلحة ، تهامى ، الفحل ، نور ، هانى ، أمين ، ويعلم الله وحده أسماء الآخرين غير المعروفين حتى الآن ، رجال تدور أعمارهم فى العشرينات ، تقابلوا سرا وعلانية ، سافروا ، اتفقوا ، دبروا وتدربوا ، لينتهى هذا كله فى سيارة قديمة تحتوى الديناميت والأسلاك والمؤقت ، توضع بجوار مدرسة المقريزى الإعدادية ، وبجوارها أنبوبة غاز ليكون الدمار مهولا وشاملا .

صباح الخميس تصحب والدة شيماء ابنتها المتفوقة ، الذكية ، التى يبدو المستقبل أمامها ممتدا ، واعدا ، ابنة أسرة مصرية بسيطة ، حيث يعتصم الأب بالقيم التى تصون الإنسان فى المجتمع المضطرب ، كدحه ، سعيه من أجل شيماء .

فى ذلك الصباح إنقبض قلب الأم ، وطالت الوقفة مع شيماء ، أمام باب المدرسة التى وصلت إليها متأخرة قليلا ، غير أنها تعبر

البوابة إلى مكانها المعتاد ، هل كان احساسها الخفى يرصد بدرجة ما بعض ما كان يعد لها؟

ربما . .

فى التوقيت المحدد ، تمر عربة رئيس الوزراء المصفحة ، ويضغط أحدهم جهاز التفجير ، ويندلع الجحيم الذى يلتهم شيماء ، شيماء الابنة ، الذكية ، التى كان ممكنا أن يتصدر اسمها قوائم المتفوقين ، وأن تصبح يوما ما فى المستقبل أما ، تنجب للوطن زهرة أو زهرتين صالحتين ، تماما مثلها ولكن هذا كله . . تم وأده ، تم ازهاق حياتها البشرية .

وتطير البرقية . .

العملية نجحت . . مع طلب بزيادة الدعم وتدفق الأموال . . . هكذا تقول الوثائق التى تم ضبطها بعد أيام قليلة مع القتلة ، خلال إعلانه التفاصيل ، كنت أتأمل ملامح الإنسان الطيب ، اللواء حسن الألفى ، ورغم حزمه البادى إلا أننى رصدت ملامح تأثره عندما نطق اسم شيماء ، وإلى جواره كان يقف والدها الحزين ، كث اللحية ، بادى الألم ، عيناه مغروقتان بدمع سخى ، مذهول لكل هذه المعدات والاتصالات والاحتياطيات ولتلك الملامح التى يجهل تماما أصحابها ، ومن ورائهم ، والذين خططوا لإغتيال شيماء ، ولإغتيال الوطن الآمن ، ولإغتيال مبادىء السلام ، الدين القويم السمح الذى يسىء إليه القتلة إذ يرفعونه شعارا ، فيرتبط فى العالم بالدم والعنف وإغتيال الأطفال ، وهذا بالتأكيد يسعد أولئك المتواجدين فى مكان ما ، فى نقطة من العالم ، والذين خططوا لإغتيال شيماء . . والوطن ومحاولة النيل من الإسلام!

بدائع الزهور

اليوم تنقضى سنوات ست على رحيل الدكتور محمد مصطفى . . رحل فى الرابع عشر من ديسمبر عام سبعة وثمانين . . واحد من علماء مصر الكبار فى القرن العشرين ، ينتمى إلى جيل الكبار ، طه حسين ، والعقاد ، وأمين الخولى ، ويحيى حقى ، وأحمد أمين وغيرهم ، وهب عمره للفن الإسلامى ، ولكتاب واحد . . ولكن أى كتاب ؟

بدأ فى تحقيقه مع أستاذه الألمانى باول كاله ، عام ثمانية وعشرين من هذا القرن ، وانتهى منه تماما فى يناير السابق على وفاته ، أى أنفق فيه تسعة وخمسين عاما . .

تعرفت أولا إلى الكتاب ، عندما حصلت على الجزء الرابع منه فى أوائل الستينات وأنا أبدأ محاولتى لاستعادة الزمن المملوكى ، وارتبطت بالكتاب والمؤلف ، وخلال السنوات التالية رحت أتتبع أجزائه وطبعاته ، وأعيشه مرة بعد الأخرى ، أنه «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» لشيخى الناصرى محمد أحمد بن إياس ، فى صفحاته صان حقبة كاملة عاشها من العدم ، من النسيان ، شهد نهاية السلطنة المملوكية ، والغزو العثمانى لمصر ، وسجل تفاصيل الواقع اليومى ، بروح متصوف ، مدرك لإيقاع الزمن الداخلى ، والحديث عنه يطول ، فلأرجئه إلى صفحات «أخبار الأدب» .

فى نهاية الستينات تعرفت بالدكتور محمد مصطفى أستاذ التاريخ المصرى ، وأول مدير مصرى لمتحف الفن الإسلامى ، جمعنا عشق ابن إياس ، عشقى كقارىء ومعايش لصفحاته ، وتفانيه هو كعالم

محقق أخرج محققة كاملة تعد نموذجا رائعا للعمل العلمى فى ست مجلدات تنبت طبعة جمعية المستشرقين الألمان .

كتبت العديد من المقالات عن ابن إياس ، وتعرفت فيه على الزينى بركات ، ومن خلاله استوحيت روايتى التى تحمل اسمه ، وفى السبعينات صدرت طبعة مصورة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وبذلك تحقق حلمى أن يطبع الكتاب كاملا فى مصر بفضل مبادرة من الراحل صلاح عبدالصبور ، وقرار من خلفه الدكتور عزالدين إسماعيل .

غير أن جهد الدكتور محمد مصطفى لم ينته ، استمر يعمل فى الفهارس ، ورغم شحوب بصره ، وتقدمه فى العمره ، لم يتوقف ، حتى أنجزها فى يناير عام سبعة وثمانين ، ست مجلدات ضخمة توازى الكتاب الأصلى ، يمكن القول إنه قام بفكه كلمة . . كلمة ، وأعاد تصنيفه ، فهرس للإعلام ، وفهرس للطوائف والحرف والصناعات ، والمواقع الأثرية ، وفهرس للمصطلحات اللغوية ، وبالإشتراك مع الجمعية الألمانية للمستشرقين تم طبع أربعة مجلدات من الفهارس ، ورغم أن طبعها تم فى مصر إلا أن العثور على نسخة منها شبه مستحيل ، إذ أن الجمعية كانت تنفق على الطباعة وتحصل على النسخ كلها ، وجاء رحيل العالم الكبير قبل تمام طبع المجلدين المتبقين .

الخميس الماضى ، اتصلت بى ابنته الكبرى لتنهى إلىّ خبر وصول نسختين من المجلدين ، طبعتا فى بيروت لحساب جمعية المستشرفين الألمان التى يشرف عليها الآن المستعرب الألمانى أولريش هرمان والمستعربة إريكا كلاسن .

قالت : إن الأسرة يسرها أن تهدينى إحدى النسختين ، فلو أن الوالد أمد الله فى عمره لأقدم على ذلك ، كما فعل من قبل عند صدور الجزئين الثالث والرابع .

مساء الجمعة إتخذت طريقى إلى منزل الأسرة فى المعادى ، كانوا جميعهم بانتظارى حتى الأحفاد ، رحبت بى أرملته الألمانية الأصل ، السيدة فاطمة ، وكان حضور العالم الكبير فى غيابه قويا ، فالحديث كله عنه ، عن لياليه العديدة التى أنفقها ، يدقق بصبر وبدأب ، يحقق كل كلمة كتبها ابن إياس ، عن مكتبته النادرة فى الفن الإسلامى والتى أتمنى أن تحتل حيزا لائقاً بها فى مكتبة القاهرة الكبرى إذا ما قررت أسرته ذلك .

تسلمت المجلدين الخامس والسادس ، هكذا يكتمل العمل الكبير بعد رحيل صاحبه بست سنوات ، وفى حدود ما قرأت وأطلعت لا أعرف مصدرا من مصادر التاريخ المصرى أو العربى أعدت له مثل هذه الفهارس التى تحوى جهدا يوازى إن لم يتجاوز مابذل فى الكتاب نفسه ، وبلاشك فإنها تلقى أضواء جديدة على بدائع الزهور .

لقد قرأت تاريخ ابن إياس مرات عديدة ، وقمت بإعداد فهارس خاصة بى ، وكنت أظن أنه لم يعد فى العمر فرصة للعودة إليه مرة أخرى ، خاصة أن صفحاته تتجاوز الخمسة آلاف ، لكننى أتأهب لمعايشته مرة أخرى مزودا هذه المرة بذلك الدليل العلمى الرائع ، فهارسه فى مجلداته الست ، ولكم أتمنى أن يقدم الدكتور سمير سرحان على إعادة طبع هذا العمل العلمى الرائع خدمة لتاريخ مصر وللباحثين .

رحم الله شيخنا ابن إياس ، وعالمنا الأكبر الكبير محمد مصطفى .

ضربة فى قلبك

عندما كنت مشرفا على إصدار كتاب اليوم . . اتصل بى الكاتب الكبير أحمد رجب ، قال إن لديه كتاب هام جدا بالإنجليزية يقترح ترجمته إلى العربية ، مضيت إليه فى مكتبه المغلق دائما المصمت تقريبا ، فالنافذة الموجودة فيه أعلى الجدار المرتفع ، يملأ فراغه أنغام موسيقى هادئة ، إليه يجىء يوميا فى العاشرة موعد لايتغير إلا بقدر طفيف ، هكذا يبدأ يومه الطويل فى هذه الحجرة المغلقة تماما ، وفى الواحدة يخلو إلى الفنان مصطفى حسين ليضعا الصورة النهائية لكاريكاتير الصفحة الأخيرة المنشور أعلى هذه اليوميات ، حتى الآن . . مازال المعين العميق الذى يستوحى منه أحمد رجب هذه الأفكار حادة السخرية يشكل لغزا بالنسبة لى ، إنه صموت لاينطق إلا بقدر دائم التأمل ، يجيد الإصغاء الظاهرى ، فهو يحدق إلى محدثه مظهراً الإصغاء العميق لكنه راحل إلى نقطة ما فى الزمان والمكان ، قارىء نهم ، مستمع جيد جدا إلى الموسيقى الكلاسيكية ، ملم بثقافة رفيعة ، ومحيط بمفردات اللغة العامية أكثر من المتخصصين فيها ، مازال العالم الداخلى لأحمد رجب ، مستعصيا على أقرب الناس إليه فى رأيى ، إنه رحب ، فسيح ، ولكن إلى الداخل فهو أشبه بمحيط تحت الأرض ، ولكن تبدو منه هذه الإشراقات الساخرة ، ليس سهلا أبدا أن يقدم كاتب ما أربعة

أفكار ساخرة ، متجددة يوميا ، مطرب الأخبار ، والحب هو ، والكاريكاتير الرئيسى للأخبار ، ونص كلمة ، وفهامة أحمد رجب يوم السبت فى أخبار اليوم ، من هذا المحيط خرجت شخصات خصبة كأنها تسعى بيننا الآن من لحم ودم ، وليس من ورق وحبر .

هكذا رحت أفكر فى عالم أحمد رجب كعادتى كلما مضيت إليه ، بملامح جادة تماما قدم إلىّ كتابا بالإنجليزية فى حجم مطبوعات بنجومين ، طبع فى لندن ، عنوانه :

«كيف تفهم المرأة» .

بدأت أقلب صفحاته ، وانفجرت بالضحك ، كان أغرب كتاب رأيته فى حياتى ، العنوان فى الصفحة الأولى ، اسم المؤلف ، عنوان الناشر والنصوص التقليدية الخاصة بحفظ الحقوق والترقيم الدولى ثم الفصل الأول ، وتبدأ الصفحات خالية تماما من أى كتابة ، مائتا صفحة بيضاء تماما . . هذا هو الكتاب ، كيف تفهم المرأة؟

كان أحمد رجب يقترح نشر الكتاب كما هو فى كتاب اليوم ، كان جادا تماما وبدت لى الفكرة لامعة ، ولكننى خشيت رد فعل القراء .

مرت الأيام وهذا الأسبوع صدر أحدث كتب أحمد رجب «ضربة فى قلبك» ، وأقبلت عليه فورا ، الكتاب حول الرجل والمرأة ، تلك العلاقة الأزلية ، جوهر وجود الإنسانية ويقدم أحمد رجب معالجة فريدة ، لاتكتفى بالتناول الساخر ، وإنما تمتزج فيها الخبرة العميقة بالحياة ، والثقافة الرفيعة والمادة الثرية ، المشكلة أنه لايمكن تلخيص هذا الكتاب الفريد ، الذى يتضمن قدرا كبيرا من

الحكمة والفلسفة والتجربة ، والقدرة على السخرية من الرجل ، من المرأة ، ومن العالم . . لقد انتزع منى الكتاب ابتسامات عديدة فى زمن عزت فيه القدرة على الضحك .

ليس للغيطانى فرع آخر..

فى البداية لم أستوعب !

رحت أتطلع إلى الخطاب المرفق به قصاصة مستطيلة من جريدتنا الأخبار ، إعلان من تلك الإعلانات التى تنشر فى المناسبات ، لم يستوقفنى إنما بدأت أقرأ الخطاب الذى تصدرته عبارة تتضمن سخرية واضحة :

«أنا عايزة تانى من عند الغيطانى» .

وبعد الديباجة يقول كاتبه الأستاذ يوسف أحمد سلطان وكيل مدرسة عين شمس الثانوية ما نصه :

بعيدًا عن أخبار الأدب ، أزف تهانى القلبية بإفتتاح مشاريعكم التجارية بالمنطقة الحرة ببورسعيد ، وقد يعجز البعض عن إدراك الصلة بين الملابس الجاهزة والأدب ، ولكن المدقق الموضوعى للحركة الأدبية المعاصرة و«الموضة» يعرف أن المينى جيب والميكروجيب كانت انعكاسا لفكرة اللامعقول فى الأدب . . .

ثم يمضى صاحب الرسالة فى السخرية المبطنة من الأدب وعلاقته بالتجارة ، ويطلب فى نهايتها أن أقبل إلحاق ابنه مدحت الحاصل على بكالوريوس تجارة دفعة ١٩٩٠ ، وحاصل على شهادة الخدمة العسكرية ولم يعمل بعد .

رحت أنظر إلى السطور الأولى من جديد وأنا حتى الآن لا أدرى إن كان اسم صاحب الرسالة حقيقيا أو مستعارا ، لكن الإعلان المرفق حقيقى بالتأكيد ، غير أننى ظننت اسمى المكتوب فى وسط المستطيل بخط أنيق أضيف إلى الحروف المطبوعة بقلم أحدهم ، لكنه كان إعلانا مكتملا يبدأ بالآية الكريمة «إنا فتحنا لك فتحا مبينا» صدق الله العظيم . . تم افتتاح مصنع (. . . .) للملابس الجاهزة بالمنطقة الحرة العامة ببورسعيد لصاحبه جمال الغيطانى . . ثم أرقام ثلاثة هواتف ، ورقم فاكس ، ورقم هاتف السيارة .

كنت فى دهشة ، وإحساس عنيف بالمفاجأة ، لن يصدق بعض من لا يعرفنى عن قرب أنه مجرد تشابه أسماء ، كيف والاسم نادر ، لا يوجد فى جهينة حيث مسقط رأسى من اسمه الغيطانى إلا جدى فقط ، جدى السابع اسمه سلامة ، وبه تسمى عائلة الوالد الكريم ، وهو آخر جد معلوم بالنسبة لى ، ما قبله مجهول عندى ، الغيطانى اسم غير شائع ، منذ سنوات علمت أن هناك عائلة تحمل نفس الاسم بدمياط ، وكنت أرى كتبا ضخمة فى الزراعة مؤلفها اسمه الدكتور يسرى الغيطانى ، وبالطبع كان ينتابنى شعور غامض إزاء هذا التشابه البعيد ، الغامض ، لكن الاسم الذى تحمله القصاصة أثار عندى مشاعر متناقضة أظهرها الحيرة ، فصاحب الشركة اسمه الكامل : جمال الغيطانى ، رحت أتخيل ردود الفعل عند أصدقائى الأقربين ، بدأت أسترجع بعض العبارات ، والنظرات ، ألهذا السبب سألنى يوسف القعيد منذ أسبوع عما إذا كنت سافرت إلى بورسعيد قريبا ؟

عندما أبديت الدهشة قال : أبدا . . أبدا . .

تذكرت ذلك الحديث الطويل الذى جرى حول الملابس الجاهزة فى جلستنا الأسبوعية حول الأستاذ نجيب محفوظ ، والتى تضم المهندس عماد العبودى ، والمهندس محمود كامل وكلاهما من رجال الأعمال ، كانا يتحدثان عن الملابس الجاهزة ثم يتطلعان ناحيتى ، وفى نظراتهما استفسار .

تذكرت زملائى ، وصحبى فى الجمالية ، لابد أن دهشة تملأهم الآن ، كيف أخفيت عنهم امتلاكى لمصنع ملابس جاهزة ، بل توقعت عتابا من عبدالرحمن الأبنودى ، والدكتور عمرو عبدالسميع فى لقائنا كل ثلاثاء إذ يبلغهما القعيد بالخبر ، بل ماهى ردود الفعل عند أسرتى ، الزوجة والأبناء والأشقاء ؟

المؤكد لديهم أننى لا أنتمى إلى فئة الملاك على أى مستوى وقطعة الأرض الوحيدة التى أمتلك حق الانتفاع بها «وليس ملكيتها» مدفن حصلت عليها زمن اللواء يوسف صبرى أبوطالب - سقى الله أيامه خيرا - فيما عدا ذلك ما زالت صفة الكدح هى الغالبة ، وتظل الأمنية الأبدية لكل مشتغل بالأدب ماثلة أمامى باستمرار ، وهى التفرغ تماما للكتابة الأبدية .

كيف يصدقون أنه لا علاقة لى بهذا المصنع ، وتلك الهواتف الخمسة «أحدها فى السيارة» ، لهذا أعلن للكافة أنه لا علاقة لى بجمال الغيطانى البورسعيدى من قريب أو بعيد ، وأننى جمال الغيطانى الصعيدى مولدا ونشأة ، الفقير إلى رحمة الله تعالى

ليس لدىّ أى فروع أخرى ، ومحلنا الوحيد المختار تلك اليوميات وما تحويه من كلمات .

حوار المعرض

يناير ١٩٩٤

تذكرت الراحل لويس عوض ، عندما حضر منذ سنوات اجتماع الرئيس بالمثقفين فى مفتتح معرض القاهرة الدولى للكتاب ، وكتب يبدى انزعاجه من فقدان المثقفين لدورهم ، وضرب مثلا بأديب كبير - رحل عن عالمنا - وقف يشكو إلى الرئيس ارتفاع فواتير الكهرباء التى يدفعها شهريا ، وذكر أن لديه عددًا من أجهزة التكييف فى بيته !

استعدت إلى ذهنى تفاصيل ما وصلنى من عراك ، واتهامات متبادلة ، متطايرة بين مجموعة كبيرة من المثقفين احتشدوا فى حديقة أتيليه القاهرة التى لاتزيد مساحتها على صالة بيت قديم ، ولمدة ثلاثة أسابيع عجزوا عن إصدار بيان حاسم يدين الهجمة التى تتعرض لها الثقافة ، ووجدت بعض الجماعات العاملة فوق الأرض ، وتحتها وفى الهواء ، والبر والبحر ، الفرصة لخوض معارك ضارية تبودلت خلالها الاتهامات المعتادة بالعمالة ، والقبض من الداخل والخارج ، والتخابر لحساب جهات شتى ، من وزارة الثقافة إلى النظام العالمى الجديد ، وأهينت رموز فكرية ، وبدت المساحة الضيقة وكأنها تجسيد حى للمساحة التى أصبح وجود المثقفين محصورا فيها ، بينما يجوس الإرهابيون وأعداء الثقافة فى الديار

كلها ، وعلى امتداد الوادى ، لايواجهون إلا مواقع متناثرة لاتنسيق بينها ولارابط .

تذكرت هذا أثناء جلوسى فى قاعة سراى الصناعة أربع ساعات ونصف أتابع الحوار بين الرئيس مبارك ومجموعة من المثقفين الكبار جدا ، ولكن ما تحدث به معظمهم جسد الأزمة التى يمر بها الجميع ، وربما كان لطفى الخولى يشعر بذلك عندما قال إن هناك جيلاً يكبس على نفس ثلاثة أجيال ، ولابد من ذهابه لإعطاء الفرصة للأجيال الجديدة ، كان لطفى الخولى صادقا فى ذلك ، لكنه هو نفسه أطال الحديث ودخل فى تفاصيل صغيرة مملة ، وإعجاب مطول بالعالم المصرى ـ الأمريكى الجنسية الآن ـ أحمد زويل . . ولكم تأثرت برد الدكتورة فينيس جودة وزيرة البحث العلمى ، عندما قالت إن فى مصر علماء ليزر بنفس الكفاءة والمستوى العلمى وأنهم يقدمون خدمات جليلة للوطن .

ورأيى أن مثل هؤلاء هم من يجب أن نتحدث عنهم مطولا وأن نقوم بالدعاية لهم ليلا ونهارا ، وأن نرفع أصواتنا لتقديم ما ينقصهم من امكانيات لمساعدتهم فى إتمام أبحاثهم ، إن طبيبا عظيما مثل يس عبدالغفار المهموم بأكباد المصريين لهو فى منزلة العينين منى قبل أى طبيب اختار الاستقرار فى الغرب .

إن عالما مصريا مثل الدكتور سعيد سليمان ، أستاذ الزراعة بجامعة الزقازيق ليستحق تكريما على أرفع مستوى لأنه أحدث انقلابا بأبحاثه فى زراعة الأرز ، وفر ٣٠٪ من المياه المستخدمة وضاعف إنتاجية الفدان ، والنتيجة أن مصر لديها فائض الآن من الأرز . .

لنا أن نفخر بأى مصرى ينبغ هنا أو هناك . .

لكن واجبنا أن نؤازر أولئك الساعين فى دروب الريف المصرى ، فى مجالات البحث العلمى من يعيشون بيننا ، وهذا موضوع يطول الحديث فيه .

وأعود إلى لقاء الرئيس بالمثقفين .

* * *

فى هذه السنة تم تحديد عدد المدعوين ، واستبعد بعض العاملين فى أجهزة الإعلام الذين كانوا يثيرون قضايا لا علاقة لها بالثقافة أو الفكر ، قضايا على مستوى محافظ أو رئيس حى . . ولايليق طرحها أمام الرئيس ، ثم الاختيار بدقة ، ولكن غاب الأدباء عن الاجتماع ، وجوه عديدة من أدباء الستينات والأجيال السابقة واللاحقة لم أرها ، وكنت أتمنى حضورهم ، وارتفاع أصواتهم ، فمن الضرورى أن يصغى الرئيس إلى أصوات مختلفة جديدة . .

هناك أسماء معروفة لم يعد لديها جديد تقدمه ، بل أصبح ما سيقولونه ممكن التنبؤ به مقدما .

هناك بعض من يتحدثون رغبة فى إثبات الوجود ، أو سعيا للتذكير بأسمائهم ، أملا فى الانضمام إلى لجنة أو . . . أى احتمال فى المستقبل لعل وعسى .

هناك من يطلب الحديث ويقف ليزيد ويعيد ، ويلوك الكلمات ويمضغها ، ويبسط يديه ، ويلوح ، ويتطلع مرة إلى الأرض ومرة إلى السقف ، حريصا على إطالة مدة وقوفه أمام الرئيس ، وبالطبع . .

هناك من يطرح مشاكل حقيقية ، والحق . . إن الرئيس مبارك ينتظر من المتحدثين حلولا محددة ، واقتراحات واضحة ، وإذا اقتنع فإنه يبادر إلى إصدار توجيهاته على الفور إلى رئيس الحكومة ، أو الوزير المختص ، وهذا ما جرى معى شخصيا ، عندما أصدر توجيهاته بتشكيل لجنة لبحث تحرير الكتاب المصرى من قيود الاستيراد والتصدير ، والرسوم الجمركية ، ولكم كان حاسما محددا ، قاطعا ، عندما اتجه بحديثه إلى رئيس الوزراء ، إلى وزير الثقافة ، وقال إنه يجب عدم قيام أى جهة بمصادرة الكتب أو الفكر - بما فيها الأزهر - إلا طبقا للقانون ، والأحكام القضائية ، أما أى إجراء إدارى فلا . .

كان قرار الرئيس حاسما ، أزاح به غمامة سوداء من سماء الثقافة المصرية ، وأعلن انحيازه إلى حرية الفكر ، وحمايته ، كانت لهجته قاطعة ، حادة ، إلى الدرجة التى شعرت فيها أننى لست فى حاجة إلى إضافة كلمة واحدة وتلقائيا شرعت فى التصفيق ، فى نفس اللحظة كانت القاعة كلها تصفق .

* * *

بدا الرئيس متقدما على المثقفين ، حريصا على حرية الفكر أكثر من المثقفين ، متمسكا بالشرعية أكثر من المثقفين ، وبالطبع أشد حسما ، فالبديهيات عنده لاتحتاج إلى مناقشة مطولة أو سفسطة ، والحرية والديموقراطية فوق كل اعتبار .

هل أضرب أمثلة ؟

حسنا سأفعل . .

عندما طالب الدكتور عبدالعظيم رمضان باستخدم الرئيس للصلاحيات الممنوحة له طبقا لقانون الطوارىء من أجل إصدار قوانين أو اتخاذ اجراءات لمصلحة الشعب .

قال الرئيس إنه لن يلجأ ابدا إلى قانون الطوارىء لإصدار قوانين وأن صدور القوانين عن مجلس الشعب هو الطريق الطبيعى .

رفض ذلك بحسم . .

عندما تحدثت الأديبة سكينة فؤاد عن الكتب المعادية للمرأة ، والتى تمول صدورها جماعات التطرف والمنتشرة فى كل مكان - وهذه ظاهرة صحيحة وخطيرة - لكنها طالبت بجمعها ومصادرتها .

قال الرئيس إن الفكر يجب أن يواجه بالفكر ، وأن من يصادر هذا الكتاب اليوم سوف يصادر غيره غدا . .

الدكتور حسن حنفى ، تحدث عن نظام «الترمين» فى الجامعة وعندما بدأ ينتقده . . قال الرئيس إنه حريص على استقلال الجامعة ، وأنه يفضل مناقشة هذه القضية فى مجلس الجامعة فهذا شأن جامعى .

ثلاثة مواقف بدا فيها الرئيس متقدما على المثقفين ، هم يطالبون بالطوارىء والمصادرة ، والتدخل ، وهو يرفض ويتمسك بالشرعية القانونية ، والحرية ، واستقلالية الجامعة .

المفروض طبعا أن يكون المثقف الحقيقى ، الفاهم لدوره متطلعا إلى الحرية الأشمل .

لاحظت أيضا أن معظم المتحدثين يطالبون بتشكيل لجان . . الدكتور ميلاد حنا . . لجنة الإسكان وإصلاح المبانى . . محمد سيد أحمد . . لجنة للمستقبل . . الدكتور كمال أبوالمجد . . لجنة لمقاومة الإرهاب . . الدكتور عبدالعظيم رمضان . . لجنة لتنقية القوانين . .

أكثر من متحدث يطالب بتشكيل لجنة ، وكلمة لجنة ذات تداعيات بيروقراطية ثقيلة . . ولا أذكر القائل : «إذا أردت أن تقتل موضوعاً أحله إلى لجنة» . . وهكذا يسيطر التفكير «اللجنى» على عقول بعض المثقفين ، وهذه علامة سلبية .

أما أولئك الذين أفاضوا وأسهبوا فبثوا الملل والضجر فى نفوس الجالسين فى القاعة ، الوحيد الذى ظل مبتسما ، رحبا ، مصغيا بصبر عجيب ، هو الرئيس مبارك .

إننى أرجو عودة الأيام على الجميع بخير ، وأتمنى فى الوقت نفسه أن يكون المتحدثون إلى الرئيس فى معرض العام القادم من الأدباء ، ومن الذين لم تسمع أصواتهم من قبل ، ومن أجيال جديدة ، بخلاف أولئك المتحدثين التقليديين الذين لم يعد لديهم ما يقولونه .

فراق مكتبة

أعرف تماما ماذا يعنى ارتباط الإنسان بمكتبته ، خاصة أولئك الذين عاشوا أعمارهم من أجل الثقافة ، إذ أرى مكتبة معينة يمكننى أن أقف على شخص صاحبها ، ليس تكوينه الفكرى واهتماماته فقط ، إنما درجة علاقته بكتبه واهتمامه ، وضع الكتاب فوق الرف يعنى عندى الكثير ، تبويب الكتب ، العناية بها ، لذلك توقفت مطولا أمام الخبر الذى قرأته عن اتفاق تم بين الدكتور ثروت عكاشة وأكاديمية الفنون ، يهدى بموجبه مكتبته إلى الأكاديمية ، وتأكدت عندما علمت أن الدكتور فوزى فهمى سعى فى ذلك ، وأنه يعد مبنى أنيقًا يليق بكتب مؤسس الأكاديمية وأبيها الروحى .

مضيت إلى الدكتور ثروت فى بيته الذى يقع بشارع هادىء بضاحية المعادى ، أزوره بانتظام ، وأصغى دائما إليه ، وأتعلم منه ، وخلال العامين الأخيرين لم يخف علىّ ذلك الحزن فى ملامح الرجل ، ونبرات صوته ، وتلك اللهجة الاسيانة التى تبدو عند من يتأهبون لسفر طويل ـ أمد الله فى عمره ـ ولابد أن موضوع مكتبته يقلقه ، لذلك أقدم .

البيت جدرانه مدججة بالكتب ، ولكن الحجرة الرئيسية الفسيحة ، تطل المجلدات الضخمة من خلال دواليب أنيقة ، كلاسيكية الطراز ، وكذلك مجموعة ضخمة من الاسطوانات بكافة نظمها ، القديمة ، الكاسيت ، الليزر .

يقع المكتب إلى جوار النافذة ، المطلة على حديقة ، حشائشها عميقة الخضرة ، على الجدار وراؤه لوحات ملونة من الرسم

الفارسى ، مأخوذة عن الشاهنامة ، عندما أبديت إعجابى بها ذات مرة ، تطلع إلىّ الدكتور ثروت ، وقال :

■ هذه اللوحات هدية من شاه إيران ، عندما دعانى إلى احتفال إيران الأسطورى بمرور ثلاثة آلاف سنة على اعتلاء قورش عرش إيران ، اللوحات مطبوعة فى ألمانيا .

ثم رفع إصبعه موضحا وكأنه يلقى بيانا . .

■ اللوحات أهديت لى بصفتى الشخصية ، لم أكن وقتئذ وزيرا للثقافة .

أومأت متفهما ، مستوعبا ، فوق المكتب صورة لوالده إلى جوار جمال عبدالناصر إلى جوار المكتب آلة أورج موسيقية ، فوقها نوتة موسيقية مفتوحة ، خلال الأويقات التى تتخلل عمله فى موسوعات الفن الكبرى يمارس العزف ، أو الاستماع من خلال جهاز ضخم حديث .

فوق الأرفف نجد فروعا عديدة من المعرفة ، التراث العربى ، الأدب العالمى ، التاريخ ، الفلسفة ، الحضارات ، الأساطير ، الآثار ، غير أن الغالبية العظمى تتصل بتاريخ الفن ، وتلك مراجعه التى يستمد منها مادة هذه الموسوعة الضخمة التى يعمل فى إصدارها منذ سنوات طويلة عن تاريخ الفن ، والتى اختار شعارًا لها ، جملة من جمل المتصوف الأشهر الحلاج ، «العين تسمع والأذن ترى» نرى مجموعات متكاملة من المجلات الفنية المتخصصة ، وسلاسل متكاملة فى تاريخ الفن

لايمكن الحصول عليها إلا بالاشتراك المسبق ، ومعاجم شتى وكتب مهداة من مشاهير عصره ، باعتزاز بالغ راح يقرأ لى ما كتبه عبدالرحمن الشرقاوى ، ونجيب محفوظ وأندرية مالرو ، كان يسحب المجلد برفق ، يفتحه ليقرأ سطورا من صفحاته ، أو ليطلعنى على لوحة نادرة ، ثم يعيده إلى مكانه بحذر ، وقد تمتد يده لتمسح ذرات تراب علقت بأوراق ما .

يحتفظ الدكتور ثروت عكاشة بمجموعة اسطوانات ضخمة تضم الكلاسيكيات المتعارف عليها منذ عصر البارون حتى العصر الحالى ، ومجموعات متكاملة من اللوحات الفنية للعمارة والفن التشكيلى ، وقد أخرج بعضها للناس فى أجزاء موسوعته عن تاريخ الفن ، ولسوف تظل المكتبة العربية مدينة له بتقديم هذه الموسوعة التى سدت فراغا كبيرا فى الموضوع ، وأما من ناحية الشكل فلأول مرة تخرج دور النشر العربية مثل هذه المؤلفات الضخمة ، المعتنى بها ، والتى تقدم تاريخ الفن بالكلمة واللوحة ، تكاد تكون دائرة معارف متكاملة ، أمضى فى استعراض الكتب ، وأتوقف مطولا عند النادر منها ، ويضيق المجال فى اليوميات عن استيعابها ، لذلك ارجىء تفاصيلها إلى تحقيق موسع سوف ينشر فى أخبار الأدب قريبا ، عند انصرافى من البيت ، كنت أستعيد كلمات الدكتور ثروت «مكتبتى أشبه شىء بى ، كل كتاب ، كل لوحة ، كل اسطوانة هى جانب من مهجتى» .

أكاد أسأله عن لحظة فراق الكتب للأرفف ، لكننى أحجم خشية إيلامه ، لكنه يبادر فكأنه يقرأ ما دار فى ذهنى .

« الأسبوع الماضى دعانى الدكتور فوزى فهمى لزيارة الأكاديمية ، وذهلت من الإضافات التى جرت ، وتأثرت بالقاعة التى تعد لتضم هذه الكتب ، وما جمعته طوال حياتى . . ما رأيته ، وما لمسته من مشاعر ، يجعل فراق مكتبتى محتملا . . » .

سوء تفاهم

سوهاج . . .

استيقظت مبكرا ، نشطا ، مبتهجا ، تطلعت من الفندق الذى يحمل اسم أميرتى إلى النيل المهيب ، عميق الصمت ، الماضى كالدهر الأبدى ، من جنوب إلى شمال ، سأمضى بعد قليل لرؤية أميرتى التى تقف سامقة ، خالدة فى قلب مدينة أخميم ، إنها الأميرة ميريت ، مطربة الشمس عند الغروب ، الزوجة الملكية لرمسيس الثانى ، الألقاب عديدة ، ومنذ حوالى عشر سنوات ، أتردد بانتظام على أخميم لرؤية أجمل وأعظم وأكمل وأرق تمثال لأنثى فى المجرة التى تنتمى إليها مجموعتنا الشمسية ، نعم فهذا تمثال لا شبيه له ، ولى وقفة أطول تجاهه ، عرفته منذ أن كشفت الصدفة عنه تحت الأرض ، كان متمدداً ، منكفئًا على وجهه ، ثم تمكن خبراء هيئة الآثار من إيقافه محاطا بالسقالات الخشبية ، وقد علمت عند وصولى أمس أن السقالات فكت ، وأن الأميرة استردت أيضا تاجها ، وأنها تقف متطلعة إلى جهة الغروب حيث

مأوى قرص الشمس ، كنت سعيداً حقا ، بعد تناولى الإفطار اتجهت إلى مكتب الاستقبال ، سلمت المفتاح ، أشار الموظف إلى رجل صعيدى الملامح ، قال :

«السائق ينتظرك . .» .

صافحته مرحبا ، تقدمنى إلى سيارة يابانية الصنع ، جيب حديثة جدا ، صعدت إلى جواره ، تعجبت ، فلم أعهد سيارات الثقافة الجماهيرية بهذه الفخامة ، أبديت الملاحظة للسائق ، قال موضحا :

«السيارة تتبع صندوق الضمان الاجتماعى» .

أومأت برأسى ، إذن . . استعارت مديرية الثقافة هذه السيارة من الصندوق لتصحبنى إلى أخميم ، كانت المرة الثانية التى أسمع فيها بهذا الصندوق ، المرة الأولى بالأمس خلال حوارى مع اللواء محمد حسين طنطاوى محافظ سوهاج ، الصندوق هيئة جديدة ، تقيم مشروعات للشباب وللموظفين ، الذين يخرجون من أعمالهم بسبب «الخصخصة» ، وللصندوق فروع فى المحافظات ، أى أنه يقوم بعملية تشبه التنمية ، رحت أتأمل السيارة الفاخرة ، والتى يتجاوز ثمنها الثلاثمائة ألف جنيه ، الإدارة المصرية ماهرة جدا فى الحفاظ على مظهرها ، خاصة هذه الهيئات الجديدة التى لاتطبق عليها لوائح الحكومة ، إن ثمن هذه السيارة كفيل بتنمية قرية بأكملها . . لكن مالى ولهذه الأفكار ، إننى أستقل عربة تابعة للصندوق ، والسائق مهذب ، كريم ، حريص على إبداء العناية ، غير أنه خاطبنى قائلا :

«أهلا عادل بك . .»

فقلت مصححا أن اسمى جمال ، فأومأ صامتا ، اتجهنا إلى أخميم . . توقفنا لنسأل عن موقع الأميرة ميريت ، تطوع صعيدى يرتدى جلبابا وعمامة ، قال إنه من الأمن ، ثم راح يدل السائق على الطريق عبر الشوارع الضيقة فى المدينة المسكونة بالتاريخ ، فجأة وجدنا أنفسنا فى قلب سوق أخميم ، زحام كيوم الحشر ، بشر ، حيوانات ، باعة يفترشون الأرض ، فارقنا الدليل مشيرا إلى الأمام .

«التمثال قدامكم . . .» .

كان علينا اختراق السوق المزدحم كله ، اكتشفت أن دليلنا لم يكن يرشدنا لوجه الله ، إنما ركب العربة إلى الجهة التى يقصدها تماما ، وتركنا فى لجة السوق ، هكذا ، استغرقت المسافة القصيرة حوالى ساعة حتى نخرج من الزحام الشديد .

مضيت إلى موقع الأميرة ، جاء الأصدقاء ليلحقوا بنا ، الشاعر محمد أبودومة . . ورجال الثقافة الجماهيرية ، وفنان إخميم التشكيلى .

طفت بتمثال الأميرة ، والذى لخص الفنان تأثيره قائلا : إنه يحدث دربكة داخل الإنسان .

قصدت مصنعا للحرير الشهير ، ثم بيت ثقافة إخميم الكائن فى طابق أرضى بأحد المساكن الشعبية ، ثم عدت إلى الفندق حيث سلمت مفتاح الحجرة وأخذت حقيبتى ، كنت أريد اللحاق بقطار الثانية والنصف ، فى الطريق إلى المحطة قال السائق :

«هل يمكن أن تشرفنا دقيقة واحدة للسلام على ياسر بك . .» .

سألت عن ياسر بك . . قال الرجل الطيب :

«ياسر بك ، وعادل بك . . . إنهما من رجال الصندوق . .» .

داريت ضيقا ، فما زالت القاعدة القديمة ، «انتظر القطار ولا تجعل القطار ينتظرك» ، ما زالت تحكم سلوكى فى السفر ، ولكن يبدو أن السائق حريص على لقائى برئيسيه ، ربما لينهى إجراء خاصا .

قال السائق بعد أن أوقف العربة أمام بناية حديثة ، إنه لن يتأخر ، كنت أجلس قلقا ، أتطلع إلى الساعة ، بقى نصف ساعة على موعد القطار .

بعد دقائق لمحت السائق يتقدم نحو السيارة ، وبصحبته شابان ، أعمارهما متقاربة ، ملابسهما أنيقة ، كانا أشبه بموظفى البنوك الاستثمارية ، لم تكن ملامحهما تشبه موظفى الدولة العاملين فى الصعيد ، مرة أخرى أفكر فى الإدارة المصرية وتلك الهيئات الجديدة ذات النظام الخاص ، والمرتبات الأعلى والمحظوظين الذين يعملون بها .

قدمهما السائق إلىّ قال :

«ياسر بك وعادل بك . .» .

بدا ياسر بك مهذبا ، ولكن حادا ، ترجلت لأشكره على إقراض السيارة للثقافة الجماهيرية ، إلا أنه تساءل :

«هل تعرف سيادتك كم أبقيت العربة معك ؟» .

انتبهت إلى حدة اللهجة رغم التهذيب الذى يغلفها ، قلت :

«يمكنك أن تسأل مديرية الثقافة التى استضافتنى» .

تساءل عادل بك :

«أى مديرية ثقافة؟» .

قلت محتدا أيضا :

«التى أعرتموها عربتكم . .»

قال ياسر بك إن هذه العربة لم تتم اعارتها إلى أى جهة وأنهم أبلغوا البوليس باختفائها منذ الصباح ، بعد أن ذهب السائق بها لإحضار عادل بك «عادل بك آخر» ولم يعد مما اضطر عادل بك «الآخر» إلى استخدام عربة أجرة .

هنا اتضح الموقف . . أو اللبس الذى حدث .

فالسيارة لم تكن فى انتظارى . . إنما كانت فى انتظار عادل بك ، وعندما قال موظف الفندق إن العربة فى انتظارى ، تقدم السائق ليصافحنى ، ولهذا خاطبنى قائلا : أهلا عادل بك ، ولأنه كان مكلفا بمصاحبته ، قام الرجل بالموافقة على أفضل وجه ولم يغادرنى طوال النهار .

عندما استوعب عادل بك وياسر بك الموقف ، ابتسما ، رحبا بى ، قال ياسر بك إنه سأل السائق عندما صعد إليه ، عما إذا كان يوجد أحد فى العربة تحت ، فلما أجابه أن جمال بك ينتظر ، قام مضطربا مستفسرا .

«وهل تركت المفاتيح فى السيارة ؟ » . .

أومأ السائق بالإيجاب ، عندئذ أومأ ياسر بك إلى عادل بك وهرول الثلاثة إلى خارج المبنى ، وعندما وقعت عيونهم على العربة تنفسوا الصعداء ، وبدأت عملية التعرف على الراكب المجهول لهما وعلى ملابسات الموضوع . . بعد الاطمئنان قال ياسر بك .

«يمكنك أن تتفضل لتلحق بالقطار . .»

ولم يكن ثمة بديل آخر ، فالسيارة أوصافها عند الشرطة وجارى البحث عنها ، لكننى نزلت منها وركبت القطار قبل العثور عليها !

معالى الباشا

يناير : ١٩٩٤

العودة من سوهاج نهارًا ، أخلو إلى نفسى عبر الساعات الطويلة ، متأملا عبر النافذة النخيل ، والمدن القديمة محاولا النفاذ إلى الأسرار الكامنة ، مستدعيًا لحظات فانية ، بائدة من حياتى المولية ، تماما كتلك الأعمدة المتشابهة المتراجعة دائما ، تصلها أسلاك التلغراف .

مامن وسيلة انتقال تجسد السفر بالنسبة لى مثل قطار الصعيد والذى يرتبط عندى بالحنين إلى أول أرض لامستها كينونتى فى جهينة الغريبة ، وأول هواء دخل رئتى ، الحنين إلى الأهل ، وإلى اللحظات المولية .

لا أكف عن الملاحظة والتأمل ، ورصد الأحوال ، أتوقف مرارا عند العامل الذى يحمل صينية الشاى والقهوة ، يتنقل بها عبر عربات القطار المهتزة ، المتمايلة ، فوق يد واحدة صينية يستقر فوقها رصة من أكواب الشاى ، تعلوها رصة أخرى ، قدرت عدد الأكواب بأكثر من عشرين ، كلها ممتلئة ، لايميل ولا يحيد ، ولا تتساقط قطرة واحدة إنما يبدأ ذلك بعد استقرار الأكواب بين أيدى الركاب ، أراه قادما فيخيل إلىّ أن الأكواب سوف تسقط لتمايل العربات ، أو اهتزازها عند عبور فواصل مابين القضبان ، أو التوقف المفاجىء ، وتكأكأ العربات محتكة ببعضها عبر المصدات المعدنية الضخمة ، الدائرية الشكل ، العامل فى نهاية العشرينيات ، وربما بداية الثلاثينيات ، متوسط القامة ، أسمر ، لايمكن استنتاج تعبير معين من ملامحه إلا الإجهاد ، لكنه مبتسم دائما ، ابتسامة يواجه بها الركاب ، يبدو أنها من لوازم الشغل ، لكنه بدا شديد الحيوية ، لايكف عن الذهاب والمجىء ، حاملا تلك الصينية العامرة والتى ذكرتنى براكبى

الدراجات فى شوارع القاهرة المزدحمة ، يحملون فوق رؤوسهم أقفاص الخبز الضخمة المحملة بالأرغفة ، يسند القفص بيد وبيد أخرى يقود الدراجة ، قمة المهارة ومغالبة الأحوال من أجل الرزق ، حامل الخبز هذا لم أر له مثيلا فى أى مكان زرته من العالم ، لا فى العالم الأول ولا فى الثالث ، عامل القطار هذا يبدو أكثر مهارة ، فهو يحمل أكوابا ممتلئة ، وهو يمشى داخل مركبة غير مستقرة ، مندفعة ، متمايلة ، وينتقل من واحدة إلى أخرى ، يرتدى زيا بنى اللون ، وطوال ساعات السفر لم يفقد ابتسامته لاحظت أنه يخاطب الجميع .

«يا معالى الباشا» .

كل الركاب عنده «معالى الباشا» ، وكنت راغبا فى شرب كوب الشاى ، لكننى كنت أخشى أن يخاطبنى أيضا «يا معالى الباشا» ، وبرغم جديته ، وأدبه ، وتفانيه فى العمل ، إلا أن حكاية «معالى الباشا» هذه خيل إلىّ أنها تحتوى على قدر من السخرية .

خلال السنوات الأخيرة انتشر النداء بالألقاب الملغاة رسميا منذ ثورة يوليو ، وكان لقب «بك» سائدًا ، وكثيرا ما استخدمته ، تحرجا ، عندما ألتقى بمن أعرف ملامحه وغاب عنى اسمه ، وهناك من أخاطبه بالبك من باب الود ، ولكن هناك شخصًا واحدًا تبدو كلمة «بك» جزءا من اسمه ، إنه الأستاذ مصطفى أمين ، فلا ينطق أحد العاملين بدار أخبار اليوم أو من خارجها اسمه ، إن فى حضوره أو غيابه إلا مقترنا بلقب «بيه» ، ومصطفى أمين بك حقيقى ، حصل على الباكوية فى الأربعينيات ، ولكن كلمة بيه التى تقال الآن مقترنة بتقدير الناس وحبهم له ، ولم أسمع قط من يخاطبه قائلا : «ياباشا» .

مازال عامل البوفيه يبتسم للجميع ، وينحنى لهذا ولذاك .

«حاضر يا معالى الباشا . .»

«بالهنا والشفا يا معالى الباشا» .

أعود إلى النافذة مبتسما داخلى ، أستعيد مشهد بعض القصور الضخمة التى أنفق أصحابها الأموال الطائلة ، ثم آل أمرها إلى مصلحة حكومية ، أو مقر لهيئة التحرير ثم اتحاد قومى ثم اشتراكى ثم حزب مصر ثم . . . وطنى ديموقراطى ، وإن عاجلا أو آجلا سوف تتحول تلك القصور إلى أطلال ، كذلك الألقاب ، لو يعرف اولئك الرجال فى الزمان القديم مصير الألقاب التى بذلوا الجهد والمال والمساعى للحصول عليها ، تماما مثل الوظائف العليا ، خاصة فى الزمن المملوكى ، والوظائف الدنيا أيضا ، أوضح مثال على ذلك وظيفة الحاجب ، لقد كانت من أجل الوظائف فى الزمن الفاطمى ، والزمن الأموى والعباسى أيضا ، فالحاجب من كبار رجال الدولة ، هو الذى يحجب الخليفة عن الناس ، وهو الذى يقف بينه وبينهم ، لننظر الآن إلى وظيفة الحاجب ، لقد أصبحت قاصرة على صاحب الصيحة المشهورة «محكمة»!

كانت بعض الوظائف تكتسب أهمية وتفقدها مع الزمن ، كذلك الألقاب .

عرفت مصر كلمة «باشا» مع الغزو العثمانى ، وهى تركيبة تعنى «الرأس» ، كان الباشا يجىء من الآستانة ليتولى حكم مصر ، وكان بعضهم على درجة من المهابة وكان معظمهم يجىء ولا يفارق القلعة ، همه جمع مقدار غير هين من الثروة ، فالمدة محدودة ، والبلد ليس بلده ، والمماليك الكبار والصغار يتولون أمورها ، هكذا

نقص تعداد الشعب المصرى من حوالى تسعة ملايين مع بداية الغزو إلى أقل من ثلاثة ملايين زمن الحملة الفرنسية ، أى خلال مائتى سنة ، كان لقب باشا قاصرا على الأتراك والأرناءود والأرمن ، وبدءا من النصف الثانى للقرن الماضى نتعرف إلى باشوات مصريين ، أشهرهم وأهمهم أحمد عرابى باشا ، ولكن بعد ثورة ١٩١٩ ، منح لقب الباشا لمصريين أصلاء ، أصولهم فلاحية محضة ، وقرأنا عن رشاوى كانت تدفع لشراء اللقب ، وبالطبع بدأت قيمته فى الإنحدار ، حتى شاعت كلمة باشا فى السنوات الأخيرة فشملت حتى تجار المخدرات ، وكبار المشبوهين ، وأظن أن ذلك أمر لايسعد الأديب الكبير ثروت أباظة ، وهو ابن باشا حقيقى وشهير ، وقد أشار فى أحد مقالاته إلى تدهور اللقب ، هناك باشا واحد فقط أشعر أن اللقب جزء من شخصيته هو فؤاد سراج الدين تماماً كسيجارة الكوبى الشهير . .

«حاضر يا معالى الباشا . .» .

الجديد فى خطاب عامل البوفيه كلمة معالى هذه . . حقا . . إضافة لم أستطع مقاومة الرغبة فى شرب كوب الشاى ، ابتسمت عند قدومه ، مضمرا النية على أن أطلب منه ألا ينادينى ، لكنه بادرنى قائلا :

«يا معالى الباشا . .»

بدا الإيقاع غريبا فى سمعى ، قلت معاتبا :

«بذمتك أنا معالى الباشا . .»

ابتسم ، ولحظة ابتسامته رأيت تعبا ، وإرهاقا دفينا ، قال :

«الشغل يابك . .» .

بسرعة تحولت من معالى الباشا إلى البك ، قطبت مستفسرا ، فقال موضحا :

«أكل العيش يابك . .»

لم أشأ أن أبدو بمظهر الراكب الوحيد الذى يسلى نفسه بالحديث إلى الرجل الذى لايكف عن ذرع عربات القطار جيئة وذهابا ، لكن عبر المسافة جرى بيننا حوار متقطع ، إنه خريج كلية الحقوق ، منذ ست سنوات لم يعمل ، ولا يمتلك إمكانية فتح مكتب محام ، هذا عادى ، لم يعد مثيرا أن نلتقى بخريجى جامعات متعطلينّ يسعون إلى الرزق الشريف بأى صورة ، لكن ظروف عمله فى القطار بدت لى صعبة ، يبدأ تحرك القطار فى السابعة والنصف من القاهرة ، إلى أسوان ، تستغرق المسافة بدون أعطال ست عشرة ساعة ، ويقضى هناك حوالى أربع ساعات ، ثم يعود فى القطار إلى القاهرة ، إنه لايسافر جالسا على مقعد وثير من مقاعد الدرجة الأولى التى يتحرك بينها ، أى أنه يمضى أكثر من ست وثلاثين ساعة فى حركة مستمرة ، والأهم ، بدون نوم ، النوم مؤجل حتى يعود إلى بيته ، ليعود من جديد ، وطوال مدة عمله الاستثنائية تلك لاتهتز يده ، ولاتميل ، وتحافظ الأكواب على اتزانها الدقيق فوق الصوانى ، وهذه مدة عمل متصلة لم أسمع بها فى أى مكان من العالم ، وكانت أطول مدة متصلة متمثلة فى عم عبدالحميد - رحمه الله - كان من عمال مقهى الفيشاوى القديم ، وكذلك عم عبده - أطال الله عمره - ويقف الآن على النصبة يعد الشاى والقهوة ، كان كل منهما يستلم العمل فى السادسة صباحا ويستمر حتى صباح اليوم التالى ، حتى السادسة أيضا ، «يطبق»

ويغيب يوما ويعود من جديد ، وعامل المقهى ، سواء فى الفيشاوى أو القطار لايمكنه التزويغ ، أو الإغفاءة ، فلابد أن يتحرك باستمرار ، وأن يلبى طلب هذا ، وأن يرضى ذاك ، وأن ينتبه لمن يغالط فى الحساب ، فالبعض رغم مظهره الأنيق لايتورع عن إسقاط كوب شاى أو فنجان قهوة من الحساب فيضطر العامل إلى تذكيره ، ليس فقط بشربه الشاى أو القهوة ، ولكن بالظروف التى طلب فيها المشروب ، وبعد الدفع يومىء العامل شاكرًا ، مبديا الأدب :

«متشكرين يا معالى الباشا . .»

ويندفع القطار بحمولته من الباشوات . . وغير الباشوات .

الثلاثاء

عدت من افتتاح قاعة المومياءات الملكية مكتئبا ، حزينا ، حرصت على حضور الافتتاح ، وكنت أخشى الزحام واجراءات الأمن فرئيس الوزراء سوف يحضر الحفل ، غير أن الفنان فاروق حسنى ، أكد لى أن الفرصة ستكون متاحة للرؤية .

كان مصدر اكتئابى مجهولا ، غامضًا ، القاعة المعروض فيها المومياءات حديثة ، والمدخل المؤدى إليها يقدم فكرة جيدة عن عملية التحنيط ، ولكننى لم أخرج من القاعة سعيدًا ، راضيًا ، كنت أستعيد ما قاله الرئيس الراحل أنور السادات يومًا عن إعادة دفن ملوك مصر ، بدا هذا القول غريبا وقتئذ ، فالمومياءات معروضة منذ اكتشافها عام ١٨٨١ ، ولكننى الآن . . أفهم ما قاله الرئيس الراحل ، وأدرك ما جال بخاطره .

بعد انصراف رئيس الوزراء ، ووزير الثقافة ، والمدعوين ، ازدحمت الحجرة بصورة مزعجة ، مراسلين أجانب ومصورين يسلطون أضواء

الكشفات القوية فى وجه رمسيس الثانى ، وامنحتب الأول ، وسيتى الأول ، وتحتمس الثانى ، وتحتمس الرابع ، ومرنبتاح ، ورمسيس الخامس ، وفرعون مصر العظيم سقنن رع ، الذى توقفت أمامه بإجلال ، فجمجمته تحمل آثار الجرح القاتل ويده المتشنجة لاتزال على وضعها بعد أن تقلصت نتيجة تلقيه الضربة القاتلة من أحد الهكسوس .

كان الهرج الذى ساد القاعة عقب الافتتاح كبيرا ، ومزعجًا وهذا الهرج مألوف فى مصر ، حيث يتجمع الكافة حول المسئول الكبير ، وصل الأمر إلى حد التزاحم حول فتارين العرض ، لم تجد صيحات احتجاجى ، وكان أحد المسئولين عن القاعة مشغولا بالحديث إلى صحفى ، هرعت إلى الدكتور محمد صالح مدير المتحف ، كان عند المدخل فى الحشد المحيط برئيس الوزراء ، كنت أشعر بالغيرة على هؤلاء الأجداد العظام ، تضم تلك القاعة ثمانية من أعظم الملوك الذين عرفتهم الإنسانية ، ملوك عظام ، فلاسفة ، حكماء ، مجاهدين ، سقط بعضهم فى ساحة القتال دفاعا عن مصر ، ولاتزال آثار جراحهم ناطقة بعدما يقرب من أربع آلاف سنة .

كنت قد قرأت عن وجود مومياء الملكة مريت آمون ، وظننت أنها مومياء ابنة رمسيس الثانى ، تلك التى يقف تمثالها الأشم فى مدينة إخميم بعد أن اكتشف خلال السنوات الأخيرة ، وأننى لأعده أجمل تمثال لأنثى فى العالم ، وسوف أفيض فى الحديث عنه ، كنت أتوقع أننى سأرى مومياء هذه الفاتنة ، الرائعة ، لكننى اكتشفت أن مريت آمون التى ترقد فى القاعة هى زوجة الملك امنحتب الأول «١٥٢٩ ـ ١٥٠٨ ق .م» .

القاعة مجهزة بأحدث الوسائل العلمية التى تكفل ظروفا أفضل للعرض ، ولكن هذا وحده لايكفى .

إن أحد عشر مومياء ملكية معروضة فى فتارين متلاصقة متقاربة ، والقاعة كلها لايزيد طولها على أربعة عشر مترا ، وتلك مشكلة تتصل بالمتحف المصرى نفسه ، وضيق المكان الحالى بالنسبة لما يحتويه ، إن كل مومياء من هؤلاء فى حاجة إلى متحف قائم بذاته ، أذكر أننى زرت مقبرة لينين فى سور الكرملين ، المدخل والممر المؤدى إليها طويل ، مكسو كله بالرخام الأسود ، وعلى الجانبين يقف حراس روس أشداء بالزى الرسمى والصدور محلاة بالأوسمة والنياشين وإذا حاد أحد الزائرين عن الطابور مقدار شعرة يتدخل الحرس على الفور ، والهمس ممنوع ، والوقوف ممنوع ، ولابد من المرور فقط على جسد لينين المحنط .

وفى برلين ، يوجد رأس نفرتيتى فى متحف يكاد يكون قاصرا عليها ، يتوسط قاعة فسيحة جدا ، معتمة ، وصممت الأضواء بحيث تبرز جمال التمثال .

ما أتمناه أن يبدأ التخطيط لإنشاء متحف خاص بالمومياءات فقط ، ملكية وغير ملكية ، وأن يخصص لكل مومياء ملكية قاعة خاصة منفردة ، تحمل جدرانها الرسوم الخاصة بالملك ، وما وصل إلينا من أدواته ، ولابد أن تعكس هذه القاعات جلال الموت ، والرهبة فى نفوس الزائرين ، فالقاعة الحالية تعطى الانطباع بقاعات التشريح .

أعرف أن بناء متحف كهذا يحتاج إلى أموال طائلة ، وإلى خبرات ، ولكن أثق أيضا أن الهمة موجودة لدى الفنان فاروق حسنى والخيال أيضا ، وأثق أنه قادر على ذلك ، وحتى يتم بناء

هذا المتحف المهيب الذى يجب أن يليق بأعظم ملوك عرفتهم البشرية ، فراعنتنا العظام ، أتمنى أن يتم تخصيص حرس من القوات المسلحة أو من الحرس الجمهورى يصطف باستمرار أمام القاعة وداخلها ، ولكى يؤمنها أيضا ، لقد لاحظت اهتمام الأجانب بمومياء مرنبتاح ، وكان بعضهم يؤكد أنه فرعون موسى ، وهذا أمر غير ثابت تاريخيا ، لكن يجب أن نضع فى الحسبان أن هناك مجانين يهوداً على استعداد لاغتيال الأموات ، مثل باروخ جولد شتين الذى اغتال الأحياء المسلمين الركع السجود .

يجب أن يحاط فراعنة مصر بكل مظاهر التكريم ، وأن يمنع تماما دخول آلات التصوير أيا كان نوعها ، وأن يتم المرور أمام المومياءات وليس الوقوف ، وألا يزيد عدد المتواجدين داخل القاعة على عدد معين ، وعدم الحديث بصوت مرتفع ، أظن أن بعض هذه الاجراءات منفذة بالفعل الآن ، ولكن المهم هو الحزم فى المتابعة والتنفيذ ، ولو أمكن ، فليكن من تقاليد الزيارة خلع الأحذية قبل الدخول .

تلك إجراءات عاجلة يجب اتخاذها ، والأشد عجلة هو البدء فى التخطيط لإقامة متحف خاص بالمومياءات الملكية وعرضها بالشكل اللائق ، المهيب . .

ربما اكتشف الآن أثناء تدوينى تلك السطور بعضا من أسباب اكتئابى الغامض يوم الافتتاح ، فللموت رهبة وجلال عندنا نحن المصريين ، ولو قدر للزمن أن يتداخل ولأحد هؤلاء الأجانب ـ أيا كان ـ أو أحد الزائرين ، أن يذهب إلى العصر الفرعونى ، فلن يجرؤ على الاقتراب . . مجرد الاقتراب من مقر أحد هؤلاء الراقدين ، المستباحين الآن لكل من دفع قيمة التذكرة .

هذه المومياءات اكتشفت فى عام ١٨٨١ فى خبيئتين بالبر الغربى للأقصر ، وتمثل قصة اكتشافهما محور الفيلم الرائع «المومياء» الذى قدمه الراحل شادى عبدالسلام إلى السينما العربية والعالمية ، كان كل ملك من هؤلاء العظام يرقد فى مقبرته الفخمة ، محاطا بكنوز الحلى ، والأثاث وحتى أنواع الطعام التى كان يفضلها ، وإذا كانت محتويات مقبرة توت عنخ أمون ، تبهر العالم الآن ، وهو الفرعون الذى لم يحكم إلا فترة قصيرة جدا ، وتوفى فجأة وله من العمر ثمانى عشرة سنة ، فلنا أن نتخيل محتويات مقبرة رمسيس الثانى الذى حكم لمدة ثمانى وستين سنة ، وكان ملكه أسطوريا بكل المقاييس ، لقد طالت يد اللصوص كل هذه المقابر العظيمة ، وسرقوا الذهب ، والكنوز مع تدهور الحضارة الفرعونية ، وانحلال معتقداتها ، هنا ، وقد أدرك الكهنة خطورة النهاية ، سعوا إلى إنقاذ الملوك العظام ما تبقى منهم ، خاصة مومياءاتهم ، فجمعوها على عجل وأعدوا لها توابيت خشبية رخيصة ، ودفنوها مجتمعة فى موضعين ، وظلت فى أماكنها المغلقة ، المعتمة أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ، شهد العالم خلالها نزول ثلاثة أديان سماوية ، وتأسيس إمبراطوريات وانهيارها ، وفى القرن الماضى خرجت المومياءات من مخابئها ، وعندما حملتها المركب النيلية التابعة لمصلحة الآثار ، فوجىء رجال الشرطة وعلماء الآثار بخروج أهالى القرى ، خاصة النساء وهن ينشرن شعورهن ، ويصرخن باكيات فى موكب جنائزى مهيب ، موكب أفكر فيه كثيرا ، فى دلالته ومغزاه ، إنه الموكب الأخير لهؤلاء الملوك الذين لم يلتق أى منهم بالآخر إلا فى الموت ، الذين عبروا تلك الأزمنة كلها ليستقر بهم الأمر فى متحف ونحمد الله أنهم يرقدون فى متحف مصرى ، فى القاهرة ، وليس فى اللوفر أو المتحف البريطانى أو الارميتاج فى روسيا ، وغيرها من المتاحف التى لايخلو أحدها من مومياءات الفراعنة .

وصلت السفينة إلى ساحل أثر النبى ، كان هناك جمرك وقتئذ لجباية الضرائب على البضائع القادمة من الصعيد .

وحار موظف الجمرك فى هذه البضاعة الجديدة الواردة ، لم يعرف فى أى خانة يدرجها ، ولا المكوس التى يجب أن يقدرها .

تطلع طويلا إلى مومياءات رمسيس الثانى وسيتى الأول وتحتمس ومرنبتاح وسقنن رع وغيرهم ، ثم كتب فى الكشف .

«أسماك مملحة . .» .

فسبحان من له الدوام .

الأحد

بالكاد . . أحاول الاحتفاظ بساعة أو ساعتين ليلا ، أجلس خلالهما إلى المكتب لأقرأ وأكتب ، تلك الجلسة التى تعد جزءا رئيسيا من إيقاع حياتى ، اجتهدت فى الالتزام بها منذ خمسة وثلاثين عاما ، لم تنقطع إلا فترات محدودة جدا فى حياتى ، إما بسبب مرض يقعدنى ، أو سفر داخل مصر أو خارجها ، أو ظروف عمل استثنائية ، مثل زمن الحرب ضد إسرائيل ، حيث كنت مقيما باستمرار ، إما فى السويس أو الإسماعيلية أو بورسعيد ، وكنت متجها بكيانى كله لمشاركة الوطن محنته ، مجندا قلمى لوصف معارك قواتنا المسلحة زمن حربى الاستنزاف وأكتوبر ، اختل هذا النظام الصارم أيضا منذ سنة ونصف تقريبا ، فترة الإعداد لإصدار «أخبار الأدب» وبعد صدورها ، وخلال تلك المرحلة الأخيرة سبب لى اختلال النظام الذى التزمت به طوال عمرى قليلا إلا إيجابيات الدور العام الذى تقوم به «أخبار الأدب» من أجل الثقافة المصرية ، هذا الدور الذى يتوطد الآن بعمق على مستوى العالم العربى كله ،

ولأن العمر محدود ، والوقت المتاح قصير جدا ، أجتهد للحفاظ على تلك الجلسة التى كانت تستغرق من قبل ساعات عدة ، ولم تعد تطول الآن أكثر من ساعتين ، لذلك يندر جلوسى أمام التليفزيون ، لايشدنى إليه إلا عمل فنى رفيع كما حدث فى رمضان فى مسلسلى «العائلة» و«أرابيسك» لذلك بدأت أحذر من تكرار مثل هذه الأعمال الجيدة ، فميزة الأعمال التافهة أنها لاتشجع أمثالى على إضاعة وقتهم ، ولاتحفز الآخرين على التفكير . .

هذه الليلة ، وبدافع الفضول خرجت من غرفة مكتبى إلى الصالة حيث التليفزيون ، قالت زوجتى إن إرهابيا سابقا يتحدث فى التليفزيون ، وأن حديثه مؤثر جدا ، فقررت أن ألقى نظرة لمدة دقائق ، لكننى وجدت نفسى مشدودا كما لم يحدث من قبل مع أى حدث أو عمل فنى منذ سنوات طويلة .

حديث متدفق ، صادق ، يعكس معاناة حقيقية ، ويفتح مغاليق عالم شديد القرب منا ، جزء من المجتمع الذى نعيشه ونتحرك فيه وتتقرر فيه مصائرنا ، ولكننا لانعرف عنه شيئا بالمرة ، دلنا عليه عادل عبدالباقى .

سنوات طويلة وآلاف يتحركون فى قرى مصر ومدنها ، يجتمعون ويتناقشون ويقررون ، ويحكمون بتكفير الخلق ، والتفريق بين الزوج وزوجته ، وتغيير الأسماء والأطفال ، يتدربون على السلاح ، ويضعون الأيدى على مساحات شاسعة من الأراضى ، ويقيمون المشروعات ، ويصبحون قادرين على حل مشاكل الإسكان والزواج ، والعمل ، تتدفق الأموال عليهم ، وفى مرة واحدة فقط شهد عادل محاميا كبيرا ، وأحد أعضاء مجلس النقابة ، وأحد وجوه حركة الإخوان المسلمين وهو يتسلم

شيكا بربع مليون جنيه من دولة عربية شقيقة ، وشقيقة جدا لتمويل الجماعات . . أوالأخوة بتعبيره . . يتم ذلك كله وكأن هؤلاء يتحركون فى فراغ ، فراغ لاتوجد به دولة ، ولامؤسسات ، ولا نظم معمول بها .

لقد قرأت اعترافات عادل عبدالباقى من قبل فى الحوادث ، لكن رؤيته من خلال التليفزيون كانت مؤثرة جدا ، خاصة أنه كان صادقا ، إضافة إلى شخصيته القوية ، وثقافته ، وذكائه ، وأعماقه الإنسانية التى كانت سببا فى توبته ، خاصة علاقته بأطفاله كأب .

أسئلة عديدة ، وخواطر بلاحصر ، تدفقت على ذهنى وأنا أجلس مصغيا متفرجا ، بل إننى بعد دقائق سعيت إلى تنبيه الأصدقاء الأعزاء عبر الهاتف إلى ما يذاع ، وكان رنين الجرس يسبقنى ، فبعضهم اتصل بى لنفس الغرض ، الحديث فى مجمله يتطلب منا وقفة على جميع المستويات ، فمازال الخطر قائما ، مئات علامات الاستفهام حلقت أمامى ، بدءا من هذا النظام الموازى الذى أقامه «الأخوة» فى الخفاء ، إلى تلك الحرية فى السجون المصرية التى تسمح بدخول ماهو «أشد من الكتب» ، بتعبير عادل نفسه ، والخلوة بين الشيخ عمر عبدالرحمن وزوجته ، بالمناسبة نشرت الصحف يوم الجمعة الماضى نقلا عن رويتر أنه وقف مطالبا بزيارة زوجته فى سجنه الأمريكى ، وهدد بأن يتزوج بأخرى إذا استمروا فى منع زوجته عنه !

أسئلة عديدة تتطلب وقفة شاملة ، ولكن ما أريد لفت الانتباه إليه أن هذا الحديث نفسه جاء ثمرة تطور هام نشعر به جميعا فى أداء جهاز الشرطة خلال الشهور الأخيرة ، وسبقه وأدى إليه جهد

كبير تم من خلال إدارتى أمن الدولة ، والعلاقات العامة ، ولكن أغرب ما نما إلى علمى أن بعض المذيعين خافوا من الظهور فى التليفزيون ، طبعا التحية هنا واجبة لمحمود سلطان وفاطمة فؤاد ، ولكننى أعتقد أن من يتهرب من أداء واجبه ليس جديرا بالظهور مرة أخرى فى هذا الجهاز الخطير الذى بدأنا نشعر من خلاله صحوة فى مواجهة الإرهاب ، وإن جاءت متأخرة .

الثلاثاء

قلبى مع الشرطة .

مع شرطة مصر الوطنية ، حيث يقف رجالها فى مواجهة الخطر الذى يهدد وطننا ، وتاريخنا ، وحضورنا الإنسانى ، قدر الشرطة أن تتحمل الآن مسئوليات هائلة كان من المفروض أن تتوزع على جهات شتى .

قلبى مع كل ضابط وجندى ، يخرج من بيته فى الصباح ليواجه خطرا خفيا ، جبانا ، لايمكن تحديد مصدره ، فلاتوجد خطوط فاصلة ، أو مواقع محددة ، كما يتم الأمر فى الحروب ، ولكن لأول مرة فى تاريخ مصرنا العزيزة تصبح وحدتها الأبدية مهددة بخطر جسيم ، خفى ، جبان ، ورجال الشرطة قدرهم أن يتحملوا المسئولية الجسيمة .

فى مصر منظمة نشطة لحقوق الإنسان ، بياناتها شجاعة ، وممارستها لنشاطها صورة من الصور الإيجابية للديموقراطية ويتولى أمانتها الآن محام شاب وطنى ، مصرى مخلص ، الصديق نجاد البرعى ، وإننى أتمنىً أن أقرأ فى البيانات الصادرة عنها استنكارًا لهذه السلسلة من الاغتيالات التى تتم لرجال الشرطة بنفس القدر الذى تدين به اللجنة العنف .

هذا الخفير الذى تغتاله رصاصات الغدر من أجل سرقة سلاحه ، أليس إنسانا له حقوق؟

هذا الضابط الذى يسقط شهيدًا ، هذا الجندى المجند الفقير . . أليست حقوقه فى الحياة هى أبسط الحقوق المتعارف عليها فى أدبيات حقوق الإنسان ؟

كل شهيد من هؤلاء يترك وراءه أطفالا وزوجة ، هل ننسى هؤلاء؟

كم معاش الضابط ؟

كم معاش الخفير أو الجندى ؟

لقد ارتفعت أصوات من قبل تدعو إلى اكتتاب شعبى لتعويض ضحايا الإرهاب ، ولم تستمر الدعوة ، وأعرف شخصيا عددا كبيرا من رجال الأعمال على استعداد للتبرع ولكن لايوجد تحرك جدى حتى الآن ، ولأننى أؤمن أن جميع الأحزاب الحالية عاجزة ، فأعتقد أنه لابد من تصدى شخصية شعبية قوية لمثل هذا العمل ، والوحيد القادر على ذلك هو الأستاذ مصطفى أمين ، لكم أتمنى أن يدعو إلى حملة تبرعات من أجل ضحايا الارهاب ، وهناك لجنة شعبية ضد الإرهاب يتولى أمانتها أحمد يحيى مدير المصرف العربى الدولى ، وتضم شخصيات ثقافية وفنية وسياسية بارزة ، يمكن أن تتولى الجانب العملى فى الموضوع .

كثيرون من شعبنا الطيب الأصيل ، يريدون اتخاذ موقف ضد الإرهاب ، لكنهم لايعرفون إلى من يتجهون ولا ماذا يفعلون ؟

الأربعاء

أقرأ عن خلافات بين محافظ أسيوط الحالى وبين أمين الحزب الوطنى وبعض قياداته فى أسيوط .

أقرأ ويملؤنى الأسى ، والمرارة .

أخطر منطقة ينشط فيها الإرهاب تعانى خللا فى العلاقة بين أجهزة الدولة وبين قيادات الحزب الحاكم .

الخلاف ليس مستحدثا ، ولا جديدا ، نفس الخلاف كان موجودا خلال تولى اللواء حسن الألفى ، منصب محافظ أسيوط ، وفى يوميات الأخبار كتبت عنه صراحة بعد زيارتى لأسيوط فى ديسمبر عام ١٩٩٢ ، وبعد أن اطلعت على تفاصيل تذهل أى إنسان عاقل ، ولا أريد استخدام تشبيهات أدبية ليس لأنها مستهلكة ولكن لأنها أكليشيهات ، ولكن . . . لأن الوضع فى أسيوط مذهل حقا ، ونواقيس الخطر تقرع منذ سنوات على صفحات الجرائد ، والوضع كما هو بالنسبة لبعض القيادات الحزبية ، بعضها رائحته كريهة ، والآخر شديد الصلة بالإرهاب .

كل التفاصيل معروفة فى شوارع ومدن أسيوط ، ومقاهيها ومدارسها ، ومصالحها الحكومية ، والنتيجة . . . تلك الأيام الدامية التى تعيشها أسيوط . . فماذا ننتظر ؟

الخميس

بصراحة لم أكن أتصور أن يحدث ذلك يوما . .

أن يُهَدَد شقيق ووالد واحد من أعظم شهداء مصر بالطرد من مسكنه ، ومن الذى يهدد؟ هيئة رسمية ، مهيبة ، يقودها مقاتل قديم شجاع أثق تماما أنَه لم يُحَط علما ، بما يجرى ، هو الفريق إبراهيم العرابى ، أما الهيئة فهى العربية للتصنيع الحربى .

أما المُهَدَد بالطرد من مسكنه فهو سمير الرفاعى ، شقيق العميد أركان حرب إبراهيم الرفاعى ، أحد رموز العسكرية المصرية .

لكنه زمن يمكن أن نتوقع فيه حدوث أى شىء ، ولقد رأيت فيه من الأهوال ما تصورت أنه كاف ، لن يثير فضولى لشىء آخر ، غير أن ما يعرض لى يكاد يصيبنى أحيانا بالذهول .

الواقعة محورها سمير الرفاعى إذن . . أحد أقدم العاملين بالهيئة العربية للتصنيع ، يمكن القول إنه من مؤسسيها ، وتاريخ خدمته نموذجى ، مشرف بحق ، يقيم فى شقة بالعمارة رقم ١٠ شارع نهرو ، مصر الجديدة ، والعمارة واحدة من أخريات تخصصها الهيئة لسكنى العاملين بها ، خصصت له الشقة منذ التاسع من أغسطس ١٩٧٩ مقابل الانتفاع قدره مائة وتسعة وسبعون جنيها شهريا .

فى ٢٦ نوفمبر ١٩٩٢ بلغ سمير الرفاعى السن القانونية للتقاعد وصدر قرار رئيس الهيئة بإحالته إلى المعاش ، والمفروض أن يستعد الإنسان لاستقبال حياة هادئة ، خاصة بعد عمر طويل من الخدمة والتفانى فى العمل ، لكن سمير الرفاعى لم يكن يعلم أنه سيواجه ظروفا صعبة .

طلب منه إخلاء الشقة لأن مدة خدمته انتهت . .

هنا تقدم سمير الرفاعى بطلب إلى رئيس الهيئة يطلب الاستمرار فى إقامته بالشقة ، ليس استنادا إلى أسباب إنسانية مشروعة ، أبسطها ، كيف يطلب من إنسان أفنى حياته بهمة وشرف فى سبيل العمل أن يخرج من شقته إلى الشارع ليواجه وضعا غير إنسانى فى هذا العمر المتقدم مع أسرته ، ومع والده الذى تجاوز التسعين المقيم معه ـ هذا الأب قدم لمصر شهيدين عظيمين إبراهيم الرفاعى ومن قبله سامح الذى استشهد فى اليمن ـ فنحى كل هذه الاعتبارات جانبا مع أنها اعتبارات لايمكن تجاهلها ، لكننا نستند

إلى القانون الذى تحاول الهيئة استخدامه ضد سمير الرفاعى(*)، فالسيد رئيس الهيئة قرر سنة ١٩٨٥ فى ٢٢ يوليو بالتحديد أنه : «فى إطار ما تقرره لوائح الهيئة من رعاية اجتماعية للعاملين ومن يعولونهم شرعا بسبب العمل ، يجوز للجهة المختصة أن تسمح باستمرار الترخيص بشغل الوحدة فى الأحوال الآتية :

١ ـ للعامل الذى تنتهى خدمته ببلوغ سن التقاعد أو . . .»

وهذا القرار ينطبق تماما على سمير الرفاعى ، إلا أن الطلب الذى تقدم به مشفوعًا بمذكرة تعدد الخدمات التى أداها للهيئة لم تشفع له ، واستمرت الهيئة فى موقفها المتصلب ورفعت قضية طرد ، يحدث هذا فى الوقت الذى تم فيه تمليك العمارات الأخرى للعاملين ، ولكن هذا الموقف يبدو غريبًا من بعض المسئولين فى الهيئة ، وهو المحارب القديم الذى زرته يوما فى مقر قيادة الفرقة ٢١ المدرعة قبل حرب أكتوبر ، ومازلت أذكر نبرات صوته وملامحه العسكرية .

وأقول له : بغض النظر عن جميع الاعتبارات التى تتعلق بما قدمه سمير الرفاعى للهيئة ، والوضع القانونى الذى يعطيه الحق فى الاستمرار بالسكن ، بغض النظر عن السطور والكلمات ، ودعاوى الطرد ، أتساءل : أليس من حق الأب الذى تجاوز التسعين الآن ، والذى قدم للوطن شهيدين ، وكلاهما من الرموز ، أليس من حقه علينا أن نكفل له أياما هادئة آمنة مع ابنه الذى تقاعد بعد عمر مشرف ؟ . أم ندفع بهما إلى الشارع فى ظروف صعبة ، ثم نتحدث بعد ذلك عن الانتماء . . والمثل التى نقدمها إلى الشباب .

أرجو من الفريق العرابى أن يضع حدًا لهذا الكابوس الذى يأبى العقل أن يصدقه !!

الفهـــرس

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨